دكتور
عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني

افتراءات المستشرقين على الإسلام

عرض .. ونقد

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

أدركت أوروبا منذ زمن بعيد عظمة الإسلام وقدرته الفائقة على الذيوع والانتشار . كما أدركت أن الإسلام إذا أحسن المسلمون العمل به صاروا قوة من طراز فريد ، وأنهم بالإسلام يكونون مؤهلين - بحق - لريادة العالم أجمع ، وأن ما عدا الإسلام من النظم والأيديولوچيات سوف تتهاوى وتذوب أمام الإسلام كما تذوب كتل الجليد تحت أشعة الشمس وحرارتها ، لذلك لم تأل أوروبا الحديثة جهداً فى محاربة الإسلام بكل وسيلة متاحة . وكان هدفها - وما يزال - من محاربة الإسلام : إما القضاء التام عليه إن أمكن .

وإما محاصرته ووضع السدود أمامه حتى لا يتسرب إلى معاقلهم وأوطانهم.

وإما تشويه حقائقه لدى المسلمين أنفسهم والحيلولة بينهم وبين الإسلام ليسلبوهم مصادر قوتهم وعزتهم وكرامتهم .

ومن أجل هذا كان الاستعمار للبلاد الإسلامية . وفى كل بلد إسلامى خضع للاستعمار عمل المستعمرون على عزل المسلمين عن إسلامهم .

ولما تقلص ظل الاستعمار العسكرى فى أقطار الإسلام ظلت بعده بدائل تؤدى أخطر الأدوار فى محاربة الإسلام ، ومن أخطر هذه البدائل ما عُرف بـ « التبشير » ، ثم ما عُرف بـ « الاستشراق » .. والمستشرقون هم تلاميذ المبشرين بلا نزاع ، والمستشرقون جماعة من كُتّاب أوروبا ومفكريها عكفوا على دراسة الإسلام منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وخلال مائة وخمسين عاماً من بدء ظهورهم بلغ عدد المؤلفات التى وضعوها عن الإسلام ستين ألف مجلد ، موزعة على مختلف العلوم والفنون والمعارف الإسلامية والعربية ، وهم بالنسبة لموقفهم من الإسلام ثلاثة أقسام :

قسم منصف معتدل ، وقسم حاقد شديد العداء والكراهية للإسلام ، وقسم محايد .

ولم تسلم كتاباتهم من الخطأ ومخالفة الواقع ، ولكن الفروق جد كبيرة بين الأخطاء غير المتعمدة ، التى صدرت عن القسمين المنصف منهم والمحايد ، وبين الأخطاء المتعمدة التى تورط فيها القسم المعادى للإسلام وهم غالباً من قساوسة النصارى وكهنة اليهود . والملاحظ أن أعضاء هذا القسم جنود أوفياء لخدمة الاستعمار ، ومعاونة أساتذتهم المبشرين ، وكثير منهم يعمل بالسلك الديبلوماسى (وزارات الخارجية) التابع لدولهم ، إما بصفة رسمية أو غير رسمية . واليهود منهم يعملون لخدمة الصهيونية العالمية مثل « جولد زيهر » اليهودى المجرى الذى لقب بـ « شيخ المستشرقين » لكثرة طعونه فى الإسلام والتحامل عليه .

والناظر فى مؤلفاتهم أو ما كُتب عنها يرى أنهم لم يتركوا نقيصة إلا وقد ألصقوها بالإسلام ، ولا حقيقة من حقائق الإسلام الناصعة إلا وقد حاولوا طمسها أو تشويه ملامحها الوضيئة : ﴿ حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ (١) كما يقول القرآن العظيم .

وإسهاماً منا فى الدفاع عن الإسلام رصدنا صوراً عديدة من افتراءاتهم على الإسلام ، وحاولنا - فى إيجاز شديد - نقضها وإبطالها والكشف عن الزيف الذى فيها ، وكيف تعسَّف أولئك الحاقدون فى إلصاق التهم بالإسلام وأنهم لم يقولوا إلا زوراً وبهتاناً ، يحمل بين طياته عوامل هدمه .

وقبل أن نشرع فى نقض مفترياتهم حول الإسلام نضع أمام القارئ نبذة من كلام بعض المستشرقين ليدرك القارئ مدى الحقد الذى يضمرونه على الإسلام والبواعث الخبيثة التى حملتهم على دراسة الإسلام والتآمر عليه .

---

(١) البقرة : ١٠٩ .

يقول المسيو « كيمون » فى كتابه « ميثولوچيا الإسلام » :

« إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هو مرض مروِّع ، وشلل عام ، وجنون ذهنى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منها إلا ليسفك الدماء ، ويدمن الخمور (؟!) وما قبر محمد - ﷺ - فى مكة - يقصد المدينة - إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رءوس المسلمين (؟!) ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع والذهول (؟!) وتكرار لفظة الله .. الله » (؟!) .

فهل يُنتظر من أناس هذا عداؤهم للإسلام أن يقولوا عنه إلا كل ما هو سئ وقبيح ؟!

المؤلف

* * *



عزلة النبى فى غار حراء .. هروب من حر مكة .. ؟!

من المعروف أن النبى ﷺ كان يقيم بغار حراء - قبل البعثة - الليالى ذوات العدد للتأمل والعبادة على ما كان يعرف من دين إبراهيم أبى الأنبياء عليهم السلام وعزوفاً عما كان يجرى فى المجتمع الجاهلى من مساوئ ومنكرات . والتأمل فى صنع الله بعيداً عن الناس أقصر طريق لصقل القلوب ، وتصفية النفوس وتقوية صلتها بالله .

هذه المعانى الرفيعة ، والمقاصد النبيلة ، والملامح الوضيئة من سيرة خاتم الرسل حاول المستشرقون أن يطمسوها ويثيروا حولها سحباً من الضباب الكثيف القاتم . فيذهب المستشرق الإنجليزى « مونتجمرى وات » فى كتابه « محمد فى مكة » إلى أن ذهاب النبى إلى غار حراء ليس مستبعداً ، ولكن لماذا كان يذهب إليه؟

ثم يجيب : « ربما كانت هذه طريقة لتفادى حر مكة للذين لا يملكون القدرة على الذهاب إلى الطائف .. » ؟!

* *

هذا افتراء محض من « وات » والواقع يكذّبه من أقصر طريق وذلك للاعتبارات الآتية :

أولاً : هل كان محمد ﷺ هو الفقير الوحيد فى مكة ؟

كلا وألف كلا . فلماذا - إذن - ترك الفقراء الآخرون محمداً يتمتع وحده بهذا المصيف الرائع ؟!

ثم إن مكة مليئة بالجبال ؛ فلماذا لم يشتهر عن الفقراء الآخرين أنهم كانوا يفرون إلى الجبال الأخرى كما فرَّ محمد إلى جبل حراء ؟!

ثانياً : إن هذا الجبل الذى كان يلجأ إليه محمد ﷺ ما أصعب الصعود إليه ، وما أصعب الهبوط منه . إن رحلة الصعود تتطلب جهداً مضنياً وزمناً لا يقل

عن الساعة ! فلماذا كان - عليه السلام - يتحمل هذا العناء ؟ ألم يكن يكفيه أن يلجأ إلى ظل شجرة أو ظل حائط إن كان فعلاً يفر من شدة الحرارة ؟

وأهل مكة قديماً كانوا يبنون منازلهم على شكل « قباب » لها نوافذ تسمح بمرور الهواء وترطيبه ورش الأرض بالماء . أفكان محمد ﷺ يعجز أن يصنع مثل صنيعهم ياترى ؟!

ثالثاً : إنه لم يكن يصحب معه إلا الماء والتمر والخبز الجاف ، فأين طلب المتعة الحسية فى هذا الاعتزال ؟!

رابعاً : نسى المستشرقون أن محمداً ﷺ - وقتذاك - كان زوجاً لخديجة بنت خويلد وأنها كانت من أثرى أثرياء قريش ، ولو كان صلى الله عليه وسلم يريد الهروب من حر مكة لاستطاع أن يقيم هو وزوجه وأولاده منها فى قصر منيف بالطائف فيه ما لذّ وطاب من المأكول والمشروب والمنظور ، وما كانت خديجة ، لتبخل عليه بمالها وله عندها منزلة ما حظى بها زوج من زوج .

خامساً : إن محمداً ﷺ لم يكن بدعاً من الرسل وبعض الصدِّيقين ، فزكريا عليه السلام كان يعتزل قومه . ومريم الصدِّيقة كانت تعتزل قومها ، وكل منهما أوتى فى عزلته فضلاً وآيات من الله . زكَريا بُشِّرَ فى خلوته بيحيى بعد عُقم ، ومريم أنجبت رسول الله عيسى . ومحمد ﷺ تلقى فى تلك الخلوة مراسم الرسالة الخالدة . إنها خلوات كانت بتدبير من ذى الجلال والإكرام . وليست لطلب الملذَّات الدنيا ولا الهروب من معانات ظروف الحياة .

المستشرقون سكتوا عن عزلتى زكريا ومريم ، وتناولوا عزلة رسول الإسلام بالتشويه ؛ لأنه رسول الإسلام . ويقينى أن عزلة زكريا وعزلة مريم لو كانتا من وقائع السيرة الإسلامية لما سكتوا عنهما ، ولقال المستشرقون النصارى فى عزلة مريم ما قاله اليهود فيها من قبل : ﴿ يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴾ [1] . ولطعنوا فى نسب عيسى عليه السلام ورموا أمه الطاهرة بالفحشاء .. ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ [2] .

* * *

(١) مريم : ٢٧ (٢) الكهف : ٥

القرآن المكى .. لم ينزل به جبريل .. ؟!

مرَّ رجل بجحا وهو يحفر الأرض فى فضاء واسع ، فقال : ماذا تفعل ياجحا ؟ قال : أبحث عن صُرَّة من الذهب كنتُ قد دفنتها فى الأرض هنا . قال الرجل لجحا : هلاَّ كنتَ جعلت عليها علامة ؟ قال جحا : كنتُ قد جعلت . قال الرجل لجحا : وما هى العلامة التى كنت قد جعلتها ؟ قال جحا : سحابة كانت فى السماء .

هذه نادرة مضحكة من الأعماق منسوبة إلى جحا الضاحك المضحك ، وسواء أكان جحا شخصية تاريخية فعلاً ، أو أسطورية جُعلت رمزاً للنوادر المضحكة من هذا النوع . فإن السادة المستشرقين الذين اتخذوا من الإسلام وحقائقه غرضاً لسهامهم ، كثيراً ما تصدر عنهم مقولات عن الإسلام هى أكثر من نوادر جحا إضحاكاً وسذاجة . والفرق بينهم وبين جحا أنه موصوف بأنه ضاحك مضحك . أما السادة المستشرقون خصوم الإسلام فهم باكون مضحكون دائماً .

*   *

● نادرة المستشرقين :

نذكر هنا نادرة واحدة من نوادر المستشرقين . ثم نضعها فى مكانها اللائق بها من التفكير الخرافى الواهم .

وقف المستشرق « مونتجمرى وات » من الوحى الذى تلقاه محمد ﷺ مواقف غريبة ومريبة لأبعد الغايات ، ومن بادئ الأمر أعلن أنه لن يجزم بأن القرآن وحى من عند الله ، ولا أنه من وضع محمد ﷺ . وقال : « لذلك فلن تجد فى بحثى عن القرآن : قال الله ، ولا قال محمد ؟! بل سأقول : قال القرآن » ؟!

يريد « وات » أن يخدع القارئ بأنه رجل « محايد » ، وكان هذا القول يمكن قبوله من « وات » ، حتى منا - نحن المسلمين - لو كان قوله هذا وسيلة للبحث المجرد عن الأهواء ، لا مع ، ولا على . ولكننا فوجئنا بعد فراغنا من

بحثه عن القرآن ، بل وفى أثناء قراءتنا له . بأن قوله السابق كان « غاية ونتيجة » ولم يكن وسيلة للبحث المجرَّد عن الأهواء ، و « وات » فى أثناء بحثه عن مصدر القرآن سار بين بين : لا مفصح ولا كاتم ، ولذلك فإنه وضع إسقاطات غير شجاعة فى غضون كلامه ، تفيد معنى لازماً لها ، ذلك هو التشكيك فى أن القرآن وحى من عند الله ، وترجيح أن القرآن بَشرى المصدر لا وحى نزل من عند الله !!

* *

● تمهيده للنادرة :

والنادرة المضحكة الساذجة التى أشرنا إليها من قبل قدَّم لها « وات » بتمهيد من شأنه أن يهيئ النفوس لقبولها . ومعلوم أن القرآن نزل فى موطنين : مكة قبل الهجرة (٨٥ سورة) والمدينة بعد الهجرة (٢٩ سورة) ، وقد وقف «وات » فى تمهيده أمام القرآن المكى ، وعرض لبدايات الوحى ، والرؤى المتكررة التى رآها رسول الله ﷺ لجبريل سفير الوحى ، والأحاديث التى وصفت تلك الرؤى ، ثم الآيات التى وردت فى سورة النجم : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴾ (1) ... وغيرها .

ثم انتهى من ذلك كله إلى أن الرؤى التى رآها النبى ﷺ فى مكة لا تفيد أنه كان يرى فيها جبريل ، سواء فى ذلك أحاديث الرؤى وآياتها ، وإنما تفيد أن الرسول كان قد رأى الله وليس جبريل ؟!

وكم تحايل « وات » على قدسية النصوص القرآنية والنبوية ، ولوى أعناقها لكى يثبت فرضيته الكاذبة بأن النبى ﷺ لم يكن يقول إنه رأى الملك «جبريل» بل كان يرى الله ؟!

ولا تظنن أن « وات » يريد أن يقول إن مصدر القرآن المكى كان وحياً مباشراً من الله بدون وساطة الملك « جبريل » ، بل الرجل يريد أمراً آخر سيرتب عليه المقصود الخبيث له كما سيجئ . إن كل همه أن يقول إن جبريل لم ينزل بالقرآن المكى .. ؟ ! ثم ماذا ؟ ثم أن يثبت أن القرآن المكى – كما ورد فى الأحاديث

---

(1) النجم : ١٣ - ١٤

- حسب زعمه - تلقاه الرسول عن الله مباشرة . ولا يلبث « وات » أن ينتقل إلى مقصوده الخبيث فيذهب إلى :

ما دام النبى فى مكة لم ير جبريل ، فهو - إذن - قد تلقى الوحى من الله مباشرة ، وقد صرَّح - أى النبى - بأنه رأى مصدر الوحى المكى - وهو الله حسب دعواه - فكيف يستقيم أن يرى محمد - وهو بَشر - الله بعينى رأسه وقد قرر فى القرآن المدنى بأن الله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [1] ؟!

يقصد أن محمداً ﷺ كان كاذباً فى دعواه ، أنه رأى الله - حاشا لله - ومعنى هذا أن القرآن المكى (٨٥ سورة) ليس له مصدر من الوحى فهو كلام بَشر ؟ !

ويزيد دعواه هذه تأكيداً فيقول : « إن جبريل لم يرد اسمه إلا فى القرآن المدنى بعد الهجرة . ولم يرد اسمه قَطْ فى القرآن المكى .. » ؟!

والآن يمكن أن نصوغ نادرة « وات » المضحكة الساذجة على الوجه الآتى : « القرآن المكى لم ينزل به جبريل لأن اسمه لم يرد فيه أبداً ، بل ورد فى القرآن المدنى فقط » ؟ !

أهذا بحث علمى موضوعى مجرَّد ؟ أم هو لقطة من مسرحية كوميدية هازلة؟!

* *

● « وات » اطلع على القرآن كله :

صحيح أن اسم جبريل صريحاً لم يرد فى القرآن المكى ، وصحيح كذلك أن اسم جبريل ورد صريحاً فى القرآن المدنى بعد الهجرة ، وليس صحيحاً أن القرآن المكى لم ينزل به جبريل كما زعم « وات » . وليس صحيحاً أن « وات » نهج نهجاً موضوعياً مجرداً عن مصدر القرآن ، بل كان سيئ النية قبل أن يبحث ، وفى أثناء البحث ، بل وبعد البحث .

« وات » اطلع على القرآن كله - بلا شك - بدليل النتيجة التى وصل إليها بالنسبة لذكر اسم جبريل وعدم ذكره . واطلاعه على القرآن كله يؤكد لنا سوء

---

(١) الأنعام : ١٠٣ .

النيّة عنده فى كل ما كتب ؛ لأنه تعامى عن أشياء هى ضد ما يدّعى تماماً . فقد ورد ذكر جبريل بالوصف مراراً فى القرآن المكى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [١] ، فقد أجمع علماء الأمة أن المراد بـ « الرسول الكريم » هنا وما عطف عليه هو « جبريل » ، وعلماء المسلمين أعلم بكتاب الله من الخواجة « وات » ، ومن المستشرقين جميعاً .

وفى سورة النحل المكية : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [٢] ، وفى سورة الشعراء المكية : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [٣] .. فكيف تعامى « وات » عن هذه النصوص القواطع إذا لم يكن سيئ النية .

وهب جدلاً أن « وات » لم يطلع على القرآن كله ، فهو قطعاً اطلع على آية البقرة المدنية التى ورد فيها اسم جبريل صريحاً . نحن نقبل هذا الاحتمال ومع ذلك نجزم بسوء النية عند « وات » ، أتدرى لماذا ؟ اقرأ معى نص آية البقرة وهى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [٤]. فالآية تصرح بأن جبريل نزل بالقرآن كله مكيه ومدنيه . فلو كان « وات » باحثاً عن الحق فعلاً لاهتدى إليه من أقصر طريق . ولكنه رجل موتور من الإسلام متحامل عليه ، سيئ النيّة والقصد ، بدت البغضاء من « فاه » وما يخفى صدره من الغل والحسد أكبر ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ... ﴾ [٥] .

* * *

(١) التكوير : ١٩ - ٢١
(٢) النحل : ١٠٢
(٣) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤
(٤) البقرة : ٩٧
(٥) البقرة : ١٢٠

القرآن مصدره التوراة والإنجيل .. ؟!

للمستشرقين مقولات وتصورات وأوهام كثيرة حول القرآن مصدراً وأسلوباً نعرض - هنا - لمقولة : أن القرآن صياغة جديدة لما ورد فى التوراة أو العهد القديم ، ولما ورد فى الإنجيل (الأناجيل) أو العهد الجديد . ومعنى هذا -عندهم - أن القرآن ليس له مصدر سماوى مستقل ، ويقولون : إن محمداً (ﷺ) استقى فكرة القرآن من أهل الكتاب يهوداً ونصارى ؟!

وبعض المستشرقين يلمس الفروق الكبيرة الواضحة بين والواقع النصيِّ للقرآن والواقع النصيِّ للتوراة والإنجيل . فيحتاط ويقول : إن معلومات « محمد » عن التوراة والإنجيل كانت سطحية وهزيلة .. ؟ ! .

ومهما يكن من أمر فإن دعوى المستشرقين هذه افتراء محض . وأدلة زيفها وبطلانها أكثر من أن تُحصى . ولن نذهب بعيداً فى تكذيب دعواهم هذه أو نتلمس أدلة من خارج الكتب الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن ، ففى واقع هذه الكتب أقطع الأدلة ، وأقوى البراهين على بطلان هذه الدعوى الموغلة فى الوهم .

* وإجمال الدليل أن يقال :

إن واقع القرآن الأمين يختلف تماماً فى أصول الإيمان عن واقع التوراة وواقع الإنجيل فى صوره الأربع . كما يختلف الواقع القرآنى عن التوراة والإنجيل فى التشريع والقصة وكثير من المواد الواردة فى الكتب الثلاثة أو فى بعضها دون بعض . فضلاً عن الاختلاف فى النظم والأسلوب .

* وتفصيل الدليل أن يقال :

فى أصول الإيمان يختلف القرآن عن كل من التوراة والإنجيل فى عقيدة التوحيد ، إن عقيدة التوحيد فى القرآن هى الركيزة الأولى فى صَرْح الإيمان ،

والله فيها موصوف بكل كمال ، منزّه عن كل نقص . واليهود مروا عبر تاريخهم النبوى بمرحلتين ، كانوا فى أولاهما موحدِّين . وفى ثانيتهما مشركين ، ومن دلالة ذلك فى التوراة تسمية الله : « الوهيم » - جمع « إله » ؟! - ومما حكاه القرآن عنهم عبادتهم للعجل ، ودعواهم أن « عُزَيْر » ابن الله ؟! وأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

والقرآن يضع الرسل كلهم على قدم المساواة فى وجوب الإيمان بهم وبما أنزل عليهم من حيث المبدأ ، واليهود لا يؤمنون إلا برسلهم ، والقرآن لا تكاد تخلو سورة من سوره من الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ، والعمل له ، والتوراة تكاد تخلو تماماً من هذه العقيدة . والثواب والعقاب فيها وقف على الجزاء المادى أو العقاب المادى فى هذه الحياة الدنيا .

والرسل جميعاً فى القرآن عباد مصطفون أخيار ، بينما هم فى التوراة يقترفون الآثام ويزنون ويقتل بعضهم بعضاً ولو من أجل حب امرأة ، بل ولا يتورعون - أعنى اليهود - من وصف بعض رسلهم بعبادة الأوثان إرضاءً لزوجاتهم الوثنيات ، كما حدث منهم لسليمان عليه السلام .

وما يقال عن اليهودية وتوراتها يقال عن النصرانية وأناجيلها . فعقيدة التوحيد فى الأناجيل معدومة . فالله عندهم : ثلاثة . ونسبوا لله - سبحانه - الصاحبة والولد ، وجرَّدوه من سلطان « الألوهية » ووضعوا ذلك السلطان فى يد عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام .. ؟!

وفى بعض الأناجيل وصف للرسل الذين سبقوا عيسى عليه السلام بأنهم : لصوص وقتلة ؟!

والإيمان النصرانى يفرِّق بين الرسل فيؤمن ببعض ويكفر ببعض .. ؟!

فكيف يستقيم القول بأن القرآن صياغة جديدة للتوراة والإنجيل صاغه محمد ﷺ من المعلومات التى تلقاها عن أهل الكتاب ؟!

أما عن التشريع .. فإن الأناجيل تكاد تخلو منه ، لأنها عبارة عن تصوير حياة المسيح عليه السلام من خلال وجهات نظر كاتبيها .

والتشريع التوراتى لا صلة له بالتشريع القرآنى ، فمثلاً الربا عند اليهود حرام فى التعامل بين اليهود أنفسهم ، أما أخذ اليهود الربا من غيرهم فحلال حلال، والقرآن يُحرِّم الربا فى جميع صوره ومهما كانت الأطراف المتعاملة به ، فالحرام فى القرآن حرام على المسلم وعلى غير المسلم ، والحلال فيه حلال للمسلم ولغير المسلم إلا فى صور خاصة كالتزوج من المسلمة فحليِّته مقصورة على المسلمين دون غيرهم .

وفى التشريع اليهودى التفاضل بين الناس على أساس العِرْق والنَسَب والدم . واليهودى بهذا الاعتبار هو سيد الناس جميعاً . وأن مصير العالم كله هو الخضوع لبنى إسرائيل ، وأن ملوك ورؤساء الشعوب غير اليهود سيكونون خدّاماً فى بلاط مملكة الكون اليهودية ، وأن زوجات ملوك ورؤساء الشعوب غير اليهود سيكُنّ حاضنات ومرضعات ومربيات لأطفال اليهود . أما القرآن فالناس فيه سواسية كأسنان المشط ولا تفاضل بينهم بحسب الجنس والنَسَب واللون . بل التفاضل يكون بالإيمان والتقوى والعمل الصالح . فما أبعد ما بين التشريعين ياترى ؟!

أما من حيث القصص .. فهناك تشابه بين القصص الوارد فى كل من التوراة والقرآن ، ولكنه تشابه ما يكاد يبدأ حتى يفترق فروقاً تفصح عن الخطأ فى جانب والصواب فى جانب آخر .

ففى القرآن الكريم قصص لا وجود لها فى التوراة ولا فى الأناجيل كقصتى عاد وثمود . وما ورد فى المصدرين جميعاً - التوراة والقرآن - فمختلف من عدة وجوه . أبرزها النقص فى القصص التوراتى . فقصة نوح - مثلاً - وردت فى كل منهما . ولكن التوراة تخلو من الحوار الذى دار بين نوح وابنه ، وتضطرب التوراة فى ذكر الأنواع التى أُمِر نوح بحملها معه فى السفينة ، فمرة

تقول : اثنين ، ومرة سبعة ، والقرآن يجزم فى غير تردد أن نوحاً أمِرَ أن يحمل معه من كلٍ زوجين اثنين .

وقصة يوسف وردت فى كل منهما ، ولكن التوراة تخلو من حديث النسوة اللاتى دعتهن امرأة العزيز وقطّعن أيديهن لما رأين يوسف ، بينما يقص القرآن هذا الجانب فى وضوح . والتوراة تخلو من تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف وهو منصوص عليه فى القرآن ، والتوراة تنص على أن يوسف خرج من بيت العزيز عرياناً تماماً عقب المراودة . والقرآن يخلو من هذا المنظر البشع الذى إن صح فلا براءة لنبى الله يوسف عليه السلام .. ؟ !

ثم إن القرآن نزل معظمه بمكة (٨٥ سورة) ولم يكن بمكة يهود ولا نصارى، ولا كان للنبى صلة بهم خارج مكة . فمن أين إذن استمد عليه السلام القرآن فى مكة ؟! وما نزل من القرآن بالمدينة احتوى على جدل قوى بيَّنَ فيه أخطاء أهل الكتابين - وبخاصة اليهود - وقتلهم لرسلهم ، وتطاولهم على الذات الإلهية . وأعلن فى وضوح خياناتهم لأمانة الوحى المنزّل عليهم . فهل يعقل مع هذا كله أن اليهود هم الذين أملوا على خاتم الرسل مادة القرآن ؟! وكيف يعطونه سلاحاً ليشهره فى رجوههم ويحاربهم به ويكشف عن مخازيهم على مر العصور ؟

* * *

القرآن يهاجم أصناماً ، ويهادن أخرى .. ؟!

كان حاتم الطائى معروفاً بالكرم والسماحة عند العرب قديماً ، وكان مضرب الأمثال فى هذا المجال . وقد قصده رجل يوماً يطلب منه معونة ، فنهره حاتم وأغلظ له القول ولم يعطه شيئاً . فعاد الرجل خائب الأمل ، ولما انصرف خرج حاتم مسرعاً فى طريق غير الطريق الذى سلكه الرجل ، وقد وضع حاتم على وجهه لثاماً ثم استقبل الرجل وسأله : مَن أنت ؟ قال : فلان . قال حاتم : ومن أين أتيت ؟ قال الرجل : من عند حاتم الطائى كريم الكرماء . قال حاتم - والرجل لا يعرفه - : وما صنع بك حاتم ؟ قال : أكرمنى وأعطانى ما طلبت ؟! وهنا أزاح حاتم اللثام عن وجهه وتكلم بصوته الطبيعى وقال للرجل : أنا حاتم وقد نهرتك ولم أعطك شيئاً ، فكيف تكذب ؟ قال الرجل : يا حاتم ، ومَن كان سيصدقنى إذا قلت إنك نهرتنى ولم تعطنى شيئاً وقد اشتهرتَ بالجود والكرم ؟

هذا الرجل أعقل وأذكى من السادة المستشرقين ، وأكثر تدبراً لعواقب الأمور منهم . لماذا ؟ لأنهم يقولون : إن القرآن هاجم أصناماً وهادن أخرى ، أما الأصنام التى هاجمها فهى الواقعة فى القرى النائية عن مكة كالطائف ، وأما الأصنام التى هادنها فهى أصنام قريش فى مكة ، محاباة لكفار قريش وتزلفاً لهم . بل يقولون : إن القرآن اعتبر أصنام قريش كائنات إلهية أقل درجة من الله ؟!

ولو فكر هؤلاء المستشرقون المثقفون بعقل صاحب حاتم الطائى لما نطقوا بحرف واحد مما قالوه . لأن أحداً لن يصدقهم فيما قالوا . ولو صح جدلاً أن يُتهم الإسلام بتهمة فيصدق قائلها فإن تهمة مهادنة القرآن لأى صنم أو اعتباره كائناً إلهياً أنزل من الله درجة لن يصدقها أحد مهما كان حظه من الإدراك . فالإسلام دين التوحيد الخالص ، والأصنام رمز الشرك والوثنية ، فكيف يهادن الأصنام فضلاً عن اعتباره إياها كائنات إلهية ؟!

ومن هى قريش أمام بطش الله وجبروته الذى أنزل القرآن على محمد ﷺ ، وأخذ يشن الحملات فى مختلف السور والآيات على الأصنام وعابديها ؟!

* *

● وما الدليل ؟

ولك أن تسأل : ما الدليل الذى بنى عليه المستشرقون اتهامهم المذكور للقرآن ؟

والجواب : علمتَ أن اتهام المستشرقين يتكوّن من شقين : أحدهما : القرآن هادن أصنام قريش ؟! والآخر : واعتبرها كائنات إلهية أنزل درجة من الله ؟!

أما الشق الأول فقد استدلوا عليه - توهماً - بأن القرآن لم يهاجم إلا اللاَّت والعُزّى ومناة . وهذه الأصنام الثلاثة كانت خارج مكة : فى الطائف ، وفى وادى نخلة . وعلى شاطئ البحر الأحمر . وذلك فى قوله تعالى فى سورة النجم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالثَةَ الأُخْرَى ﴾ [1] ! . أى أنهم بنوا هذا الاتهام على مجرد ذكر هذه الأسماء الثلاثة ، وكأن القرآن ليس فيه إلا هذه الآية فى الهجوم على الأصنام ، ولما كانت هذه الأصنام خارج مكة تشبث المستشرقون بهذا الخيط « العنكبوتى » وقالوا : إن أصنام قريش رضى عنها القرآن ولم يمسها بسوء ؟!

وجهل المستشرقون أو تجاهلوا أن إبطال الشئ عن طريق صفته أبلغ وأقوى من إبطاله عن طريق ذكر اسمه الصريح ؛ لأن الصفة هى علّة الحكم فهى أعم من مدلول الاسم قطعاً . فإذا قلت لابنك - مثلاً - : لا تشربِ المسكر كان أبلغ مما لو قلت : لا تشرب الخمر ؛ لأن الأول يشمل النهى عن كل مسكر ولو لم يكن خمراً . والثانى لا يتناول إلا الخمر .

والقرآن شنَّ حملات عنيفة على أصنام قريش عن طريق الصفة من كونها أولياء معبودة للمشركين ، ولم يذكرها بأسمائها لأمرين :

---

(١) النجم : ١٩ - ٢٠ .

أحدهما : كثرتها الفائقة . ففى البيت الحرام كان منها (٣٦٠) صنماً غير « هُبَل » فى جوف الكعبة .

والثانى : ما سبق أن أشرنا إليه من أن النهى عن الشئ بصفته أبلغ من النهى عنه باسمه الصريح . ومما ورد فى الهجوم على أصنام قريش ما جاء فى سورة ص : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً ، إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الملأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ ﴾ [1] .. هذا الكلام حكاية لما قاله مشركو مكة رداً على دعوة التوحيد التى واجههم بها القرآن على لسان محمد ﷺ .

ومن ذلك ما ورد فى سورة الزمر : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [2] ، فقد وصفهم بالكذب والكفر لاتخاذهم الأصنام من دون اللّه . وما أكثر الآيات التى نعت على مشركى مكة اتخاذهم الأصنام آلهة تُعبد ، ومما هو معروف أن النبى ﷺ وصحبه حطموا جميع تلك الأصنام يوم فتح مكة . ثم حرقوها حتى لا يبقى منها أثر . هذا هو الحق ، ولكن المستشرقين قوم يجهلون أو جاهلون .

الشق الثانى من الاتهام .. استندوا فيه إلى أكذوبة باطلة من الأساس . خلاصتها أن النبى ﷺ كان يقرأ على قريش سورة النجم ، ومدح فيها أصنام قريش قائلاً : « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » وهذا كذب لا أصل له والقصة كاملة نوجزها فى الآتى :

بينما رجال من قريش جالسون يوماً فى البيت الحرام ، إذ اقتحم عليهم النبى ﷺ مجلسهم . وأخذ يتلو بصوت قوى مؤثر سورة النجم فسمعوه ، وكانوا يسمعون القرآن لأول مرة . فهز جلال الحق قلوبهم وسُحروا بما سمعوا . فلما فرغ

---

(١) سورة ص : ٥ - ٧ (٢) الزمر : ٣

عليه السلام من التلاوة سجد فإذا بهم جميعاً يسجدون وهم لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ولما سمعت قريش بما حدث من رجالها لاموهم وعنفوهم على سجودهم لقرآن محمد . ولكى ينجو الرجال الذين سجدوا من لوم قومهم افتروا تلك العبارة : « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترجى » وقالوا : إنه مدح آلهتنا فلذلك سجدنا معه !

فالقصة مكذوبة من أساسها ، ولا نزاع أن السادة المستشرقين قد علموا من اطلاعهم على المصادر الإسلامية بأن هذه القصة مكذوبة مختلقة مفتراة ، ومع هذا تمسكوا بها وبنوا عليه اتهامهم بأن القرآن مدح أصنام قريش وجعلها كائنات إلهية أنزل درجة من اللّٰه ؟!

ولما كان هدف المستشرقين هو الطعن فى الإسلام بُغية القضاء عليه ، لم يفرِّقوا بين خبر صحيح وخبر كاذب ، لأن همهم الوحيد هو تصيد المآخذ التى يتخذون منها وسيلة لتحقيق مقاصدهم الخبيثة . بل إنهم ليفتروا - هم - الأخبار والقصص من عند أنفسهم ، ويبنوا عليها أوهامهم ومكايدهم ضد الإسلام !!

هذا هو البحث العلمى النزيه عند المستشرقين . وهذه هى طريقتهم فى الكتابة عن الإسلام .. كذب ومخاتلة وافتراء وتمويه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ [1] .

* * *

(١) التوبة : ٣٢

القرآن لا يخلو من التناقض
فى ألفاظه ومعانيه ..؟!

يتتبع المستشرقون المعاصرون خطوات أسلافهم القدماء من الملاحدة وأعداء الإسلام ، فقديماً أكثر الملاحدة من الطعون فى القرآن بالذات .. وتصدى لهم نخبة من علماء الأمة الأفذاذ فكشفوا زيفهم ودحضوا كل باطلهم ، مثل الإمام محمد بن عبد الله بن قتيبة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » ، والقاضى عبد الجبار فى كتابه « تنزيه القرآن عن المطاعن » .. وها هم السادة المستشرقون يجددون عهد أسلافهم ، ويكثرون اللغط حول القرآن من عدة وجوه . والوجه الذى نتصدى له هنا هو دعواهم أن القرآن يشتمل على صور من التناقض فى ألفاظه ومعانيه . ثم يعمدون إلى بعض الآيات الحكيمة التى لا تدرك أفهامهم معناها ، أو تدرك ولكنهم - بحكم حقدهم - يتعامون عنها ، وكثيراً ما يقفون أمام وجوه القراءات القرآنية الصحيحة والشاذة ويستغلون اختلافاتها فى ترويج مزاعمهم وإيهام قرائهم بأن فى القرآن تناقضاً ؟!

* *

● **الهدف والمقصود :**

من البداية إن التناقض فى أى كلام يدل على اضطرابه وتهافته ، كما يدل على خلل فى التصور عند مَن صدر عنه الكلام ، وهذا وذاك يدعوان إلى فقد الثقة فى الكلام المتناقض وفى قائله على حدٍ سواء . والقرآن هو كلام الله المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . وتأكيداً لهذه السمة (الإحكام) التى تعم القرآن كله دعا الله عباده لتدبره ،

وجعل خلوه من الاختلاف والتناقض دليلاً على أنه كلامه هو ، وليس كلام أحد سواه ، فقال : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِند غَيْرِ اللَّه لَوَجَدُواْ فيه اخْتِلَافاً كَثيراً ﴾ (١) .. ودعوى المستشرقين تسعى لتحطيم هذه السمة ، ليرتبوا عليها أن القرآن ليس من عند الله ؟!

* *

● ما بين الثريا والثرى :

إن بُعْدَ القرآن عن الاختلاف المؤدى إلى التناقض هو بُعْد ما بين الثريا والثرى ، وما توهمه خصوم الدعوة قديماً وحديثاً من اختلاف فى القرآن مرده إلى ثلاثة أسس يزول معها كل اشتباه .

* الأساس الأول - الناسخ والمنسوخ :

وعلى هذا الأساس يزول الاشتباه الناشئ عن مثل هاتين الآيتين - وكلتاهما فى سورة البقرة - الآية الأولى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) .

والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ... ﴾ (٣) .

ووجه الاختلاف بين الآيتين أن الأولى حدَّدت عدَّة المتوفى عنها زوجها بـ « أربعة أشهر وعشر ليال » والثانية حددت العدَّة نفسها بـ « حول كامل » .

وهذا الاختلاف لا يؤدى إلى تناقض أو إرباك ، لأن علماء الأمة سَلَفاً وخَلَفاً على أن تحديد مدة العدَّة بحول كامل منسوخ بتحديدها بـ « أربعة أشهر وعشر

---

(١) النساء : ٨٢ (٢) البقرة : ٢٣٤ (٣) البقرة : ٢٤٠ .

ليال » والنسخ هو وقف العمل بحكم سابق وبدء العمل بحكم لاحق . فلا تناقض هنا مع وجود هذا الاختلاف .

* الأساس الثانى - اختلاف المعنى من عبارة إلى أخرى :

وقد خرَّج الإمام أحمد بن حنبل على هذا الأساس اشتباهاً ناشئاً عن عدة آيات ، وكان الملحدون فى عهده يكثرون اللغط حول تلك الآيات وهى :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ (١) .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (٢) .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٣) .

والاختلاف فى الآيات الثلاث ناشئ عن إفراد المشرق والمغرب فى الأولى وتثنيتهما فى الثانية ، وجمعهما فى الثالثة .

رد الإمام أحمد على زنادقة عصره فقال : أما « رب المشرق والمغرب » فهذا اليوم الذى يستوى فيه الليل والنهار (الاعتدالين) .

وأما « رب المشرقين ورب المغربين » . فهذان أطول يوم وأقصر يوم فى السنة .

وأما « رب المشارق والمغارب » . فالمراد مشارق العام كله ، ومغارب العام كله . ومراد الإمام أن اختلاف العبارات تابع لاختلاف المعانى المرادة ، فههنا اختلاف حقاً ، ولكن لا يترتب عليه تناقض ، بل هو قمة البلاغة والإحكام .

وهذا الأساس خُرِّجت عليه مئات الصياغات المختلفة فى القرآن الحكيم مع وحدة المقام من حيث الظاهر . وتقارب المعانى . ومن أجَلّ الكتب التى عالجت هذا النوع كتاب الخطيب الإسكافى « دُرَّة التنزيل » ، ثم كتاب أحمد بن الزبير الغرناطى « ملاك التأويل » ... وكتب المفسرين القدماء .

---

(١) الشعراء : ٢٨   (٢) الرحمن : ١٧   (٣) المعارج : ٤٠ .

* الأساس الثالث - القراءات :

القراءة القرآنية وجه من الوجوه التى نزل بها القرآن ، وهى لا تعم كل آيات القرآن ولا كل ألفاظه . بل تختص ببعض الكلمات . وثمرتها تيسير القرآن للذكر والتلاوة ، ثم تكثير المعنى ، وللقراءات عموماً دور بارز فى ثراء معانى القرآن . كما أن القراءة القرآنية لا تعدو أن تكون تغييراً طفيفاً يطرأ على الكلمة ، كإحلال حرف مكان حرف ، أو ضبط لحرف مكان ضبط آخر ، أو مجئ الفعل مبنياً للمعلوم فى قراءة ، ومبنياً للمجهول فى قراءة أخرى . وأياً كان أمر القراءة فمحال أن تكون مظهر تناقض أو اضطراب فى البيان القرآنى المعجز كما يدّعى « جولد زيهر » اليهودى المجرى ، و « بلاشير » المستشرق الفرنسى وغيرهما .

* *

● نماذج من القراءات :

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ .. ﴾ (١) ، قرأ حفص عن عاصم : « فتبينوا » وقرأ آخرون : « فتثبتوا » والتبين هو استجلاء الأمر ، والتثبت قريب منه ، وكلاهما مطلوب من المؤمن عند سماع ما يشك فيه .

٢ - ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ﴾ (٢) قرأها ابن عامر بغير واو : « قالوا اتخذ الله ولداً » وقرأها الجمهور بالواو : « وقالوا » .. فمن قرأ بدون فعلى الاستئناف ، ومن قرأ بالواو فعلى العطف على ما قبلها .

٣ - ﴿ وَلِتُكَمِّلُوا الْعِدَّةَ ... ﴾ (٣) قرأها أبو بكر ويعقوب بتشديد الميم مثقلاً ، وقرأها غيرهم « ولِتكملوا ... » بكسر الميم مخففاً بدون تشديد .

وهكذا شأن القراءات القرآنية ؛ يختلف معها المعنى متقارباً ومتباعداً ،

---

(١) الحجرات : ٦ (٢) البقرة : ١١٦ (٣) البقرة : ١٨٥

ومحال أن ينشأ عنها تناقض واضطراب .. وكان حرياً بـ « جولد زيهر » اليهودى أن يشغل نفسه بالتناقضات الشنيعة التى لا حصر لها فى التوراة ، بدلاً من تلمس العيب فى البرئ ، ونشير إلى تناقض واحد من صور التناقض الوارد فى التوراة ليرى القارئ التناقض فى أجلى صوره . ففى التوراة نصوص صريحة تفيد أن ولداً كان أكبر من أبيه بـ « سنتين » [1] ؟! يا سبحان الله ؟ كيف يكون هذا ؟! وعندما اكتشف نقّاد التوراة هذا التناقض اعتذر اليهود بأن الذى كتب هذه القصة إما أن يكون كتبها فى زمن مختلف فوقع فى الخطأ ، أو يكون كتبها رجلان كل منهما لم يدرما كتبه الآخر ؟ ونحن نقول : حسناً . إذن التوراة قد وقع فيها التحريف . وليست هى باقية على الأصل المنزّل . وهذا هو المطلوب .

*   *   *

(١) ورد فى سفر الأيام الثانى فى الإصحاح الحادى والعشرين ، والثانى والعشرين ، أن « يورام » لما كان عمره اثنين وثلاثين سنة نصبوه ملكاً ، وقد تملّك ثمان سنين ، ومات وأقيم بعده ابنه «أخزيا» وكان عمره اثنين وأربعين سنة ، وملك سنة واحدة .

ووجه التناقض : أن « يورام » لما مات كان عمره أربعين سنة ، فكيف يصح أن يكون عمر ابنه «أخزيا » إذ ذاك اثنين وأربعين سنة ؟! كأنه خلق قبل أبيه بسنتين ؟

وليس هذا هو التناقض الوحيد فى التوراة ، فقد ورد فيها تناقضات كثيرة سواء بالزيادة أو النقصان أو التحريف (المصحح) .

القرآن يؤجل تحريم الربا والخمور
خشية من قريش .. ؟!

المستشرقون الذين وقفوا من الإسلام موقف العداء لم يحرزوا عليه نصراً في أية حملة شنُّوها ضده ، والسبب معروف ؛ ذلك أن حقائق الإسلام التي ناصبوها العداء هي الحق من ربهم . وليس بعد الحق إلا الضلال .

ومن مقولاتهم – أو أوهامهم – ادعاؤهم أن الإسلام هادن الربا والخمور طيلة مسار الدعوة في مكة (١٣ عاماً) ولم يتعرض لتحريمهما في مكة خشية بطش قريش والاصطدام بها . وبعد الهجرة إلى المدينة بدأ القرآن يخطو خطوات واثقة نحو تحريمهما ؛ لزوال الخطر الذي كان يخشاه من قبل .. ؟!

هذا الادعاء تورط فيه المستشرق الإنجليزي « مونتجمري وات » في كتابه «محمد في مكة » ضمن ادعاءات أخرى لا سند لها من الواقع ، وهو ، وغيره ، متأثر بفلسفة « ماركس » : التفسير المادي للتاريخ ، ومع أن « وات » لا يسلِّم بهذه الفلسفة على إطلاقها – فيرى كما يرى الشيوعيون أن الاقتصاد سبب وحيد في الحركات والتحولات التاريخية – وإنما يعترف « وات » بأهمية العوامل الاقتصادية في هذا المجال ، مع هذا الاعتدال النسبي فإنه حاول إخضاع ظهور الإسلام وتدرجه في البناء لهذا المبدأ الذي نادى به الشيوعيون وسيطر على عقول كثير من المثقفين الأوروبيين الرأسمالية ، ونظر « مونتجمري وات » إلى أهمية الربا والخمور في الاقتصاد الجاهلي ، وإلى سكوت الإسلام عن تحريمهما تحريماً قاطعاً قبل الهجرة ، وفسَّر هذا السكوت بأن محمداً ﷺ لجأ إلى هذا السكوت خشية أن يرتطم بقريش في عقر دارها . وزيَّن له الشيطان هذا التصور الواهم فراح يطبل له ويغني .

والأخطاء التى وقع فيها هؤلاء المستشرقون عند كتابتهم عن الإسلام لا تخرج أسبابها عن واحد من ثلاثة أسباب أو هى مجتمعة :

إما الجهل بحقائق الإسلام .

وإما اعوجاج المنهج المتبع فى البحث والدرس والاستنتاج .

وإما التحامل المتعمد المصحوب بسوء النيِّة من أول الأمر .

ويبدو أن السببين الأول والثانى هما اللذان أوقعا « وات » فى هذه الأخطاء لأن الرجل كان قد أخذ على نفسه عهداً بأن يكون محايداً وموضوعياً فيما يقول - هذا إذا أحسنا الظن به - وإلا فهو موصوم بسوء النية ، وما ذلك ببعيد .

أما جهل « وات » واعوجاج منهج بحثه فى كتابه « محمد فى مكة » فأمر ظاهر كل الوضوح .

صحيح أن القرآن لم يحرِّم الربا والخمور إلا بعد الهجرة ، وليس صحيحاً أن سبب التأخير فى تحريمهما كان خشية من بطش قريش . فهذا وهم خالص لأن الخوف من قريش لم يكن له وجود قَطْ عند صاحب الدعوة ، ولو كان هذا العامل - الخوف - له وجود لتبدلت الصورة تماماً فى خط سير الدعوة ، فنحن نعلم ، والمستشرقون يعلمون ، والتاريخ كله يعلم : أن القرآن على لسان محمد ﷺ هاجم ما هو أعز وأعظم عند قريش من الربا والخمور وثمارهما الاقتصادية . إن القرآن على لسان محمد ﷺ صوَّب سهامه الأولى نحو عقائدهم الفاسدة ، وعبادتهم للأصنام والأوثان . وعقيدة قريش الوثنية هى الأساس الذى كانت تتمسك به قريش . ومحمد ﷺ حين واجه قريشاً فى عقيدتها ورماهم ورمى آباءهم بالسفه كان وحيداً فى بداية الأمر ، وأنصاره قليلون مضطهَدون ، ولكنه لم يتوان لحظة من ليل أو نهار فى تبليغ الدعوة والإعلان عن بطلان عبادة الأصنام والأوثان ، وقد سعت قريش مراراً لدى عمه أبى طالب لوقف حملات ابن أخيه . وحين مال عمه إلى مطلبهم وقال لمحمد ﷺ : هوِّن علىَّ وعلى نفسك ،

ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، قال محمد ﷺ قولته المشهورة : « والله يا عماه ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، وخزائن الأرض طوع يدى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » ؟!

فأين الخوف من قريش إذن ؟! وكم كان يملك محمد ﷺ حين قال هذه القولة من العُدَّة والعتاد والجنود والقواد ؟ لا شئ سوى الإيمان الراسخ بالله وعظيم الثقة فيه .

إن سبب معاداة قريش للدعوة وصاحبها أن الإسلام أنكر عليهم عبادتهم للأصنام ودعاهم إلى عقيدة التوحيد الخالص . ولو كان الإسلام اقتصر على تحريم الربا والخمور ، وترك عبادة الأصنام لكان الداخل فى الإسلام من قريش أكثر من الرافض له . فكيف غابت عن « وات » هذه البدهيات التى لا تحتاج إلى بيان ؟ وأين الحياد والموضوعية وعدم إيذاء مشاعر المسلمين التى أعلن عنها « وات » فى بداية كتابه . إن مسلك « وات » هنا يدل على سوء النيَّة أكثر مما يدل على الخطأ فى البحث . فما أيسر أمر الربا والخمور على قريش ، وما أصعب الهجوم على عقيدتها الوثنية وعقيدة آبائها الأدنين والأقصَيْن ؟

ألم يحك عنهم القرآن : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ، وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِداً ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلَاقٌ ﴾ [1] .

إن قوماً هذا شأنهم يهون عليهم التضحية بكل شئ - خمراً أو رباً - فى سبيل الإبقاء على عقيدتهم وعقيدة آبائهم . فهل كان « وات » إذن على صواب فيما قال ؟ إن الواقع يكذِّبه ، وكلامه هذا لا ينطلى إلا على الدهماء والمغفلين وإن بلغوا الذروة فى ثقافة العصر المادية .

---

(١) سورة ص : ٤ - ٧

ولو كان « وات » وأمثاله - إذا كانوا باحثين حقاً عن الحقيقة - نظروا فى مسار الدعوة نظرة فاحصة واعية لما تورطوا فى هذه الأخطاء الفاضحة ..

إن منهج الدعوة فى مكة قبل الهجرة غير منهجها فى المدينة بعد الهجرة . منهجها فى مكة كان يعتمد على تطهير النفوس من العقائد الفاسدة ، والتصورات الواهمة فصال وجال ، وقص وأخبر ، وحذّر وأنذر ، وخوّف وبشّر ، وكان الهدف تهيئة النفوس للغرس الجديد بعد تخليصها من الموروثات والرواسب الضالة وغوايات الشيطان ، وقَلَّ أن يتجه نحو التشريع ، لأن التشريع خطوة تالية فى منهج الإسلام التربوى الحكيم .

وبعد الهجرة اتجه الإسلام إلى التشريع فى جانب كبير من الآيات . وتشريعات الإسلام كلها - إلا النادر - حدثت بعد الهجرة ، ومنها تحريم الربا والخمور .. إن دعوى « وات » كان سيكون لها نصيب من الوجاهة لو كان التشريع الإسلامى كله حدث فى مكة قبل الهجرة إلا تحريم الربا والخمور . أما وأن التشريع الإسلامى كله لم يحدث إلا بَعْد الهجرة فإن دعوى « وات » تصبح عارية من أى دليل أو حتى شبه دليل على قبولها .

إن مثل الإسلام - هنا - مثل زارع بدأ أولاً بتسوية الأرض وتهيئتها للزرع ، ثم ثنَّى بالغرس والرعاية حتى أخرج الزرع شطأه ثم استغلظ واستوى على سوقه بعجب الزُرَّاع . هذا هو حق الإسلام وباطل الحاقدين عليه .

* * *

القرآن بليغ ، ولكنه غير معجز .. ؟!

هذه الفرية التى تزعم أن القرآن - على بلاغته - خال من الإعجاز وأنه مجرد صياغة عربية فصيحة ، هذه الفرية رددها لفيف من المستشرقين وأساتذتهم المبشرين ، رددها جميعاً من وراء ستار ، فقد أصدروا كتاباً أسموه « الباكورة الشهية فى الروايات الدينية » ولم يضعوا عليه أسماء أو اسم المؤلف ، بل نسبوه - زيادة فى الإيهام - إلى عالِم مسلم من القطر السورى لم يذكروا اسمه بالطبع ، لأن هذه النسبة من نسج الخيال ، والكتاب- كما قالوا - طبع بثمانى لغات عالمية ، منها اللغة العربية ، وهى التى طالعنا نص الكتاب فيها . وقد شحنوا الكتاب بالاتهامات الموجهة للإسلام ، ومن أبرزها دعواهم أن القرآن غير معجز ، بل زعموا أنه يمكن محاكاته والإتيان بمثله فصاحة وبلاغة .

● **الهدف :**

والهدف من هذه الدعوى أن يروِّجوا بين الناس أن الإسلام دين لم يقم على معجزات قط ، بينما شرط صحة الرسالة وصدق الرسول أن يُقدِّم بين يدى رسالته معجزات ليُعلم الناس أنه - فعلاً - رسول من عند الله ، كما حدث فى رسالات إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؟!

ومعلوم للمستشرقين وغيرهم أن معجزة الإسلام الكبرى الخالدة هى القرآن ، فإن أفلحوا - ولن يفلحوا - فى التشكيك فى صدق هذه المعجزة ، فلا يقتصر الأمر على أنهم أصابوا الإسلام فى مقتل فحسب ، بل يكونون قد هدموه هدماً وهيهات هيهات لما يدّعون .

* *

● نقض هذه الدعوى :

لم يكن المستشرقون وسادتهم المبشرون هم أول مَن ادّعى هذه الدعوى ، بل إن الحق الذى لا محيد عنه أنهم - أعنى المستشرقين والمبشرين - يحومون ويطوفون حول جثة ميتة عفا عليها الزمن . فقد سبقهم أسلافهم المشركون أيام كان القرآن ينزل ، وادّعوا أنه غير معجز ، ولم يتوقف الوحى الأمين عن النزول بوفاة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن أمات تلك الدعوى فى مهدها ، ولم يبق لها على أثر . فهى - الآن - جثة نخرت عظامها مع تشبث المستشرقين بها والتعويل عليها فى محاولاتهم القضاء على الإسلام .. ؟!

فقديماً رفضّ المشركون أن يكون القرآن وحياً منزّلاً من عند الله ، وادّعوا أنه من كلام البَشر ، ثم خطوا خطوة أخرى فقالوا : إن رجلاً اسمه كذا هو الذى علّم النبى القرآن . وكان ذلك الرجل أعجمياً لا يعرف حرفاً واحداً من العربية ، وحكى القرآن عنهم هذه المقولة : ﴿ .. يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴾ (١) .

ثم يبطل القرآن هذه الفرية ببرهان عقلى واقعى فيقول : ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .. وكأن القرآن يقول لهم ولغيرهم حتى قيام الساعة : إن وسيلة التعلم هى اتحاد اللغة ، ومستحيل أن يتعلم رجل من آخر لا يعرف كل منهما لغة صاحبه . وهذه التجربة قائمة إلى الآن ، فلا يستطيع عربى - مثلاً - أن يتلقى علماً عن رجل ألمانى كل منهما يجهل لغة الآخر جهلاً تاماً .

وركيزة أخرى اتكأ عليها القرآن كثيراً وهو يدحض دعوى المشركين بأن القرآن كلام بَشر وليس معجزاً . فيُسَلِّم لهم بهذا - جدلاً - ثم يقول : وأنتم بَشر فأتوا إذاً بمثل هذا القرآن الذى ادعيتم أنه كلام بَشر . ألحّ عليهم القرآن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله - مفتريات على حد زعمهم - ، أو بسورة واحدة من مثله ، وكرر الطلب مرات وأثارهم نحوه مرات ، فعجزوا واكتفوا بمجرد هذه الدعوى :

---

(١) النحل : ١٠٣ .

(٢) النحل : ١٠٣ .

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا .. ﴾ (١) ولكنهم لم يقولوا ؛ لا لأنهم لم يشاءوا أن يقولوا ، بل لأنهم أحسوا بعجزهم الشنيع أمام هذا البيان المعجز ، ثم تواصوا فيما بينهم بأن يشوشوا على القرآن : ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢) .

ثم سجّل عليهم القرآن عجزهم ، ورتّب على ذلك العجز صدق الرسالة والرسول ، وأن القرآن كلام الله منزّل بعلم الله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

عجز العرب - وهم أهل الفصاحة والبيان فى ذلك العصر ، ولم تملك أمة قبلهم ، ولا أمة بعدهم مثلما ملكوا من قوة البيان - عجزوا عن محاكاة القرآن ، ولو كانوا قد أحسوا بقدرة على المحاكاة لما توانوا لحظة ليهدموا الدعوة ، ولما اختاروا الحروب وهى أصعب الوسائل فى مواجهة الإسلام .

ونقول للسادة المستشرقين : إن التحدى بإعجاز القرآن قائم إلى قيام الساعة . فهيا اجمعوا شملكم وكيدكم وأْتوا بكلام مثل القرآن فصاحة وبلاغة وروعة نظم ، واستعينوا بمن شئتم من دون الله ؟

إنكم كتبتم عن الإسلام أكثر من ستين ألف مجلد .فعلام هذا الشقاء كله ؟! أما كان يكفيكم أن تكتبوا ملزمة واحدة (١٦ صفحة) فيها كلام يضاهى البيان القرآنى ثم تريحون أنفسكم لأنكم قضيتم على الإسلام وأثبتم أن «قرآنه» كلام بَشر وليس وحياً معجزاً ؟! وتكونون قد أتيتم بما عجز عنه أسلافكم من خصوم الإسلام ؟

* *

---

(١) الأنفال : ٣١ (٢) فصلت : ٢٦ (٣) هود : ١٣ - ١٤

● نماذج من الإعجاز القرآنى الخالد :

للإعجاز صور كثيرة أبرزها الإعجاز البلاغى الأدبى . والمستشرقون عن فَهم هذا النوع من الإعجاز بمعزل ، فلنعرض عليهم صوراً أخرى من الإعجاز يفهمونها وتقوم عليهم الحُجَّة بورودها وصدق مدلولها :

* حين تنبأ القرآن بانتصار الروم على الفُرس قبل وقوع المعركة بأكثر من ست سنين ثم جاء النصر كما تنبأ القرآن . هذه واقعة تاريخية صحيحة أنتم تقرون بها . فهل فى إمكان قائد عسكرى بَشرى أن يقرر فى حزم انتصار إحدى طائفتين متكافئتين عُدَّة وعتاداً وعدداً قبل وقوع القتال ؟ .. هذه واحدة .

* وحين قرر القرآن أن الله سيعصم محمداً ﷺ من الناس فلن يصل إليه أحد بسوء حتى يُبلِّغ الرسالة كاملة ، هل تستطيع قوة بَشرية مهما أوتيت من الحذر أن تحمى رجلاً من اعتداء الناس عليه وهو يتجوَّل بينهم بلا حُرَّاس ولا أجهزة إنذار مبكرة ولا أقمار صناعية ولا أجهزة تصنت : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [1] .. وهذه ثانية .

* وحين قضى القرآن على أبى لهب بأنه سيموت كافراً ، ويصلى ناراً ذات لهب ، فهل حدث من أبى لهب غير الاستمرار على الكفر حتى هلك : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [2] ، أما كان من الممكن أن ينطق أبو لهب بكلمة التوحيد ، ويفجر قنبلة مدمرة فى صرح القرآن لو كان قد أسلم ولو ظاهراً .. وهذه ثالثة .

* ألم يعد القرآنُ النبىَ وصحبه بدخول مكة والمسجد الحرام آمنين لا يخافون ثم صدق الوعد مرتين : فى عُمرة القضاء بعد صلح الحديبية بعام ، ثم يوم الفتح المبين الأعظم (فتح مكة) . وفى كل مرة كانت قريش بقضها وقضيضها

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) المسد : ٣

تتوارى فى المنازل وخلف ستور الجبال ؟! مَن يا ترى يستطيع أن يفى بهذه الوعود الضخام ؟ لا أحد سوى الله الذى قال ووعد وصدق ؟!

* ألم يقرر القرآن وسط ضراوة المقاومة من خصوم الدعوة أن الله سيظهر هذا الدين - الإسلام - على الدين كله ؛ ولم يمض ربع قرن من الزمان حتى انتشر الإسلام شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، وتدحرجت أمام مواكبه تيجان الملوك - روماً وفُرساً - وعلت كلمة التوحيد فى كل ، ولا يزال هذا الانتشار رغم كل المصاعب يواصل وجوده وبسببه حقد المستشرقون عليه ؟!

ومظهر آخر من مظاهر إظهار الإسلام على الدين كله هو سلامته من التبديل والتحريف وسمو مبادئه ووفاؤه بحاجات الإنسان الروحية والمادية لأنه دين الفطرة التى فَطَرَ الله الناسَ عليها . هذه نماذج من الإعجاز موزعة على ثلاثة أُسس : صدق الخبر ، وصدق الوعد ، وصدق الوعيد ، وما أكثر أُسس الإعجاز الأخرى . .

أبعد هذا يصح فى عقل عاقل - بله المجانين - أن يقال : إن القرآن غير معجز ؟!

* * *

القرآن والاستفادة من شعراء الجاهلية .. ؟!

لا نكون مغالين إذا قلنا إن حقد المستشرقين على القرآن حملهم على هدف واحد ، وإن تعددت الوسائل التى استعملوها فى الوصول إلى ذلك الهدف .. واضطربت فيه مفترياتهم . وهدف المستشرقين من الهجوم على القرآن هو أن يجردوه من كونه كلام الله ذى الجلال والإكرام ، نزل به الروح الأمين ، على قلب خاتم المرسلين ، ليكون للعالمين نذيراً . حاول هؤلاء المستشرقين أن يقوموا بتصفية كاملة لمحتويات القرآن ، ويرجعوها إلى عناصر بَشرية أرضية فلا يبقى فيه من الوحى شئ - على حد زعمهم - فمرة يقولون إنه صياغة عربية جديدة لما ورد فى التوراة والإنجيل ؟! ومرة يقولون إنه من تأليف محمد (ﷺ) وليس وحياً من عند الله . وهكذا ، وهكذا إلى آخر الفروض الهستيرية .

● **الاستفادة من شعراء الجاهلية :**

وسيراً منهم فى خطوات الشيطان ، واستجابة لنعيقه ، سوَّلت لهم أنفسهم وصوَّرت لهم أوهامهم أن يتجرأوا ويقولوا : إن القرآن فيه اقتباسات من شعر بعض الشعراء الجاهليين ، كأمية بن أبى الصلت ، وورقة بن نوفل وهو كاهن نصرانى عَدُّوه شاعراً ، ثم امرئ القيس الشاعر الجاهلى الماجن الخليع ؟!

هكذا والله بلغ سخف المستشرقين ، وتمادى بهم الشيطان فى غيه وضلاله ليجعل منهم أضحوكة للعقلاء فى الدنيا ، وحصباً لجهنم فى الآخرة ..

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[1] .

---

(١) الحج : ٣ - ٤

هذا الوهم الذى تصوّروه عن القرآن تورط فيه عدد من المستشرقين منهم المستشرق « كليمان هوّار » ، والمستشرق « مرجليوث » اليهودى . فـ « كليمان هوّار » يدّعى أنه اكتشف مصدراً جديداً للقرآن (هكذا ؟!) وأن هذا المصدر الجديد هو شعر أمية بن أبى الصلت ؟! وزيّن له الشيطان سوء عمله فراح يوازن بين آيات من القرآن الكريم ، وبين قطعة من الشعر منسوبة إلى أمية بن أبى الصلت ، وكانت ثمرة الموازنة أن استنتج « هوّار » أن القرآن عمد إلى معانى ابن أبى الصلت ، واستفاد منها وصاغ على منوالها بعض الآيات .

فالشعر الذى استشهد به هو :

ويوم موعدهم أن يحشروا زمراً	يـــوم التغابـــن إذ لا ينفع الحذر
مستوسقين مع الداعى كأنهم ..	رجـــل الجراد زفته الريح منتشر
وأبـــرزوا بصعيد مستـــــوٍ جرز	وأنـــزل العرش والميــــزان والزبر
يقـــول خـــزانها ما كان عندكمُ	ألم يكن جاءكـــم مـــن ربكم نذرُ
قالوا : بلـــى فتبعنا فتية بطروا	وغرّنا طول هـذا العيش والعمر

والآيات التى ناظر بها هذا الشعر هى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ [2] .

وقوله : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ﴾ [3] .

* *

(١) القمر : ٦ - ٧ (٢) الكهف : ٧ - ٨ (٣) الملك : ٨ - ٩

● نقض هذا الادعاء :

لما كان « هوّار » يسعى جاهداً للنيل من القرآن انتهى إلى النتيجة التى أرادها دون أدنى تمحيص . إذ مَن الذى قال له إن هذا الشعر هو فعلاً لأمية بن أبى الصلت . إنه من الواضح جداً أن هذا « الهراء » مكذوب منتحل لغرض الحط من شأن القرآن . وأمية كان شاعراً فعلاً . وهذه الأبيات ركيكة النظم متهافتة المعانى ، مضطربة النسج لا تشبه شعر أمية ، ولو سلمنا - جدلاً - أنها من شعر أمية فكيف جزم « هوّار » أن القرآن قلّد أمية ؟! أفليس من الجائز أن أمية هو الذى قلّد القرآن .

ولو كان هذا الشعر لأمية فعلاً لسارع مشركو مكة للوقوف فى وجه النبى وقالوا له إنك سطوتَ على شعر شاعرنا وزعمتَ أنك رسول يوحى إليك . وهذا لم يثبت قَطْ . فهو دليل على أنه كلام مكذوب وضعه زنادقة من اليهود أو من غيرهم بعد عصر الرسالة وعصر الخلفاء . والموازنة الحقة تثبت من أقصر طريق سمو النظم القرآنى وجلال الوحى المنزّل على ذلك الكلام المتكلف الركيك .

كما ثبت أن النظم القرآنى هو النموذج الأسبق الذى حاول ناظم هذه الأبيات أن يحاكيه فهوى من حالق ، رضى « هوّار » أم سخط .

أما شعر امرئ القيس الذى ادّعوا أن القرآن قلّده وحاكاه فهو :

دنت الساعة وانشـــق القمر ... عـــن غـــزال صاد قلبى ونفر

أحور قد حرتُ فى أوصافه ... ناعس الطرف بعينيـــه حَور

بسهام مـــن لحاظ فاتـــك ... تركتنـــى كهشيـــم المحتظر

والظاهر الذى لا ريب فيه أن هذا كلام صدر عن صاحبه وهو فى حالة نزق أو طيش ، أو لوثة خبال سيطرت على نفسه ، فراح يستظرف بهذا الكلام الذى يدل كل لفظ فيه على أنه هراء مزوَّر منسوب اعتباطاً إلى امرئ القيس .

كما يدل على أن قائله لا يعرف عن الشعر شيئاً سوى حرف الروى والوزن الشكلى المضطرب .

وقد أصاب الأستاذ العقاد حين قال : إن نظرة عابرة تحكم بأن هذا الكلام مبتوت الصلة بالشعر الجاهلى كله فضلاً عن أن يكون من شعر امرئ القيس ذى الشاعرية الفذة التى طبقت الآفاق .

إن تهافت المستشرقين ، وولوعهم بتصيد المعايب وإلصاقها بالقرآن أعمى أبصارهم ، وأصم أسماعهم ، وألغى عقولهم ، فجاءوا بكل غث ، ونطقوا بكل زيف دون أن يفكروا فى عواقب ما يقولون .

ومن المستشرقين أنفسهم أناس معتدلون حكموا على مثل هذه المهاترات التى قال بها « هوار » و « مرجليوث » بالسخف والصبيانية .

وإذا كان من الممكن التماس العذر لهؤلاء المتطاولين على القرآن من المستشرقين يهوداً ونصارى . لأن هذا ديدنهم ، فلا وجه لالتماس العذر لأمثال الدكتور طه حسين ، الذى ردد ما قالوه فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، والمستشرقون عادة عندما يكتبون طاعنين فى حقائق الإسلام ، فإنهم يكونون سعداء - كل السعادة - أن يردد طعونهم بعض المسلمين ، وللدكتور طه حسين نظراء الآن من بنى جلدتنا يروِّجون لمطاعن المستشرقين بأساليب وحيل مختلفة ومن منابرمتعددة . وهؤلاء وأولئك لن يضروا الله شيئاً ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (١) ، و ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) الشعراء : ٢٢٧ (٢) الفجر : ١٤

القرآن عاق المسلمين عن التفكير الحر .. ؟!

مرَّ المسلمون عبر التاريخ بمرحلتين متمايزتين : المرحلة الأولى التى أعقبت عصر الرسالة ، وفى هذه المرحلة نشط فيها الفكر الإسلامى نشاطاً ملحوظاً فى جميع مجالات الفكر والمعرفة ، وتكونت فيها جماعات فكرية يغلب عليها طابع التخصص . فمن علماء فى حقل العلوم اللغوية ، إلى علماء فى حقل العلوم الشرعية ، وعلماء فى التاريخ والسيرة ، وفى مجال العلوم العقلية والعلوم الكونية ، ثم ما يسمى - الآن - بالعلوم الإنسانية كالاجتماع وعلم النفس . واستمرت هذه المرحلة فى تطور ونمو مستمر حتى القرن السابع الهجرى أو الثالث عشر الميلادى .

أما المرحلة الثانية .. فتتسم بالتوقف والالتفات إلى الماضى وانعدام الابتكار ، وبخاصة حين دخلت أوروبا حلبة الصراع ، وبدأت تزاحم الفكر الإسلامى العربى مستمدة أصول حركتها العلمية من عدة مصادر كان من أبرزها العلوم والمعارف الإسلامية العربية ، ثم سرعان ما انفردت أوروبا بالريادة فى حقل الحضارة المادية ، وتوقف العطاء العربى الإسلامى بعد أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة متمثلة فى الاستعمار الأجنبى لبلاد المسلمين ، وسقوط الأندلس ، وإلغاء الخلافة الإسلامية ، والثورة الفرنسية التى غيَّرت مجرى التاريخ فى أوروبا .

وقد استغل المستشرقون ما عليه العرب والمسلمون من تأخر وتخلف فى مجالات العلوم الحديثة والحضارة المادية التى أفرزتها أوروبا وأصبح العرب والمسلمون مجرد مستهلك لثمار تلك الحضارة .

استغل المستشرقون هذه الظاهرة ، ثم راحوا يفسِّرون أسبابها بما يسئ إلى القرآن بوجه خاص ، وإلى الإسلام عموماً بوجه عام . فانتهوا إلى القول بأن تخلف المسلمين منشؤه أربعة أسباب ، هى :

١ - كتاب المسلمين المقدس - القرآن - الذى عاقهم عن التفكير الحر .. ؟!

٢ - حزب أهل السُنّة - جماعة أهل السُنّة - الذى يتمسك بحرفية النصوص .. ؟!

٣ - عقول المسلمين التى تماثل عقول الأطفال من التفكير فى الحاضر والاهتمام بالجزئيات .

٤ - استسلام مفكرى المسلمين لفلسفة أرسطو ومنحها سلطاناً مستبداً على عقولهم .

هذا ما ادعاه « تنيمان » المستشرق الألمانى المتوفى عام ١٨١٩ ، والذى يعده المستشرقون واحداً من رُوُاد وأعمدة الفكر الاستشراقى فى الغرب . والذى يهمنا من هذه المقولات الادعاء الأول ، وهو عدُّ القرآن سبباً أولياً وأصيلاً فى إعاقة المسلمين عن التفكير الحر ، وأنه فى مقدمة العوامل التى أسهمت فى تأخر المسلمين وتخلفهم الحضارى المعاصر .

* *

● مرفوض جملة وتفصيلاً :

هذا الادعاء الذى قال به « تنيمان » مرفوض جملة وتفصيلاً ، سواء نظرنا إلى الواقع النصى للقرآن وحده ، أو ضممنا الواقع التاريخى الإسلامى منذ القرون الأولى التى أعقبت ظهور الإسلام .

- الواقع القرآنى :

ليس فى القرآن آية واحدة حظرت على المسلمين التفكير ، أو فرضت قيوداً على العقول حالت بينها وبين التفكير ، بل على العكس من دعوى « تنيمان » نجد القرآن حافلاً بالآيات والتوجيهات التى تحث - بلا توانٍ - على التفكير فى أسرار الكون والنفس والحيوان والنبات والبحار ، والسموات وما فيها من آيات، والأرض وما فيها من أسرار وطاقات ، والآفاق وما فيها من عجائب . آيات

تدعو إلى التأمل الإجمالى فى حقائق الموجودات . وآيات تحض على التأمل التفصيلى فى الكائنات ، وأخرى تحث على العمل وتفجير الطاقات فى عمارة الكون ، والتمكن من الاستفادة منه قدر الجهد والطاقة .

ويضيق المقام بنا جداً لو رحنا نرصد كل ما فى القرآن من نصوص فى هذا الشأن ، لذلك نكتفى بهذه الملامح من الآيات الآتيات :

* ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ .. ﴾ (١) .

* ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

* ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴾ (٣) .

* ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً ، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

* ﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

لقد وضع القرآن الكون كله والأرض والسماء وما فيهما وما بينهما أمام عقل الإنسان ليسبح فى رحبات هذا الملكوت متأملاً وباحثاً ودارساً دون أن يفرض عليه أية قيود تكبله عن التفكير فى حدود طاقاته

*

---

(١) الأعراف : ١٨٥ (٢) الذاريات : ٢١ (٣) يونس : ١٠١
(٤) الرعد : ٣ (٥) الرعد : ٤

– الواقع التاريخى الإسلامى :

جاء الواقع التاريخى فى الإسلام استجابة حية لتوجيهات القرآن وحثه على التفكير والتأمل والتدبر والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، ولذلك كانت حركة الفكر فى الإسلام مبكرة ، وشملت المجالين : العلمى المادى ، والعقلى الفلسفى .

ففى المجال العلمى المادى .. طرق العقل الإسلامى ميادين لم تعرفها أوروبا إلا فى ظلال نهضتها المعاصرة . فقد قال المسلمون بكروية الأرض منذ القرن الثالث الهجرى – التاسع الميلادى – واستدلوا على كرويتها بملاحظات موجودة فيها كظهور قمم الجبال قبل قواعدها لمن ينظر إليها من بعيد . وألمحوا إلى فكرة الجاذبية الأرضية قبل أن يعرفها « نيوتن » بمئات السنين ، وقالوا إن الفراغ الذى بباطن الأرض هو الذى يمسك الأثقال التى فوقها .

ومن المعروف أن المنهج التجريبى القائم على الملاحظة والمشاهدة والتجربة نقله « روجر بيكون » إلى أوروبا عن العلماء المسلمين ، وأوروبا فى نهضتها المعاصرة مدينة لهذا المنهج الإسلامى المولد .

كما أسهمت علوم وفلسفات علماء مسلمين فى بعث النهضة الأوروبية فى شتَّى المجالات مثل ابن سينا ، والرازى ، والفارابى ، وابن رشد ، والغزالى ، وابن الهيثم ، وابن النفيس وغيرهم كثيرون . وقد سجل هذا كله العلاَّمة « جورج سارتون » فى كتابه « رحلة العلم » أشاد فيه بجهود أكثر من عشرين عالماً مسلماً قادوا حركة العلم طوال سبعة قرون ، من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر الميلاديين . وقال : إن العطاء العلمى خلال تلك القرون كان إسلامياً خالصاً ، حتى أصبح لزاماً على كل مَن يريد المعرفة من غير العرب أن يتعلم اللغة العربية التى صارت مفتاح العلوم .

أما فى المجال العقلى والفلسفى .. فيكفى أن نشير إلى ثلاثة ظواهر فريدة: علوم مصطلح الحديث أو توثيق النصوص ونقدها . وعلوم أصول الفقه والفقه

الفروعى ، وعلم الكلام ذى المذاهب المتعددة . هذه الظواهر كان الباعث عليها هو القرآن العظيم .

ويكفى - كذلك - أن نسوق مثالاً واحداً أمد فيه القرآن عقول علماء الإسلام بمادة التفكير الحر . وذلك المثال هو : رؤية الله فى الآخرة .

فقد ذهب أهل السُنّة إلى جوازها ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (١) .

وذهب المعتزلة إلى استحالتها ، وهم بدورهم استدلوا بقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ (٢) .

وأوّل أهل السُنّة دليل المعتزلة بأن المراد : « لا تدركه الأبصار على وجه الإحاطة والشمول » . كما أوّل أهل الاعتزال دليل أهل السُنّة بأن المراد : « إلى نعمة ربها ناظرة » . وهكذا أطلق القرآن العقول من عقالها نظرياً وعملياً . فأين تقف دعوى خصوم الإسلام من هذه الحقائق الثوابت يا ترى ؟

* * *

(١) القيامة : ٢٢ - ٢٣ (٢) الأنعام : ١٠٣

صحة القرآن والسُنَّة .. تتوقف على الإجماع .. ؟!

الغاية تبرر الوسيلة ، هذا مبدأ - شيطانى - وضعه « مكيافلى » فى كتابه « الأمير » خدمة للحكام الطغاة ، وخلاصته أن الحاكم الطاغية إذا كانت الغاية التى ينشدها مقيدة لنظام حكمه فعليه أن لا يتردد فى الوصول إليها بكل الوسائل ، ولو خاض فى بحر من دماء الرعية ، أو انتهك كل الحرمات ، وداس على كل القيم النبيلة بـ « الحذاء » ، فالمهم هو الغاية وليس الوسيلة . فالغاية وحدها هى التى تضفى على الوسائل صفة المشروعية والمعقولية

« مكيافلى » وضع هذا المبدأ - الشيطانى - لخدمة الحكام الطغاة ، ولا نظن أن الرجل - الشيطان - كان يتوقع أن مبدأه هذا سوف يستغله «المفكرون الطغاة » ؛ والمفكرون الطغاة - هنا - هم السادة المستشرقون الحاقدون على الإسلام . والغاية عندهم هى « هدم الإسلام » ، وهذه الغاية تبرر عندهم الوسيلة، ولو كانت تلك الوسيلة فى حكم العقل والعلم والواقع المجمع عليه ، مستحيلة ؟!

● مدخل لفهم هذه الفرية :

نتصدى - هنا - لفرية المستشرقين التى صوَّروها فى قولهم : « صحة القرآن والسُنَّة تتوقف على الإجماع » ؟! والمدخل لفهم هذه الفرية نوجزه فيما يأتى :

الأحكام فى الشريعة الإسلامية - من حيث مصدرها - قسمان : قسم ورد فيه نص قطعى الدلالة والثبوت . ومعنى « قطعى الدلالة » أن تكون دلالة النص على الحكم قاطعة لا تحتمل التأويل ، ومعنى « قطعى الثبوت » أن النص الدال على الحكم مقطوع بأنه ورد عن المشرع وروداً يقينياً وهذا يشمل آيات الأحكام فى القرآن ، ويشمل من السُنَّة أحاديث الأحكام المرفوعة إلى النبى ﷺ المتصلة السند كالأحاديث الصحيحة والحسنة .

وذلك مثل تحديد بعض كفّارات مناسك الحج بصيام عشرة أيام فى قوله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِى الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (١) . فهذا حكم قطعى الثبوت والدلالة .

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » فقد سوّى صاحب الدعوة بين حرمة نكاح القرابة من النسب وبين القرابة من الرضاع ؛ فأخت الرضاع محرّمة على أخيها من الرضاع كحرمة النسب .

وقسم لم يرد فيه نص من الكتاب أو السنّة ، أو ورد فيه نص قرآنى دلالته غير قاطعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ .. ﴾ (٢) لاحتمال أن يكون المراد بـ « القرء » : الطهر ، أو الحيضة . وإلى كل منهما ذهب فريق من الفقهاء .

أما ما لم يرد فيه نص - لا قطعى ولا احتمالى - فكثير . وطريقة معرفة حكم هذا النوع تتوقف على اجتهاد العلماء . وهذا بدوره يتنوع نوعين :

الأول : أن يختلف العلماء فى تحديد حكم فيرى فريق المنع ، ويرى آخر الجواز ، أو يرى فريق الوجوب ويرى آخر النيّة أو الندب ، وبهذه المرونة تضخمت الثروة الفقهية عند العلماء المسلمين ، كالرفع من الركوع رآه فريق فرضاً ، وآخر أقل من الفرض .

الثانى : أن يجمع المجتهدون - بعد النظر - على رأى واحد ، وهذا يسمى بـ « الإجماع » ، والمسائل التى أجمع عليها المجتهدون معروفة ومدوّنة فى رسائل خاصة .

* *

---

(١) البقرة : ١٩٦ (٢) البقرة : ٢٢٨

● سند الإجماع :

كل اجتهاد يقع من الفقهاء سواء نتج عنه اختلاف فى الحكم أو إجماع على رأى واحد يُشترط فيه شرط صحة ، وهو أن يكون له سند من الشرع ، وهذا السند محصور فى مصدرى الشريعة الأساسيين وهما : الكتاب والسُنّة . ويكون عمل المجتهدون قياس ما لم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص ، فإذا ظهر الشبه الجلى بين الأمرين أعطى الأمر الذى لم يرد فيه نص على الأمر الذى ورد فيه نص لاتحاد علّة الحكم فى الأمرين .

ومثاله : إجماع الصحابة رضى الله عنهم على حد شارب الخمر بجلده ثمانين جلدة ، فقد قاسوا شرب الخمر على القذف وهو الاتهام بالزنا من غير بيِّنة ، وحد القذف منصوص عليه فى القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (١) .. وشارب الخمر قد يقع فى أعراض الناس لزوال عقله فيرمى الأبرياء بالزنا ، فعوقب عقوبة القاذف واتحدت علّة الحكم فصح القياس وصح الإجماع لاستناده إلى حكم ورد فى القرآن .

والذى أريد أن أخلص إليه من هذا كله : أن صحة الإجماع متوقفة على القرآن والسُنّة . فإذا لم يكن للإجماع سند منهما - وهذا لم يقع قط - لا يكون الإجماع صحيحاً قطعاً .. هذا هو الحق والصواب .

والآن .. قارن بين مقولة المستشرقين : « صحة القرآن والسُنّة متوقفة على الإجماع » ؟! وبين ما هو مقرر ثابت عند علماء الإسلام سَلفاً وخَلفاً ، وهو أن صحة الإجماع متوقفة على القرآن والسُنّة .

المقارنة تثبت لك فى وضوح وجلاء أن المفكرين الطغاة - المستشرقين - عكسوا الأمر تماماً . فجعلوا الأصل فرعاً ، والفرع أصلاً ، وهم بمثابة مَن يقول : السماء تحتنا ؟! والأرض فوقنا ؟! أو مَن يقول : الإثنان نصف الواحد ؟! .

---

(١) النور : ٤

وهذه كلها مقولات باطلة عقلاً وعلماً وواقعاً . ولكن الغاية عندهم تبرر الوسيلة المستحيلة ؟!

والغاية عندهم هى هدم الإسلام . وفى سبيل هذه الغاية كل شئ يهون ، حتى ولو هذى المستشرقون هذيان المجانين ؟!

*　　*

● ولكن كيف ؟

قلنا : إن هدف المستشرقين من هذه الفرية هو هدم الإسلام ، وهذا يحتاج إلى شئ من التوضيح خلاصته :

طائفة المستشرقين الحاقدين على الإسلام يسعون دائماً لسلخ المسلمين عن إسلامهم ، وجرفهم إلى حضارة الغرب المادية الملحدة ، وبعضهم يتلطف فى الوصول إلى هذا الهدف ، ومنهم مَن يفصح عنه ويعلنه بكل وضوح . فهذا « ريمون شارل » يرى أن الحل الوحيد للمسلمين يكمن فى التخلى النهائى عن الإسلام والاقتداء بالغرب .. ؟! ويشعر فى نفس الوقت بصعوبة قبول المسلمين لهذا التحول ؛ لأن تعصب المسلمين الأعمى - هكذا يصف المسلمين - يمنعهم من هذا التحول .

فى هذا الإطار يرى هؤلاء المستشرقون أن صحة القرآن والسُنَّة تتوقف على الإجماع ، وهم يريدون بالإجماع : الرأى العام . أى أن المسلمين يستطيعون تطوير شريعتهم المؤسسة على القرآن والسُنَّة باعتماد ما يرون اعتماده ، وحذف ما يرون حذفه من القرآن والسُنَّة عن طريق الاستفتاء العام ؟! ومعنى هذا أن الكتاب والسُنَّة ليس لهما صفة الصلاحية ولا الاستمرار إلا إذا أقرهما الرأى العام ؟!

وهذا اعتداء صارخ من هؤلاء الحاقدين ، وجهل فاضح فى نفس الوقت . لأن الإجماع غير الرأى العام . فالإجماع هو اتفاق العلماء المتخصصين فى علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية - أعنى اتفاق أهل الذِكر - وهو مبدأ قرآنى محكم .

ويزيدون الأمر وضوحاً فيدَّعون زوراً وبهتاناً أن المسلمين الذى أخضعوا القرآن والسُنّة لمحاكمة الإجماع - الرأى العام - قد توصلوا إلى قواعد وسُنَن وعقائد جديدة لم يعرفوها من قبل ؟! ولم يبينوا متى حدث هذا ولا ما هى العقائد والسنن (التشريعات) الجديدة التى نتجت عن هذا الإجماع المزعوم ؟!

بَيْدَ أن بعضهم يشير إلى قرار الجمعية الوطنية فى تركيا التى ألغت العمل بالشريعة الإسلامية وأحلّت محلها القوانين الوضعية فى عهد الرجل الصنم « أتاتورك » ؟!

ويتمادى مَن صرَّح بهذا ، وهو « ولفرد سميث » فيقول : « وبذلك كان الأتراك قادة العالم الإسلامى . وما يزال العرب وغيرهم من الحمقى مقيَّدين فى تفكيرهم .. ويرون أن تركيا تركت الإسلام . وهذا غير صحيح .. » ؟!

إذن .. إن هدف المستشرقين من إخضاع القرآن والسُنّة للإجماع ، فيه عكس للحقائق ، وهم يسعون من خلاله لهدم شريعة الإسلام ومحو عقيدته ، وإحلال الإلحاد محل العقيدة ، وقانون الثورة الفرنسية الوضعى محل كتاب الله وسُنّة رسوله .. وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ .. ﴾ (١) ، و ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (٢) .

* * *

(١) البقرة : ١٢٠ .

(٢) البقرة : ١٠٩ .

منهج التشريع القرآنى .. تنقصه الدقة والشمول .. ؟!

عندما يتصدى مستشرق لدراسة القرآن ، تسيطر عليه فكرة خاصة كان قد اشتغل بها قبل التصدى لدراسة القرآن ، وأكسبته تلك الفكرة منهجاً معيناً فى الدراسة يظل أسيراً له ، ولا يستطيع الفكاك عنه ، وكثيراً ما يجافى هذا المنهج روح البحث فى القرآن . وينتج عن هذا التجافى بين طبيعة المنهج ، وطبيعة المادة المدروسة (القرآن) اضطراب فى التصور والحكم ؛ لأن صاحب المنهج يحاكم موضوع الدراسة بمعايير ضيقة لا تناسب حقيقة الموضوع المدروس . هذا إذا كان الباحث جاداً سليم الطوية .

أما إذا ضممنا إلى قصور المنهج سوء النيّة عند الباحث فمعنى ذلك أن الدراسة ستنتهى إلى خطأ مركب من ناحيتين ..

أولاهما : قصور المنهج فى نفسه ، واعوجاجه .

ثم سوء النيْة المتعمد من أول الأمر .

وهذا ما اكتنف الدراسة التى أعدها المستشرق « نويل كالسون » عن منهج التشريع فى القرآن .

● **أخطاء كالسون :**

« كالسون » أستاذ متخصص فى القانون المدنى الوضعى . وحين عمد إلى دراسة التشريع القرآنى ، كانت الأدوات التى استخدمها فى الدراسة ، هى قواعد وضوابط القانون الوضعى . وهنا تبدو المجافاة الواضحة بين المنهج المستخدم وبين طبيعة التشريع الإسلامى فى القرآن . فكان لا بد من وقوع « كالسون » فى أخطاء حتى ولو كان حسن النيّة ؛ لأنه حاكم القرآن على ضوء ثقافته الوضعية الخاصة . فكان كمَن أراد أن يعبر المحيط ممتطياً لوحاً من الخشب .. ظاناً أن هذه الوسيلة كافية للعبور ؟!

كان طبيعياً - إذن - أن يقع « كالسون » فى عدة أخطاء ، وفعلاً قد وقع فيها ، ويهمنا منها - هنا - خطأ واحد صورته :

إن التشريع القرآنى قاصر - يعنى عاجز - فى ناحيتين : فهو لم يكن دقيقاً فى منهجه - يعنى القرآن - ولا شاملاً فى موضوعه ؟!

وهذا إجمال نوضحه - قبل الرد عليه - فيما يأتى :

أولاً : يقصد « كالسون » بعدم الدقة أن القرآن لم يعرض أحكامه التشريعية فى مكان واحد ، بل ذكرها موزَّعة على بعض السور والآيات ، جامعاً بينها - أى الأحكام - وبين موضوعات أخرى ، وكان حرياً به أن يذكر جميع الأحكام فى موضع واحد .. ؟!

ثانياً : ويقصد « كالسون » بعدم الشمول أن القرآن لم يقرن كل جريمة أو مخالفة بأجزيتها وعقوباتها ، بل كثيراً ما يقف عند ذكر الجرائم والمخالفات ولا يذكر لها عقوبات محددة . بل يقيم مقام العقوبات توجيهات خُلُقية مردها إلى ضمير المكلف وحده ، ولا تعطى « الحاكم » حق إنزال العقاب بالمجرم .. ؟!

* *

● تعقيب :

هذا ما نريد مواجهته - هنا - من أخطاء « كالسون » . وظاهر كل الظهور أن « كالسون » يحاكم القرآن - هنا - على أسس القوانين الوضعية ، لذلك يرى أن القرآن حيث لم يجمع الأحكام فى مجلدات خاصة ، ويجعل لكل مجموعة متجانسة قسماً خاصاً . ثم يسرد الأحكام من خلال أبواب ، وفصول ، ومواد ، وفقرات ، ويذكر كل جريمة مقروناً بها عقابها الجنائى أو المدنى ، حيث لم يفعل القرآن ذلك فهو عند « كالسون » ورفاقه : تنقصه الدقة والشمول . أو هو كما يرى: لم يقدم لنا بناءً قانونياً متكاملاً .. ؟!

و « كالسون » معذور إن كان جاهلاً ، وملوم إن كان متجاهلاً . فالقرآن أولاً وقبل كل شئ كتاب هداية وإرشاد . هذا هو الوصف العام للقرآن الذى لا ينفك عنه بحال سواء فى ذلك عنصره التشريعى ، أو القصصى ، أو الجدلى الحوارى .

وورود التشريع القرآنى مفرَّقاً فى سوره وآياته حسب سياق الكلام ومقتضيات المقام لا يُسوِّغ لأحد أن يصف تشريعاته بعدم الدقة وعدم الشمول . فهى على ورودها مفرَّقة قد جُمعت فى مجلدات خاصة مشروحة شرحاً قانونياً واسعاً ، فكم من العلماء حصروا آيات الأحكام فى مصنَّفات خاصة بها تحت عنوان : «أحكام القرآن » ، كما قام علماء أصول الفقه برصد آيات الأحكام ووضعوا القواعد الكلية التى تتفرع عنها أحكام الفقه التفصيلية المتعلقة بأحوال المكلَّفين فى جميع مناحى الحياة وميادين النشاط والعمل .

ثم جاء الفقهاء وخطوا الخطوة الأخيرة وفرَّعوا الأحكام على أصولها ، ومنهم مَن وقف عند حد الواقع من الحوادث ، ومنهم مَن شرَّع لحوادث وقضايا لم تقع ، ولكنها محتملة الوقوع . وبهذا وصل التشريع الإسلامى إلى أرقى وأدق وأشمل النظم القانونية ولم يضارعه فى هذا المجال نظام قديم موروث ، ولا نظام مبتدَع مستحدَث ، ولو كان « كالسون » قد فطن إلى هذه الحقيقة أو أنزلها منزلها من الاعتبار لما تورط فى تصورات جزافية لم تقم على أساس علمى صحيح .

* أما أن القرآن ينحو منحىً أخلاقياً عقب كل واجب على المكلَّف أو محظور ، فلأن القرآن يعتبر حُسن التربية أساساً أصيلاً فى الإصلاح . أما العقوبات فلا يُصار إليها إلا كبديل للتربية الحسنة عند بعض الأفراد . وهذا هو المنهج القويم فى قيام المجتمعات الصالحة ، وتكوين الأفراد الأسوياء - على حد تعبير علماء النفس - ولو كان البروفسور « كالسون » تأمل أحوال المجتمعات الإسلامية المعاصرة - رغم بُعدها النسبى عن الإسلام - لأدرك أن الأوامر المطاعة ، والنواهى المجتنبة عن طريق حسن التربية ، تفوق كثيراً نظائرها المطاعة أو المجتنبة عن طريق الخوف من العقاب لأن فى التربية الحسنة يكون اللّٰه هو الرقيب على العباد وهو معهم أينما كانوا ، فأين منه المفر ؟ .. أما الرقابة

البَشرية التى بيدها إنزال العقاب ممثلة فى السُلطة الحاكمة فما أضعف سلطانها على النفوس . القرآن يهدف إلى تحقيق الاستقامة عن طريق الرغبة والحب ، لا عن طريق الخوف من العقاب العاجل .

وقد مثَّل « كالسون » بالنهى عن شُرب الخمر ، وأخذ على القرآن أنه لم يقرن هذه الجريمة بعقابها المناسب ، بل اكتفى بالتوجيه الخُلُقى فيها . ونقول لكالسون : هذا صحيح ولكن جهلت أو تجاهلت أمرين :

أما أحدهما : فالقرآن يقول عقيب تحريم شرب الخمر : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوةَ وَالبَغْضَاءَ فِى الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ ، فَهَلْ أَنتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ (١) .

فرغَّب فى ترك شُرب الخمر بتحقيق الفلاح . وهذا يبعث فى النفس آمالاً واسعة فى السعادة فيجعلها أقرب إلى الامتثال . أما لو قيل مكان : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ : « فإن شربتم تُجلدون ثمانين جلدة » ، لما رقى هذا التهديد إلى أدنى درجة من درجات الرغبة فى تحقيق الفلاح . والنفس أملأ رغبة بتحقيق الخير من رغبتها فى النجاة من عقوبة مؤقتة قد يحتاط لها بتناول الخمور سراً وبعيداً عن أعين الرقباء .

وأما ثانيهما : فإن القرآن حين اكتفى بالتوجيه الخُلُقى فإنه لم يغفل الجزاء المادى لأن للقرآن طرفاً آخر مأذون له بتكميل ما نقص أو توضيح ما أبهم ، أو تفصيل ما أجمل ذلك هو الرسول ﷺ الذى قال الله فى شأنه : ﴿ ... وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾ (٣) ، وغير ذلك كثير . وللرسول – كذلك – طرف

---

(١) المائدة : ٩٠ – ٩١ (٢) النساء : ٥٩ (٣) الحشر : ٧

آخر هم العلماء ، وقد أوكل الله إليهم وإلى ولاة الأمر تقدير العقوبات على الجرائم التى لم يحدد الله ولا رسوله لها جزاءات وهى عقوبات التعزير ، وطريق تقديرها هو الاجتهاد المؤسس على كتاب الله وسُنَّة رسوله .

فيا كالسون ..كم تطلبون للإسلام عيباً فيعجزكم .. ألا تنتهوا ؟

* * *

رواة الحديث يُدخلون فيه أقوال الفقهاء .. ؟!

فى الإسلام علمان فذّان اختصت بهما أمة الإسلام ، ولم تشركها فيهما أمة من أمم الحضارة قديماً أو حديثاً . وهما « علم أصول الفقه » ، و « علوم الحديث رواية ودراية » أو « علم مصطلح الحديث » ، وما أكثر مَن اعترف لأمة الإسلام بهذا الفضل حتى من المستشرقين أنفسهم ، وبعضهم لم يسعه إلا اعتناق الإسلام لروعة ما اطلع وعاين ، ولكن الطائفة التى نتحدث عنها من المستشرقين - وهم المعادون للإسلام منهم - لا يعجبهم عجب ، ولا يؤمنون بحق مهما لاحت دلائله ، وقوى سلطانه ، ومَن لم يجعل اللّه له نوراً فما له من نور. هذه الطائفة ولغت فى كل خصائص الإسلام ، ومما ولغت فيه علوم الحديث رواية. رموا علماءه - وهم ثقات أمناء - بخراب الذمة والانتحال والتزوير ، وكان مما قالوه : إن رواة الحديث كانوا ملفقين غير أمناء . فلم يقتصروا على رواية ما صح سنده إلى النبى ، بل أدرجوا فيه أقوال الفقهاء وجعلوها أحاديث نبوية ، وبذلك تضخم الحديث المنسوب إلى النبى ﷺ .. ؟!

* *

● هم فى واد والحق فى واد :

وهذا الذى قالوه افتراء وتزوير . فما أبعد علماء الحديث رضى اللّه عنهم عما يقوله هؤلاء المبطلون . إنهم فى واد ، والحق فى واد آخر . علماء الحديث أكثر علماء الأمة بلاءً وأضناهم جهداً ، وأشقهم عملاً ، وأثقلهم عبئاً ، وأصعبهم رسالة . كانت مهمتهم أثقل من نحت الصخور ، وحمل الجبال ، يشهد بكل ذلك ما تركوه لنا من علوم جليلة ، وجهود نبيلة ، راعوا فيها أمانة النقل ، وصفُّوا حديث صاحب الرسالة من كل شائبة ، ونحّوا عنه كل دخيل ، ببصيرة واعية ، وذكاء خارق ، وعقل نفّاذ ، ووصفهم بعدم الأمانة فى النقل والرواية كوصف اللبن بالسواد ، كلاهما زور وبهتان .

* *

● مصادر الرواية :

ويتبين لنا كذب المستشرقين على رواة الحديث من الوقوف على مصادر الرواية والدقة المتناهية فى الشروط التى وضعوها لقبول الحديث ، وتصنيف الرواة فى طبقات ، ومعرفة أحوال الرواة ، وهذا ما يُعرف عندهم بـ « السند » ، ثم النظر فى صيغة الحديث بموازين خاصة ، وهو المعروف عندهم بـ « المتن » .

والحديث المقبول عندهم منازل ودرجات . وشرط القبول العام لأى حديث هو سلامة سنده ومتنه . فلا يُقبل حديث سلم سنده واختل متنه ، ولا حديث سلم متنه واختل سنده ، ما لم يكن له طريق آخر خال من الخلل .

وقد اكتسب علماء الحديث من طول الممارسة خبرة خارقة بأحوال الرواة فرداً فرداً ، يميزون بها بين الثقات الذين تُقبل روايتهم ، والضعفاء الذين يُنقل عنهم بحذر مع التنبيه على ضعفهم ، والمتروكين الذين لا يُنقل عنهم ، والوضّاعين الكذّابين الذين تُرَد مروياتهم ويُحذّرون الناس من تصديقهم .

كما اكتسبوا خبرة فائقة فى معرفة متون الحديث ، يفرّقون بها بين الحديث المقبول لسلامة متنه ، والمردود من حيث صيغته أو معناه . إنهم نقّاد مهرة فى مجال تخصصهم . حباهم الله علماً وذكاءً وورعاً وتقوى . فجمعوا حديث رسول الله ﷺ بعلم ووعى ، ونقلوه بأمانة وإخلاص .

* *

● أقسام الحديث عندهم :

وكم كانوا رضى الله عنهم موفقين كل التوفيق ، حينما قسّموا الحديث إلى صحيح ، وحسن ، وضعيف ، وموضوع مكذوب ، ووضعوا لكل قسم رسوماً وضوابط ، وقسّموا الحديث الضعيف أقساماً ، وصدروا فى ذلك كله عن مَلَكة نقدية لم تُعهد لأمة فى مجال الرواية وتوثيق النصوص ، إلا لأمة الإسلام .

كما وضعوا علامات لمعرفة الوضع والكذب فى الحديث ، إذا تحقق وجودها فى خبر دل على أنه موضوع مكذوب لم يقله صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .



● مَن الذى تُقبل روايته :

جامعو الحديث - كالإمام البخارى والإمام مسلم وغيرهما - لم يكونوا يقبلون رواية كل مَن هبَّ ودبَّ . بل كانوا يشترطون شروطاً فى مَن تقبل روايته، وتلك الشروط من شأنها أن تحمل النفس على الثقة فى صدق الراوى ، وهى إجمالاً أربعة شروط . وهى : الإسلام - البلوغ - العدالة - الضبط . فلا تُقبل رواية غير المسلم ولو عُرف بالصدق والأمانة ، ولا رواية الصبى دون البلوغ ؛ لأنه لا يُقدِّر الأمور حق قدرها ، ولا رواية غير العدل من الناس .

والعدالة المشترطة فى قبول رواية الراوى تتحقق باجتناب الكبائر كالاشتغال بالسحر والشعوذة ، وقتل النفس ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والهروب من الميدان ، والخوض فى أعراض الناس ، وعقوق الوالدين ، والكذب ، وانتهاك المحرَّمات ، والغيبة ، والنميمة ... إلخ .

وكذلك الصغائر ، واجتناب المباحات المخلة بالمروءة كالأكل فى الطريق ، والتبول فيه ، ومصادقة أراذل الناس ، وكثرة المزاح . وقد يُعبَّر عن هذا كله بالاستقامة .

أما الضبط .. فيراد به أن يكون الراوى حافظاً متقناً ذاكراً لما روى من ساعة التحمل إلى ساعة الأداء .

فانظر إلى هذه الضوابط الجامعة التى وُضعت لقبول رواية الراوى . فهل يُعقَل أو يُصدَّق أن مَن كان هذا شأنه فى تدوين حديث رسول الله ﷺ يختلق هو نفسه الحديث وينسبه إلى صاحب الرسالة وهو يعلم علم اليقين أنه لم يقله إنما هو قول فقيه أو عالِم من العلماء ؟!

وكيف يجرؤ علماء الحديث رضى الله عنهم أن يكذبوا على رسول الله ﷺ وهم يحفظون قوله : « مَن كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ؟!

* *

● نموذج من عمل البخارى :

لو كان علماء الحديث حاطبى ليل أو مزوِّرين - كما يدَّعى المستشرقون - لكانت كتب الحديث أضعاف أضعاف ما تركوه لنا رضى الله عنهم . ومعلوم أن جامع الإمام البخارى وهو أول مصنَّف فى الحديث الصحيح جمع فيه صاحبه (٩.٠٨٢) حديثاً بالمكرر وقد اختار البخارى هذا القدر من ستمائة ألف حديث . فهو لم يجمع فيه إلا ما تيقَّن صحته سنداً ومتناً ، وكان كلما دوَّن حديثاً منها صلى ركعتين قُربة لله .. وكان يقول عن جامعه فى الحديث : « جعلته حُجَّة بينى وبين الله » .

ونعمت هذه الحُجَّة . إن أمانة البخارى وذمته تفوق أمانة المستشرقين جميعاً إن كان لأى مستشرق أمانة وذمة ؟!

وقد سمى كتابه رضى الله عنه بـ « الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه » ، وظل يدوِّن كتابه على مدى ستة عشر عاماً ، وبعملية حسابية تقريبية يتضح لنا أن الإمام البخارى كان يدوِّن فى اليوم الواحد ٧٥ ر١ = (حديثاً واحداً وثلاثة أرباع حديث) . وهذا بدوره يوضح لنا مدى الدقة والحرص والتثبت الذى أحاط البخارى به عمله الجليل ، وما يقال عن البخارى يقال مثله أو ما يقاربه عن جامعى الحديث ، وبخاصة صنوه الإمام مسلم ، يقول الإمام الدهلوى المحقق الثقة : « أما الصحيحان فقد اتفق المحدِّثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع الصحيح بالقطع .. وأن كل مَن يهوِّن أمرهما فهو مبتدع متبع غير سبيل المؤمنين » .

إن هدف المستشرقين من هذه التهم أن يصموا علماء خير القرون بالكذب وخراب الذمة ليصيبوا الأمة فى مقتل . والله من ورائهم محيط . إن ربك لبالمرصاد .

* * *

علماء الحديث « حزب معارضة » لعلماء الفقه ..؟!

حينما يقف المستشرقون أمام التاريخ الإسلامى ، وبخاصة فى القرون الأولى للإسلام ، قرون السلف الصالح ، حينما يقفون أمام ذلك التاريخ للبحث عن المثالب والثغرات التى ينفذون منها لتشويه حقائقه ، فإنهم إذا لم يجدوا مادة للتشهير والتجريح لا يتورعون أن يخلقوا ذلك خلقاً ، وإذا وجدوا واقعة يمكن إساءة تفسيرها هُرعوا إليها واستولدوا منها ما يسمح به خيالهم السقيم من مثالب ومذام . ومن هذا النوع ما نورده فى الآتى :

زعموا أن رجال الحديث الذين هبوا لجمع أحاديث صاحب الدعوة وتدوينها وتوثيقها لم يدعهم إلى هذا العمل إلا عداءٌ فكرياً ومنهجياً نشأ بينهم وبين رجال الفقه منذ البداية ، ثم يطلقون على رجال الحديث أنهم كانوا « حزب معارضة » لحزب رجال الفقه - هكذا والله - سوّلت لهم أنفسهم ، مستخدمين فى مناهجهم مسميات من العُرف السياسى المعاصر : أحزاب - معارضات . وهكذا .

وهذا الخطأ الفاحش والافتراء الكاذب أوقعهم فى إلصاق تهم أخرى وصفوا بها الفريقين معاً - رجال الحديث ورجال الفقه على حدٍ سواء - . وصاحب هذا القول هو « جوزيف شاخت » فهو يتهم الفقهاء خلال القرون الثلاثة الأولى بأنهم بنوا فقههم على أقوال وأعمال بعض الرجال من الصحابة والتابعين ولم يقيموا وزناً لأحاديث رسول الله . لذلك نشأ ضدهم حزب المعارضة متمثلاً فى رجال الحديث . واشتد العداء بين الحزبين : المحدِّثين والفقهاء ؟!

ويتهم رجال الحديث بأنهم جمعوا ما جمعوه من أحاديث كسلاح يشهرونه فى وجه الفقهاء جمعاً عشوائياً لا سند له . يعنى أن علماء الحديث وضعوا أحاديث مكذوبة لم يقلها النبى ﷺ ؟!

ثم يعود فيتهم الفقهاء مرة أخرى بأنهم اضطروا إلى أن ينسبوا آراءهم هم

. موال الصحابة والتابعين التى بنوا عليها فقههم ، اضطروا أن ينسبوها إلى النبى على أنها أحاديث هو قائلها ، وأن هدفهم من ذلك أن يقووا مركزهم أمام الحزب المعارض لهم وهم رجال الحديث ؟!

ثم يعود فيتهم علماء الحديث بزيادة نشاطهم فى اختراع أحاديث ونسبتها إلى النبى ليتفوُقوا على رجال الفقه فى هذا المجال .. ؟!

وهكذا يُظهر « شاخت » علماء خير القرون فى صورة شديدة النكارة ، فهم قوم لا همٌ لهم إلا الكذب والتنافس فى ميادين التزوير والافتراء على صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، وعلى الصحابة وكبار التابعين . ولذلك فإن « شاخت » لا يتورع أن يصفهم بأنهم كانوا : كذُابين وملفّقين .. ؟! والواقع أن الكذُاب الملفّق الدجُال هو « شاخت » ونظراؤه من أبالسة الاستشراق والتبشير ومَن لفٌ لفهم .

* *

● نقض هذا الافتراء :

فى البداية نقول : نحن لا يخيفنا ما يقول المستشرقون فرادى وجماعات . فإن ما يقولونه مهما أرعد وأزبد فهو أشبه ما يكون بالسحر الذى أراد فرعون أن يمحو به رسالة موسى عليه السلام . فقد أجهد فرعون وسحرته أنفسهم فى الإعداد للمباراة التى حددوها مع كليم الله موسى . ويوم وقوعها لم يُعد لها موسى شيئاً سوى عصاه التى كانت لا تفارقه . وبمجرد أن ألقاها علىَ حيل السحر وألاعيبه - تنفيذاً لأمر ربه - بطل سحر الكفر ، وعلا حق الإيمان .

إذا جاء موسى وألقى العصى فقد بطـل السحــر والساحر

وما قاله ويقوله المستشرقون عن إسلامنا وحقائقه ، مهما تعدد وامتد ، لن نحتاج فى دحضه لطول وقوف أو كثرة جدل . فقولهم هو الباطل ، والإسلام هو الحق ، وسنُة الله فى الحق والباطل معروفة :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ، إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (١) .

---

(١) الإسراء : ٨١

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [1] .

وإجمالاً نقول : إن ادعاء صراع حدثَ بين الفقهاء والمحدِّثين كما يدّعى « شاخت » دعوى لا أساس لها من الصدق .

وإن التفرقة المطلقة بين رجال الثقة ورجال الحديث دعوى أخرى موغلة فى الوهم .

وإن اتهام رجال الفقه ورجال الحديث بوضع الأحاديث عن عمد ونسبتها إلى رسول الله ﷺ دعوى لا تصدر إلا عن أحد رجلين : رجل جاهل كل الجهل بمناهج العلماء المسلمين الأوائل فى رواية الحديث ودرايته . أو رجل حاقد موتور كاره لحق الله ، ومحب لباطل الشيطان ، وكلا الرجلين لا وزن لما يقول . ونعتقد أن « شاخت » هذا قد جمع الوصفين معاً : الجهل المطبق ، والحقد المدمر ، فكيف يكون لكلامه فيما ليس له به علم أى وزن أو تقدير ؟!

وتفصيلاً نقول : إن أئمة الفقه الإسلامى ، وأشهر رجاله كانوا من رجال الحديث . فالإمام أبو حنيفة - وإن لم يرج الحديث فى عهده - كان له مصنَّف فى الآثار رواه عنه تلميذه أبو يوسف .

والإمام مالك - إمام دار الهجرة - له كتاب الموطأ فى الحديث ، وكل الأحاديث التى حواها أدلة للأحكام الفقهية .

والإمام الشافعى - ثالث الأئمة الكبار - معدود من رجال الأصول والفقه والحديث ، واهتمامه بالحديث معروف حتى وُصف بأنه : ناصر السُنَّة . هذا وقد جعل الإمام الشافعى القرآن والسُنَّة مصدراً واحداً للتشريع ، بينما يعدهما غيره مصدرين .

---

(١) الأنبياء : ١٨

والإمام أحمد بن حنبل من أكثر العلماء الفقهاء عناية بجمع الحديث ، وله مسند معروف مشهور ، وتوسعه فى العمل بالحديث سمة من سمات مذهبه ، حتى إنه ليأخذ بالحديث المرسل والضعيف . والحديث الضعيف - عنده - أقوى من أقوال الرجال ، وحتى فقهاء الأمصار ذوو المذاهب الفردية الذين ليس لهم تلاميذ ولا أتباع مثل الأئمة الأربعة ، حتى هؤلاء كانوا من رجال الحديث .

يقول عبد الرحمن بن مهدى : « أئمة الحديث الذين يُقتدى بهم أربعة : سفيان الثورى بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعى بالشام ، وحماد بن زيد بالبصرة » وهؤلاء معدودون من قدامى الفقهاء .

فهل من المقبول أو المعقول أن تقع الخصومة بين الرجل ونفسه ؟ كيف يكون رجال الحديث « حزب معارضة » لرجال الفقه ورجال الفقه هم رجال حديث ؟ ما أشنع هذه الفرية التى افتراها « شاخت » ومشايعوه ؟!

* *

● اختلاف وارد :

نحن نقر ونعترف بأن بعضاً من رجال الحديث كان لهم منهج فقهى يختلف عن منهج مَن جمعوا بين الفقه وعلم الحديث دراية ، كما نعترف بأن نفراً قليلاً من رواة الحديث كانوا يفهمون الحديث على غير معناه ، كالذى تبوّل ثم صلى ركعة دون أن يتوضأ ، فلما سئل قال : لأن النبى قال : « مَن استجمر فليوتر » ومراد الرسول أن يتطهر بحجر أو ثلاثة أحجار ، وليس مراده - كما فهم هذا الرجل - أن يصلى ركعة وتراً . نعترف بهذا كله ولكننا ننكر - وبكل شدة وحزم -دعوى « شاخت » الطنطانة من شدة العداء بين الفقهاء والمحدثين ، واتهامهم - جميعاً - بوضع الحديث زوراً وبهتاناً . إنها دعوى لا وجود لها إلا فى وهم مدّعيها ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [1] .

* * *

---

(١) يونس : ٦٩ - ٧٠ .

السبق إلى الإسلام حيلة
للحصول على الأمن والطعام .. ؟!

بدأ صاحب الدعوة عرض الإسلام على مَن يثق فيهم فى بداية الأمر سراً . فاستجاب له رجال من قريش بلغ عددهم ثمانية ، بالإضافة إلى إسلام زوجته خديجة بنت خويلد ، وابن عمه علىّ بن أبى طالب الذى كان أول شاب يدخل فى الإسلام . ثم أخذ العدد يتكاثر ، وبخاصة بعد أن أمره الله بالدعوة إلى الإسلام جهراً ، بادئاً بعشيرته الأقربين ، ثم جميع مَن بمكة وضواحيها ، كما عرض الإسلام على نفر من أهل يثرب (المدينة) ، حين قدومهم إلى مكة فى مواسم الحج ، وانتشر الإسلام فى كل بيوتات المدينة قبل أن يهاجر إليها صاحب الدعوة، كما فشا أمره فى مكة بين الرجال والنساء والأحرار والعبيد . وصارت ظاهرة السبق إلى الإسلام رتبة من أعلى رتب الفضل فى الإسلام .

وقد وقف المستشرقون من هذه الظاهرة موقفاً مريباً كعادتهم فى كل حقائق الإسلام وآثاره العظيمة . وراحوا يتلمسون لها تخريجات وتفسيرات كلها زور وبهتان ؛ لأنهم يريدون أن يظهروا الإسلام فى صور باهتة ومنفرة ، وأن أسباب الإقبال عليه لا ترجع إلى الاقتناع به طواعية ، بل ترجع إلى أمور قاهرة اضطر مَن عاناها إلى الدخول فى الإسلام باعتباره وسيلة للفرار منها وليس غاية فى نفسه . فماذا قالوا - أعنى المستشرقين - فى تفسير ظاهرة السبق إلى الإسلام ؟

يذهب المستشرق « مونتجمرى وات » فى كتابه « محمد فى مكة » إلى أن السبب الذى حمل الناس على السبق إلى الإسلام ليس هو الإسلام نفسه ؟! وإنما الذى حملهم هو الحصول على الطعام والمال ، وتوفير مظلة تحقق لهم الأمن والقرار من ظلم الآخرين واعتداءاتهم ؟!

هكذا سوّل له حقده ، وزيّن له شيطانه ، وليس له من هدف سوى تجريد الإسلام من مزاياه الذاتية ، وتشويه صورته الناصعة .

وما ذهب إليه « وات » ومشايعوه من المستشرقين الناقمين على الإسلام مجرد هراء سخيف لا يثبت أمام النظر ، وواقع الدعوة المعروف لدى الخواص والعوام يكذبه ويمحوه ولا يُبقى له على أثر .

فدعوى أن الحصول على الأمن والقرار دعوى باطلة من كل الوجوه ، فالذين سبقوا إلى الإسلام كانوا أعزاء الجانب ينتمون إلى قبائل ذوات قوة ومنعة ، ولم يمنعها تباطؤ دخولها فى الإسلام ، أو حتى البقاء على الكفر مدى الحياة ، لم يمنعها من حماية أفرادها الذين سبقوا إلى الإسلام ، وحماية أفراد العشيرة والجار طبع كان متأصلاً فى العرب .

أضف إلى هذا حقيقة أخرى ذات شأن فى نقض ما ذهب إليه « وات » ، تلك الحقيقة أن كثيراً ممن سبقوا إلى الإسلام كانوا فى واحة من الأمن قبل دخولهم فيه . ولما دخلوا فيه تعرّضوا لألوان بشعة من التعذيب والاضطهاد من كفار قريش . ورغم ما تعرّضوا له من عذاب لم يفكروا لحظة فى الخروج من الإسلام لتوفير الأمن الذى يدّعيه « وات » .

وهل كانت الهجرة إلى الحبشة مرتين بتوجيه من صاحب الدعوة إلا فراراً من تنكيل قريش بالمسلمين الأوائل فى مكة ؟!

والذين هاجروا إلى الحبشة فى المرتين كانوا على استعداد أن يكفوا الأذى عن أنفسهم بمناصبة قريش العداء ، ورد الصاع بالصاع ، ولكن صاحب الدعوة لم يأذن لهم بمقاتلة قريش ، وكان يقول لهم فى كل مرة : « إنى لم أوذن بقتالهم » .

حتى صاحب الدعوة نفسه لم يسلم من الأذى بالقول والفعل معاً . فلو كان ما ذهب إليه « وات » صحيحاً لارتد أولئك السابقون عن الإسلام ، ولماذا لا ؟ ألم يدخلوا فيه - على حد زعم « وات » - طلباً للأمن ، وها هو ذا الخطر يأتيهم بسبب دخولهم فيه . فما الذى يحملهم على التمسك به يا ترى ؟!

ولو أن « وات » استعمل عقله - إن كان له عقل - ووزن الأمور بميزانها الصحيح لما جرؤ أن يكتب حرفاً واحداً مما كتب .

ودعوى الحصول على المال والطعام دعوى كاذبة كأختها . أليس أبوهما « وات » الكاذب المخادع ، وكل فتاة بأبيها معجبة - كما يقول المثل .

أجل .. إنها دعوى كاذبة لأن السابقين إلى الإسلام لم يكونوا كلهم فقراء ، بل منهم التجار والأثرياء المرموقين فى المجتمع وقتذاك . فأبو بكر ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد . وغيرهم كثير كانوا من أثرى رجالات قريش ، فهل يعقل أن هؤلاء وأمثالهم سبقوا إلى الإسلام لطلب المال وتأمين لقمة العيش؟! ما هذا الهراء يا مستر « وات » ؟!

* وهَبْ جدلاً أن كل مَن سبقوا إلى الإسلام كانوا فقراء عامدين القوت . فأين المال الذى كان يملكه محمد ﷺ ليلبى حاجات هؤلاء الجياع والصعاليك ؟!

إن محمداً عليه السلام كان قمة فى الزهد والترفع حتى بعد الهجرة إلى المدينة ، وكانت بيوتاته تظل الشهر والشهرين لا توقد فيها نار على طعام ، ولم يكن طعامه وطعام أهله إلا الأسودان - التمر والماء - حتى يمن الله عليهم بغيرهما .

* وبقى أمر آخر يرد على « وات » كيده فى نحره ، ويكشف عن زيفه وباطله ويعريه من الصدق أمام الأشهاد .

ذلك الأمر هو مقاطعة قريش الاقتصادية والاجتماعية لبنى هاشم وبنى عبد مناف عشيرة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، وقد نصت بنود المقاطعة على فرض حصار محكم على النبى وعشيرته ومَن اتبعه من المسلمين الأوائل : فلا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ولا يناكحونهم ولا يحادثونهم ، وفعلاً أقام صاحب الدعوة وعشيرته - وفيهم عمه أبو طالب ومَن كان بمكة من المسلمين - أقاموا جميعاً فى شعب أبى طالب وتعرَّضوا - رجالهم ونساءهم وأطفالهم للجوع والظمأ ، حتى علت أصوات النساء والأطفال من شدة الجوع والعطش

واضطروا لأكل الجلود وذاقوا المر والعلقم ألواناً ، ومع هذا ظلوا متمسكين بالإسلام ، وحتى الذين لم يسلموا من عشيرة صاحب الدعوة شملهم هذا الحصار الشديد الوطأة . وكان سبباً فى موت أبى طالب عم النبى .

إن السابقين إلى الإسلام سُلِبوا الأمن والقرار ، كما سُلِبوا الطعام والشراب بسبب سبقهم إلى الإسلام .. أيَبقى بعد هذا وجه من الصواب لِما ادعاه المستر « وات » وأشياعه ؟! إن الكذب والافتراء حليفان للمستشرقين فى كل ما رموا به الإسلام من نقائص .. ويأبى اللّه ألا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

* * *

هجرة المسلمين إلى الحبشة .. لعبة سياسية .. ؟!

كان مما تناوله المستشرقون من وقائع السيرة الإسلامية المبكرة : هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة ، وحاولوا جاهدين أن يفرغوها من محتواها الإيمانى ، وأن يفسروها تفسيراً خيالياً يخدم أهدافهم وأهداف سادتهم المبشرين والمستعمرين . والمعروف تاريخياً أن سبب الهجرة إلى الحبشة مرتين كان باعثه الفرار بالدين من الفتن ، والنجاة من تنكيل قريش وتعذيبها لمن آمن بالله رباً ، وبمحمد رسولاً ، وبالإسلام ديناً ، ولكن المستشرقين الحاقدين وهم يعلمون يقيناً هذه الحقائق التوابت ، استعملوا كل وسائل الخبث والمكر فى طمسها ومحوها ليروِّجوا لباطلهم عساهم أن يصيبوا الإسلام فى مقتل . فماذا قالوا يا ترى ؟

● التفسير المعكوس :

فسَّر المستشرقون هذه الواقعة الإيمانية الخالدة تفسيراً معكوساً . وقد مهَّدوا لهذا التفسير بمغالطة مكشوفة لا يخفى عوارها على أحد . والذى تولى كِبَر هذه المفتريات هو المستشرق الإنجليزى « مونتجمرى وات » فى كتابه « محمد فى مكة » .

فهو يزعم – أولاً – أن قريشاً لم تكن عنيفة فى مواجهتها للذين بادروا بالدخول فى الإسلام . وأن كُتَّاب السيرة بالغوا كثيراً فى تصوير ذلك الاضطهاد ، ويجزم « وات » بأن اضطهاد قريش لأتباع محمد ﷺ كان خفيفاً ؟! ولسنا ندرى من أين استقى « وات » هذا الحكم ؟! أكان هو شاهداً فى ذلك الزمن على مجريات الأحداث ؟ أم له مصدر تاريخى آخر كتبه معاصرون لتلك الأحداث ؟ الواقع أن كلاً من الافتراضين باطل لا سند له . فلم يبق إلا القول بأن « وات » كذَّاب أشر !

ثم يزعم ثانياً - بعد هذا التمهيد - أن سبب الهجرة إلى الحبشة كان لعبة سياسية من النبى ؛ ليتفادى استفحال انشقاق خطير وقع بين المسلمين فى مكة فى ذلك الوقت ؟!

ومن هم أطراف ذلك الانشقاق ؟ يتطوع « وات » بخياله الواسع فيقول إنه كان بين الرجال الذين هاجروا إلى الحبشة ، وبين أبى بكر ؟! وأن النبى أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ليحمى أبا بكر من كيدهم ؟! ثم لا يستبعد « وات » أن يكون الانشقاق ضد النبى نفسه ؟! وأنهم - هكذا يصوِّر له وهمه - كانوا يعارضون سياسة النبى فى توسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام ؟! كما كانوا يعارضون سُلطته المطلقة التى يتمتع بها باعتباره نبياً ؟! ومرة يقول : إن سببها كان للحصول على مساعدات حربية من ملك الحبشة ؟ ومرة يورد « وات » سبباً آخر للهجرة ، وهو أن المهاجرين هاجروا بقصد التجارة ؟!

* *

هذه المزاعم جملة وتفصيلاً أوهام وخيالات مريضة لا تصدر إلا عن رجل مخمور أو مصاب بالحمى . ودحضها لا يحتاج إلى مهارة فى الجدل . فأبو بكر كان رجلاً محبوباً للسابقين الأولين من المسلمين ، بل إن عدداً من كبار رجالات قريش أسلموا مبكرين بسبب إسلام أبى بكر ودعوته إياهم إلى الإسلام فأسلموا بلا تباطؤ .

أما أن الشقاق كان المقصود به صاحب الدعوة فهذا من أكذب الأكاذيب ، إذ لو كان المقصود به هو عليه السلام فكيف أطاعوه حينما أوزع إليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وقد تركوا مساقط رءوسهم وتجشموا وعثاء السفر . أليس فيهم رجل فطن - إن كان هذا يحتاج إلى فطانة - يدرك أن الأمر بالهجرة كان إبعاداً لهم وتخلصاً من شرورهم فيتشبثون بالبقاء فى مكة ؟!

ثم كيف يكون الباعث على الهجرة ممارسة التجارة وهم خرجوا من بلدهم خفافاً فى جنح الظلام ؟ وأية تجارة تلك التى أخرجتهم ومعظمهم كان من المستضعفين الذين لاحَولَ لهم ولا قوة ؟

والواقع يقول إنهم نزلوا ضيوفاً على ملك الحبشة أو لاجئين سياسين من عنف الاضطهاد ، وضراوته ؟ والتجار - عادة - يخرجون فى قوافل ويترددون بين بلدين أو أكثر دون أن يطيلوا المقام بعد أن يبيعوا ما لديهم ويشتروا ما يريدون . وهؤلاء ظلوا بالحبشة حتى انفرجت الأزمة ليستأنفوا هجرة أخرى إلى موطن الإسلام الجديد « المدينة المنوَّرة » على ساكنها وصحبه رضوان الله .

بقيت شُبهة المساعدة الحربية من ملك الحبشة . وهذه كأوهام « وات » السابقة كذبة شنيعة ، مردودة بكل مقياس . فالمسلمون فى مكة قبل الهجرة لى المدينة لم يؤذن لهم بالقتال . فكيف يطلب صاحب الدعوة مساعدة ليس هو فى حاجة إليها ؟ ولو كان قد طلبها لتواترت الأخبار عنها ولما توانى ملك الحبشة فى إمداده بها كما لم يتوان فى إكرام المهاجرين الذين وفدوا عليه .

والهجرة فراراً بالدين ، ورفضاً للإذلال والاضطهاد تشريع إلهى منذ أقدم العصور ، والمسلمون حين هاجروا إلى الحبشة كانوا قد علموا بما أنزله الله فى سورة الزمر من تحبيب الهجرة إذا وقع على المؤمن ضيم :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

وكانوا يعلمون بقصة الفتية الذين آمنوا ، ثم هجروا مدينتهم فراراً بدينهم وأووا إلى الكهف داعين الله أن ينشر لهم من رحمته : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً .. ﴾ (٢) .

فأى غرابة إذن أن يهاجر المسلمون إلى الحبشة فراراً بدينهم ، وخشية أن تفتنهم قريش فتحدث لهم نكسة تحت وطأة العذاب الشديد ، أو تكرههم على النطق بكلمة الكفر ، أو مدح الأصنام حتى لو ظلت قلوبهم مطمئنة بالإيمان .

---

(١) الزمر : ١٠ .
(٢) الكهف : ٩ - ١٠ .

أى غرابة فى ذلك وتاريخ النبوات حافل بالبطولات وتحمل المشاق فى سبيل الحفاظ على الدين ، والبُعد به عن الفتن ؟

إن « وات » ونظراءه من المستشرقين يتهافتون صرعى تحت تأثير حقدهم وغيظهم من الإسلام . لذلك انحرفوا عن المنهج السليم فى البحث والنظر واستخلاص النتائج . وما دامت قلوبهم مترعة بكراهية الإسلام ، وحقدهم عليه طافح فلن يستقيم لهم رأى فيه ، ولن تصدر عنهم كلمة حق ، وما أصدق الشاعر الذى قال : « وهل يستقيم الظل والعود أعوج » ؟!

* * *

الفتوحات الإسلامية .. استعمار مادى مبكر .. ؟!

المستشرقون الذين تصدُّوا لنقد الإسلام ، ودأبوا على الطعن ، سيطر الفكر العلمانى المادى على كثير من بحوثهم وآرائهم ، وبخاصة أيديولوچية التفسير المادى للتاريخ . وحين تصدُّوا للحديث عن الفتوحات الإسلامية المبكرة وجدوا المنهج جاهزاً فى أذهانهم ، ووجدوا تطبيقات ذلك المنهج جاهزة كذلك من القديم والحديث . فالغزو الفارسى والرومانى قديماً كان محكوماً بمطامع مادية خالصة ، ولم يكن لدى الفُرس ولا الرومان رسالة إنسانية راقية يُراد نشرها بين الناس ، والاستعمار الغربى الحديث ، والحربان العالميتان ، كل هذه الظواهر ولدت بتأثير عوامل مادية . فلماذا إذن تخرج الفتوحات والغزوات الإسلامية فى صدر الإسلام عن هذا الإطار المادى ؟ لذلك راحوا يتلمسون لها بواعث وأسباباً مادية ليدرجها هؤلاء المستشرقون فى سلك الاستعمار المادى المبكر ويفصلوها عن بواعثها الحقيقية فصلاً تاماً ومتعسفاً ؟

ولم يطيلوا التفكير فى اختراع الأسباب ، ولكن سرعان ما قالوا : إن الأزمات الاقتصادية التى تعرَّض لها المجتمع الإسلامى بعد الهجرة إلى المدينة، وضيق مساحات الأرض الزراعية ، وتزايد عدد السكان ، هى الأسباب التى حملت الرسول وخلفاءه من بعده على غزو الممالك والشعوب المجاورة وغير المجاورة ، طلباً للتوسع المادى وخروجاً من الضوائق المالية التى حدثت آنذاك .

* *

● نقض هذا الافتراء :

الاتهام – أى اتهام – سهل ويسير ، إذ هو لا يتطلب إلا إجالة للخيال ، ثم نطقاً باللسان ، أو كتابة على ورق ، ولكن ثبوت الاتهام هو الصعب ، والمرء عندما يتملكه الحقد والحسد لا يفكر فى صدق ما يقول . وإنما يفكر فى إرسال التهم جزافاً بلا أية ضوابط .

وما يدَّعيه المستشرقون هنا كلام أجوف فارغ ، يحمل بين طيَّاته عوامل فنائه، فما أبعد الفتوحات الإسلامية عما يقولون ، وما أبعد الفروق بين الاستعمار الظالم - قديمه وحديثه - الذى قاسوا عليه مواكب الفتح الإسلامى ؟!

إن الاستعمار - قديمه ، وحديثه - كان وما يزال الحديث منه ، يضع مطامع الغازى المستبد غايته الأولى والأخيرة ، وهو فى سبيل تحقيق تلك المطامع ينتهك الحرمات ويزهق الأرواح ويعيث فى الأرض فساداً وإفساداً . ثم يمتص خيرات البلاد المغزوة ، ويستذل أهلها ، ويعلق رقابهم فى المشانق بلا رحمة ، ولا هوادة سواء أكان هذا الاستعمار شيوعياً أو رأسمالياً .

أما فتوحات الإسلام فقد كانت لنشر النور والعدل ، واستخلاص الشعوب من النظم الجائرة ، وتبليغ الناس دعوة ربهم ، وتحرير عقولهم وضمائرهم من الخضوع لغير الله . فالهدف من هذه الفتوحات هداية الناس إلى الحق أولاً . ثم إقامة الحُجَّة لله على مَن أبَى ثانياً . ثم تحقيق النفع للشعوب التى فُتحت بلادها ثالثاً .

والإسلام - بعد هذا - لم يغزُ بلداً إلا بعد أن يرسل إلى ملوكها ورؤسائها كتاباً يدعوهم فيه إلى عبادة الله ، وتطبيق شرعه فى شئون الحياة الدنيا ، والعمل المخلص الجاد للآخرة . ثم يترك لهم فرصة الدراسة والتأمل واتخاذ القرار ، فإن استجابوا فبها ونعمت . وإن أعرضوا فللدعوة منهم موقف آخر ، هذا الموقف يتلخص فى إرسال جيش مناسب ، يقف على حدود البلاد ، ثم يستأنف الدعوة بقبول الحق من جديد .

فإن رفضوا دعوة الحق خيَّرهم القائد بين أمرين : دفع الجزية وكف الأذى أو القتال والمبارزة . فإن اختاروا أحدهما أجيبوا إليه ، وليس بعد ذلك عدل ولا إنصاف .

إنهم مكلَّفون بالتبليغ ، ومن أجل ذلك خرجوا مجاهدين فى سبيل الله ، لا طمعاً فى مال ، ولا سعياً وراء سلطان مستبد .

وحين يصير الأمر إلى القتال يكون ذلك عياناً بياناً ، ويكون القتال أمراً قد اختاره خصوم الدعوة ولم يُفرض عَليهم فرضاً . وإذا كان الأمر قد أفضى إلى القتال ، فهو قتال مهذَّب عادل من قبَلِ المسلمين ، لا يقاتلون فيه إلا مَن حمل السلاح فى وجوههم . أما العزل من النساء والأطفال والشيوخ - حتى الرهبان والكهنة فى معابدهم وخلواتهم - فهم معصومو الدم والمال لا يتعرض لهم أحد بسوء ، وكذلك فإن المقاتلين فى مواكب الدعوة لا يقطعون شجرة ولا يقتلون بهيمة ، ولا يهدمون بناءً ولا يخربون عامراً إلا إذا اتخذه جيش العدو حصناً يديرون فيه الخطط ويباشرون منه العدوان . فالحرب فى الإسلام حرب تحرير لا حرب عدوان ، وحرب رحمة لا حرب شقاء وقسوة ، وباعثها الأول والأخير هو تبليغ الدعوة خالصة لله ، والاعتراف بسيادة الحق على الباطل المتمثل فى أخذ الجزية وكف الأذى ، ثم ترك مَن يعطيها حراً فى عقيدته وسلوكياته وعصمة دمه وماله : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١) أى غير مستعلين على الحق الذى أنزله الله على خاتم رسله ، وما خاتم رسله إلا مكملاً لرسالات مَن قبله من الأنبياء والمرسلين . فليست المسألة تعصباً الذى بُعثَ به محمد ﷺ ، بل هى إعلاء لكلمة التوحيد التى بَعثَ الله بها رسله من نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (٢) .

والغزاة المسلمون كانوا يؤدون مهمتهم فى التبليغ - حتى لو انتهت بالقتال-

(١) التوبة : ٢٩ (٢) الشورى : ١٣

ثم يعودون إلى حيث انتهوا ، لا نهب ولا سلب ، اللّهم إلا ما يمن الله به عليهم من غنيمة فى ميدان القتال .

وكانوا كثيراً ما ينفقون على تجهيز الجيش من أموالهم الخاصة إذا ضعفت موارد الدولة كما حدث فى تبوك وغيرها ؛ لأنهم ما أرادوا إلا نُصرة دين الله ، بل كان الموت فى ميدان القتال أحب إليهم من الدنيا وما فيها .

ولأن الفتوحات الإسلامية كانت لتحقيق منافع الشعوب روحياً ومادياً ، كانت بعض الشعوب تستغيث بمواكب الفتح كما حدث فى إسبانيا ، وبعضها ينضم مقاتلاً مع جيش المسلمين ضد النظم التى كانوا يخضعون لها كما حدث فى مصر التى خلّص الفتح الإسلامى لها أهلها القبط من كابوس الرومان ، وأعاد لهم حرياتهم الدينية ، وقضى على نظام الإتاوات الباهظة التى كان يفرضها الرومان على أقباط مصر . ولا ينسى التاريخ - ولن ينسى - أن المسلمين فى مصر أعادوا راعى الكنيسة الأكبر « بنيامين » إلى منصبه الدينى الكبير ورعايته لأهل دينه بعد أن ظل مختفياً سنين خوفاً من بطش الرومان ، الذين كانوا قد اعتنقوا الدين النصرانى تمويهاً واحتيالاً .

ولا ينسى ولن ينسى التاريخ ما حدث فى سمرقند حين دخلها قائد الجيش الإسلامى بغير الطريق التى شرعها الإسلام . وأن أهل سمرقند شكوا إلى عمر ابن عبد العزيز ، وأن عمر بن عبد العزيز نصّب لهم قاضياً مسلماً ينظر فى أمرهم ، وأن القاضى المسلم حكم - بعد النظر - بإخراج جيش المسلمين من سمرقند ، وأن تدفع الدولة تعويضات لأهل سمرقند عن الخسائر التى منوا بها من غزو غير مشروع ، ولكن الغزاة كانوا قد ساروا سيرة حسنة فى أهل سمرقند وسحروهم بأخلاقهم الإسلامية العالية . فرفضوا تنفيذ الحكم وتمسكوا بوجود الفاتحين ودخلوا فى دين الله أفواجاً .

فأين الاستعمار المادى إذن فى واقع الفتوحات الإسلامية يا ترى ؟ وهذه الصفحات الناصعة البياض تدحض دعوى المستشرقين ، وترد كيدهم إلى نحورهم .. ؟!

ثم إن هناك حقيقة كان يجب على المستشرقين الإنصاف بالاعتراف بها ، وهى أن مواكب الفتح الإسلامى لم يكن يقف أمامها الشعوب ، بل النظم الظالمة التى كانت تسيطر على تلك الشعوب ، أو الحقد الدينى الموروث عن رسالات كانت قد حرُفِّت ووضع الباطل فيها مكان الحق . وهذا لم يحدث إلا فى الأندلس بعد ثمانمأة عام من بدء فتحها . وفيما عداها استقر الإسلام فى كل بلد وطئت أقدامه أرضها .

* * *

أسباب انتصارات الإسلام
لا صلة لها بالإسلام نفسه .. ؟!

من الموضوعات التى أولاها المستشرقون أكبر عناية فى الدرس والبحث والوقوف طويلاً أمامها : الانتصارات الرائعة التى أحرزها الإسلام داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها . وقد هال المستشرقين من تلك الانتصارات ظاهرتان :

الأولى : قصر المدة التى وقعت فيها .

والثانى : اتساع الرقعة التى شملتها .

وحين حاولوا فحص الأسباب التى أدت إلى تلك الانتصارات ؛ فإن أغلب الظن أنهم أدركوها على حقيقتها ، ولكنهم عند رصد النتائج تنكبوا سواء الصراط ، وقالوا ما لم يعتقدوه . وحصروا أسباب الانتصارات الإسلامية فى الآتى :

١ - روح الاعتداء والتوحش لدى الأعراب دعاة الإسلام ونصراؤه .. ؟!

٢ - تفوق السلاح الذى كان يحمله البدو المسلمون .. ؟!

٣ - الحقد النفسى لدى العرب على الممالك والشعوب المتحضرة .. ؟!

٤ - الانحلال الخُلُقى والاجتماعى لدى الشعوب التى قبلت الإسلام .. ؟!

٥ - الانفجار السكانى فى شبه الجزيرة العربية موطن الإسلام الأول .. ؟!

٦ - كفاءة التنظيمات العسكرية التى وضعتها الخلافة الإسلامية ..

٧ - روح البطولة وصفات القيادة النادرة لدى قادة الجيوش الإسلاميين ..

* *

وإذا أنعمتَ النظر فى هذه الأسباب السبعة اتضح لك أن الأسباب الخمسة الأولى أجنبية عن الإسلام استفاد منها الإسلام - حسب زعمهم - عن طريق الصدفة والاتفاق ، ويمكن تحققها فى أية جماعة غير جماعة المسلمين .

أما السببان الأخيران (السادس و السابع) فصلة الإسلام بهما واهية ؛ لأنهما عاملان بَشريان يمكن اتصاف العرب بهما بعيداً عن الإسلام إذا توفرت الظروف. بل إن أحدهما قد وصفوا به الأعراب باعتبارهم - فى نظر المستشرقين - دعاة الإسلام ونصراءه ، فلم يبق إذن إلا كفاءة التنظيمات العسكرية ، ولم يكن وقوعها لدى العرب قبل الإسلام مستحيلاً - لا واقعاً ولا عقلاً - لو كانوا قد فكروا فيها ..

والذى يريد أن يصل إليه المستشرقون من هذا كله هو أن تلك الانتصارات الرائعة التى أحرزها الإسلام قديماً لم تكن لمزايا ذاتية فى الإسلام جذبت الناس والشعوب إليه جذباً ، وإنما سببها عوامل خارجية لا صلة لها بالإسلام نفسه ، هى التى رصدوها وتقدَّم لنا ذكرها . وبذلك يجرد المستشرقون - بكل بساطة وسذاجة - الإسلام من أخص خصائصه ، ويظهرونه فى شكل قوة فرُضت نفسها على الواقع بعوامل مستعارة من خارجها .. ؟!

وما ذهبوا إليه أشبه ما يكون ببالونة منفوخة بهواء فاسد ، يكفى فى تفريغها أن تثقبها بطرف دبوس فإذا بها جفاء . وتصوراتهم التى تخيلوها لا شئ منها صحيح اللّهم إلا السببان الأخيران ولنا أمامها وقفة ترد الحق إلى نصابه وإليك البيان :

* جهل هؤلاء المستشرقون أو تجاهلوا بُعْد الفرق بين العرب والأعراب . فدعاة الإسلام ونصراؤه هم العرب سكان الحواضر ، وليس الأعراب سكان البوادى ، والأعراب ظلوا فى جفوة من الإسلام إلا قليلاً منهم ، وفى غزوة تبوك انتحلوا كل الأعذار للتخلف عن القتال . وقد سجل القرآن جفوتهم من الإسلام فقال : ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِه ﴾ (١) ، وفى سورة الحجرات موقف مماثل للقرآن من جفوة الأعراب ، فليسَ الأعراب هم نصراء الإسلام ، وكفى بذلك جهلاً لدى المستشرقين .

---

(١) التوبة : ٩٧

* ومن المضحك قولهم : إن سلاح المسلمين أياً كانوا - عرباً أو أعراباً - أكثر تفوقاً من أسلحة الفُرس والروم - مثلاً - إذ لم يُعهد أن المسلمين الأوائل خاضوا معركة بغير السيوف والرماح والسهام . ودولتا الفُرس والروم كانتا متفوقتين فى الحضارة المادية على العرب الذين صاروا مسلمين من بعد .

* أما الانفجار السكانى .. فهذه بدعة حديثة أراد المستشرقون أن يستعملوها قبل وقوعها بأكثر من عشرة قرون . وإنَّا لنسألهم على أى أساس علمى بنوا هذا الادعاء ؟ هل قاموا بإحصاء للعرب قبل الإسلام وبعد الإسلا. ووقفوا على معدل زيادة هائل بين السكان ؟ قطعاً لا . فمن أين لهم هذا القول إذن ؟ وهل جهل المستشرقون أم تجاهلوا اتساع رقعة شبه الجزيرة العربية ، وهى إلى الآن لم تتعرض لانفجار سكانى يحمل أهلها على الانتجاع فى شرق الأرض وغربها .

* أما دعوى الحقد النفسى على الممالك والشعوب المجاورة فإنها مجرد خيال رومانسى ملأ به المستشرقون فراغاً فى بعض جوانب اللعبة .

* والانحلال الخُلُقى والاجتماعى لدى الشعوب التى قبلت الإسلام لم يُضعف القوة العسكرية للروم أو للفُرس أو للقوط فى أسبانيا . فالإسلام لم ينتصر على « ضعفاء » كما يدَّعى المستشرقون ، بل انتصر على « أقوياء » كانوا أكثر عدداً وأوفر عتاداً رضى المستشرقون أم كرهوا .

أما السببان السادس والسابع .. فنحن نقر بهما ، وفى نفس الوقت نعزوهما إلى الإسلام نفسه ، فهو الذى وحَّد العرب بعد تفرق ، وألَّف بينهم بعد بغضاء ، وقوَّاهم بعد ضعف ، وعلَّمهم بعد جهل .

وهو الذى وهبهم البطولة والإقدام ، وزهَّدهم فى الدنيا ورغَّبهم فى الآخرة، فكان الموت عندهم فى سبيل اللّه أحب من الحياة . الإسلام صاغ العرب صياغة جديدة أسفرت عن قيام أمة تملك من أسباب القيادة الراشدة ما لم يُعرف لأمة قبلها ولا بعدها . فطهرت الأرض من أوضار الشرك ، وحررت الأمم والشعوب

من أيدى جلاَّديها ونخَّاسيها ، ووجهت الإنسان إلى عبادة ربه ، وأبعدت من طريقه دجل الرهبان والأحبار والكهان ، والتسلط الروحى الخادع .

الإسلام هو الطارئ الوحيد الذى صاغ من أتباعه - عرباً وغير عرب - خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ورسالاته ورسله .

إننا لا ننكر العوامل البَشرية فى انتصارات الإسلام ، ولكنها لم تكن هى العوامل الوحيدة فى تحقيق النصر . فالنصر من عند الله ، والله ينصر مَن ينصره : ﴿ وكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] ، و ﴿ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِند اللَّه ﴾ [2] .

وهلاَّ سأل المستشرقين أنفسهم لماذا لم ينتصر العرب قبل الإسلام ما دامت الأسباب التى أحرزت النصر للإسلام كانت موجودة فيهم من قبل الإسلام ؟!

ثم أين البحث العلمى الموضوعى الذى يدَّعى المستشرقون أنه منهجهم الوحيد فى الكتابة عن الإسلام ؟! أجل : ﴿ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أكْبَرُ ﴾ [3] .

* * *

(١) الروم : ٤٧ (٢) آل عمران : ١٢٦ (٣) آل عمران : ١١٨

فتح مكة مصالحة سرية .. وليس عملاً دينياً .. ؟!

ثلاثة أحداث مبكرة فى تاريخ الإسلام كان لكل منها أثر عظيم فى خط سير الدعوة : الهجرة إلى المدينة أعقبها قيام الدولة الإسلامية لأول مرة فى التاريخ .

وصلح الحديبية أعقبه نشاط إعلامى هائل لخدمة الدعوة ، رسائل من صاحب الدعوة داخل وخارج شبه الجزيرة ، يدعو فيها الناس إلى الحق المبين . ووفود من كل مكان إلى المدينة ولقاءات بصاحب الدعوة .

وفتح مكة أعقبه انطلاق الدعوة من كل قيد فدخل الناس فى دين الله أفواجاً، وانتشرت رسل الدعوة كالنجوم فى مشارق الأرض ومغاربها ، تبلّغ الناس ما أُنزل إليهم من ربهم ، وتبددت سُحب الجهل والظلام التى خيَّمت على الكون أحقاباً من الدهر . ثم تغيَّر مجرى التاريخ - وإلى الأبد - ليهلك من هلك عن بيِّنة ، ويحيا من حيى عن بينة . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [1] .

هذه الأحداث العظمى الثلاثة لغط حولها المستشرقون كثيراً ، فالهجرة إلى المدينة هروب ، وصلح الحديبية تنازلات ، وفتح مكة مصالحة سرية سويت فيها كل الخلافات بين صاحب الدعوة والمشركين . ثم ارتدى - أى الفتح - ثياب الدين خداعاً وتمويهاً .. ؟!

* *

● تصورات من نسج الخيال :

كان لغطهم حول مكة وفتحها العظيم كثيراً ، وأسهم خيالهم فى نسج تصورات أجدر بها أن تكون فصلاً من « اللامعقول » ، ونوجز فيما يأتى بعضاً من تصوراتهم أو حماقاتهم المضحكة .

---

(١) فصلت : ٤٦

* إن فتح مكة بدأ الاتفاق عليه والتخطيط له فى الحديبية أو فى أى مكان وزمان آخرين ؟!

* إن من ضمن شروط الاتفاق – غير المعلنة – أن يكف النبى عن التعرض لأوضاع المشركين بمكة قولاً أو عملاً . ولذلك خلت السور القرآنية بالمدينة من الحديث عن أهل مكة أو أصنامهم ، عكس ما كان يحدث بمكة قبل الهجرة ؟!

* كما تم الاتفاق بين النبى – سراً – وبين أبى سفيان (رئيس جمهورية مكة) ؟! – على أن يدخل أهل مكة فى الإسلام يصلون ويصومون ويؤدون الزكاة – تصالحاً لا اقتناعاً – وفى مقابل هذا يترك النبى مكة عاصمة دينية للعرب كما كانت قبل الإسلام .

* وأن يجعل النبى لأهل مكة نصيباً من إدارة شئون المملكة الروحية وأن تكون لهم حرية التنقل للتجارة وأن يفعلوا ما يشاءون فى حياتهم .. ؟!

* أن يعلن النبى العفو العام عن أهل مكة عقب دخولها عام الفتح .. ؟!

* أن يعود النبى بعد الفتح إلى المدينة ولا يقيم بمكة .. ؟!

* *

هكذا جرَّد المستشرقون والمبشرون الفتح الخالد العظيم من كل قيمه الدينية وجعلوه – حسبما صوَّر لهم خيالهم ، وأملى عليهم حقدهم – مجرد اتفاق سرى جرت وقائعه بالحديبية أو فى مكان آخر ، وفى وقت لاحق .. ؟!

كما جعلوا دخول الناس فى الإسلام أفواجاً بعد الفتح مجرد تكتيك مصلحى وليس رغبة فى الإسلام ، وأن مَن دخل فى الإسلام من غير أهل مكة بعد الفتح دخله تقرباً لأهل السُلطة الحاكمة وليس اقتناعاً بالإسلام بعد أن ظهرت معجزاته واندحرت دولة الباطل أمامه .. ؟!

نقول .. ولا نمل القول : إن هذه التصورات ليست إلا وليدة الخيال ، وليس هذا مجرد دعوى منا ؛ لأن أحدهم – وهو « بندلى جوزى » – قال فى مقدمة ذكره لهذه التصورات : « ويخيَّل لى .. » ثم راح يسرد ما أملاه عليه الشيطان على الوجه الذى ذكرناه .

وكل ما قالوه كذب وافتراء : فأهل مكة فوجئوا بالزحف الإسلامى عام الفتح وسُقط فى أيديهم فما دروا ماذا يفعلون ؟!

* وحين دخلت مواكب الفتح مكة بدأ النبى ﷺ بدخول المسجد الحرام وتحطيم ما كان فيه من أصنام . وهى أعز ما كانت قريش تركن إليه تمسكاً بدين الآباء والأجداد .

* والعفو العام الذى أعلنه صلى الله عليه وسلم كان سببه استسلام قريش وترك مقاومة الفاتحين فلم يبق للمسلمين مبرر فى نشوب قتال ما دام النصر قد تحقق بدونه .

ولأن مكة بلد حرام لم يحلها الله لأحد قبل النبى ﷺ ولا يحلها لأحد من بعده وإنما أحلها له ساعة من نهار ثم عادت حرمتها إلى يوم القيامة .

* وقريش دخلت الإسلام اقتناعاً لما ظهر لهم زيف باطلهم وانتصار الحق عليه، حتى إن بعض نسائهم كن يقلن لأصنامهن فى البيوت وهن يحطمنها : لقد غُررنا بك حيناً من الدهر .

* ولم يترك النبى ﷺ أهل مكة يفعلون ما يشاءون ، بل أمرهم بطاعة الله ورسوله وامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه . فلا عبادة أصنام ولا ربا ولا خمور ولا تعال بالآباء والأجداد ، ولا عودة إلى حياة الجاهلية .

* وعودة النبى ﷺ إلى المدينة لم يكن سببها تنفيذاً لبند اتفاق سرى - كما يدَّعى الموتورون من المستشرقين والمبشرين - وإنما كانت له أسباب :

فأولاً : الوفاء بشرط كان قد قطعه النبى ﷺ على نفسه للأنصار عند مبايعتهم له قبل الهجرة : أنه إذا انتصر وأظهره الله لا يرجع إلى قومه بمكة ويترك المدينة . والنبى ﷺ أشد الناس وفاءً بالعهود .

وثانياً : كان الروم يستعدون لغزو المدينة عاصمة الدولة الشابة فكيف يطيل الرسول ﷺ المقام بمكة - وقد تحقق الفتح - والدولة معرَّضة للخطر من أطرافها الشمالية ؟!

وثالثاً : كان السبب المباشر لخروج النبى ﷺ من مكة بعد الفتح - وبعد تسعة عشرة يوماً قضاها بمكة - هو القضاء على ما تبقى من حصون الشرك ، فكانت غزوة حنين ثم حصار الطائف .

ورابعاً : إن أهل مكة أسهموا معه فى غزو حنين والطائف بألفى فارس ، وهذا دليل قوى على دخولهم فى الإسلام رغبة واقتناعاً .

هذا هو الحق وليس بعد الحق إلا الضلال ، ولو كان فتح مكة ليس عملاً دينياً بل اتفاق سرى وتنازلات أرضية اتقاءً لشر قريش ، لو كان الأمر كذلك لما بقى أمره سراً حتى يكتشفه المستشرقون وفى مقدمتهم « بندلى جوزى » صاحب الحقد الدفين والخيال الشيطانى السقيم .

* * *

مكاتبات الرسول للملوك والرؤساء
يعتريها بعض التزوير .. ؟!

مكاتبات الرسول ﷺ للملوك والرؤساء والأمراء فى عصر الرسالة تمثل جانباً ذا خطر فى خط سير الدعوة . فقد بدأت بدعوة أفراد كان النبى ذا صلة بهم كأبى بكر رضى الله عنه ، وهم السابقون الأولون إلى الإسلام . ثم انتقلت الدعوة إلى عشيرته الأقربين ، ثم إلى جميع الناس فى مكة . ثم انتقلت إلى القرى المحيطة بمكة ، وكان النبى ﷺ ينتقل بنفسه – وحيداً – إلى تلك القبائل خارج مكة ، ثم أخذت الدعوة مجالاً جديداً بلقاء النبى لنفر من أهل يثرب قدموا لمكة فى مواسم الحج ، وتبع ذلك التمهيد للهجرة العظمى إلى يثرب ، وبعد أن استقر النبى والمهاجرون بالمدينة . وأعز الله الإسلام بدخول الأنصار فيه وتكوَّنت دولة الإسلام لأول مرة فى التاريخ ، وبعد أن عقد النبى مع أهل مكة صلح الحديبية ووضعت الحرب أوزارها بمقتضى الصلح بين الفريقين ، أخذ النبى يرسل مبعوثين من لدنه إلى ملوك الشعوب ورؤسائها ، وامتدت تلك البعوث إلى خارج شبه الجزيرة وكتب الرسول كتباً إلى زعماء الشعوب خارج شبه الجزيرة ، وحمل كل كتاب مبعوث خاص منه عليه السلام . وكان ممن كتب إليه الرسول ملك الفُرس ، وملك الروم ، وعظيم القبط بمصر « المقوقس » .

* *

● موقف أعداء الإسلام :

ومما تقدَّم نعلم أن مكاتبة الرسول ﷺ للملوك والرؤساء جانب مهم فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام . ولكن أعداء الإسلام من القساوسة المبشرين العرب ، مثل « أنيس المقدسى » وبعض المستشرقين يقفون موقفاً مريباً من هذه الكتب . وهذا الموقف كما زكره « أنيس المقدسى » فى كتابه « تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى » يتمثل فى صورتين :

الصورة الأولى : يقرون فيها بصحة الكتب التى وجهت إلى أمراء بعض العشائر .

والصورة الثانية : يتشككون ويشككون فى صحتها ، ويزعمون أنها مزورة ؟! والواقع أن هذه محاولة ماكرة منهم لطمس هذا الجانب من تاريخ الدعوة سواء ما أقروا بصحته . وما تشككوا فيه ووصموه بالتزوير ؟! لأن ما أقروا بصحته من جانب هدموه من جانب آخر ، فزعموا أن الكتب التى صحَّت نسبتها إلى النبى لم تكن تحمل طابع الدعوة إلى الإسلام ، بل كانت عبارة عن عقد محالفات بين النبى وبين مَن كتب إليهم مع إقرارهم على الكفر الذى هم عليه ؟!

والذى أقروا بصحته منها هو ما كان خاصاً برؤساء القبائل والإمارات الصغيرة داخل شبه الجزيرة وعلى أطرافها .

أما الذى تشككوا وشككوا فيه ، فهو ما كان خاصاً بالفُرس والروم . وبنوا شكهم ، أو قل وهمهم ، على شبهات لا تثبت أمام النظر ، ولا أمام الواقع فى خط سير الدعوة .

* *

● سبب التشكك والتشكيك :

يقول « أنيس المقدسى » ناقلاً لكلام المستشرقين وسعيداً به كل السعادة : « ليس فى أيدينا منها وثائق ترجع إلى ذلك العصر ، ولا ذكر لنا الذين رووها أنهم نقلوها عن وثائقها الأصلية فكيف إذن نعتمدها .. إنه لا بد لنا من مجاراة النقاد المحدَّثين فى الشك فى بعض هذه الكتب استناداً على مبادئ التجريح التاريخى ، ومن موجبات الشك عندهم - يعنى المستشرقين - التردد فى قبول كل ما فيه أثر لدعاية دينية - أى رفض كل كتاب يدعو فيه النبى إلى الإسلام - أو قومية ما لم يقم دليل صحيح على ثبوته . كالذى ورد على أنه بعث به إلى ملك الروم أو ملك الفُرس فإنهم يستبعدون أن يكون العرب - يقصد المسلمين - قد بلغوا من البسطة والمناعة وهم لا يزالون محصورين فى الجزيرة ،

ما يحملهم على مخاطبة كبار الملوك يومئذ » ؟! هذا كلامه ، وخلاصته أن المسلمين كانوا فى حالة ضعف فكيف يجرءون على مخاطبة ملكى الفُرس والروم .

ومؤدى هذا كله أن يقول القس « أنيس » : إن كتب الرسول إلى الفُرس والروم ومصر التى كانت تابعة للروم كتب مزوَّرة ؟!

* *

● **نقض هذه المزاعم :**

نحن لا ننتظر من القس « أنيس » أن يقول كلمة واحدة فى إنصاف حقائق الإسلام ، وكذلك لا نقبل منه التهجم عليه ومحاولة الكذب لطمس بعض حقائقه الناصعة ، فدعواه أن بعض كتب رسول الله إلى الملوك مزوَّرة دعوى هى نفسها الزور بعينه .. فهذه الكتب مروية فى أصح المصادر الإسلامية كالبخارى ومسلم. وأهل مكة أدرى بشعابها - كما يقول المثل - وإذا كان « أنيس » وأمثاله لا يفرِّقون بين البخارى ومسلم وبين كتاب ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة. فإنهم محجوجون قطعاً بما يُعرف بالنقوش التاريخية . والكتب التى ينازع فيها « أنيس » لها أصول منقوشة موجودة بدور الوثائق فى القاهرة وغيرها ، ومن تلك النقوش نقش خاص بكتاب المقوقس عظيم القبط بمصر ، وكتاب النجاشى . وقد اكتشف العلاَّمة حميد الله نقوشات أخرى لكتب أخرى ، وناقش اعتراضات بعض المستشرقين حولها نقاشاً موضوعياً رد فيه - بأسلوب علمى ناصع - كل الشبهات التى أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع الخطير. وتلك النقوش تحمل صورة لخاتم النبى الذى كان يختم به تلك الكتب . ونحن - المسلمين - لسنا فى حاجة إلى وجود تلك النقوش إذ يكفينا ورود نصوص الكتب فى مصادرها الإسلامية المعتمدة ، ولا نحمل « أنيساً » ولا غيره على الإيمان قسراً بها . وإنما أردنا بذكر النقوش أن نبيِّن للقارئ المسلم أن « أنيساً » وسادته المستشرقين هم المزوِّرين الختَّالين .

* *

● الخوف من الفُرس والروم :

أما أن النبى والمسلمين لم يكونوا ليجرأوا على مخاطبة الفُرس والروم ، لأنهم كانوا ضعفاء فهذا وهم مردود على قائله . فالتاريخ الذى كتبت فيه رسائل الفُرس والروم من لدن صاحب الدعوة ، والتاريخ الذى تم فيه غزو القدس والروم عسكرياً وسقوط دولتيهما فى الأبد إلى أيدى المسلمين تاريخان متقاربان ، فلو كان ضعف المسلمين يمنعهم من تحرير رسائل للفُرس والروم فى أخريات حياة النبى لمنعهم ذلك الضعف من غزوهم عسكرياً فى عقر دورهم ، وقد بدأ ذلك الغزو فى حياة النبى ﷺ ثم تم فى عهد الخليفتين الأولين أبى بكر وعمر . فالفترة بين تحرير الكتب والرسائل وبين الصدام المسلح لا تسمح بالقول بأن المسلمين كانوا ضعفاء ، ثم انتقلوا فى فترة وجيزة من ضعف مخز إلى قوة خارقة ؟

وهل فى إمكان « أنيس » وسادته المستشرقين أن ينكروا فتح المسلمين لفارس والروم والإمارات التى كانت تابعة لهما ؟ ليس ذلك بممكن أبداً . وهنا نسأل هذا السؤال :

أيهما أصعب وأشق : إرسال كتاب إلى ملك متوَّج يدعوه إلى عبادة الله ، أم الأصعب الأشق أن يرى ذلك الملك المتوَّج جيوشاً تقف على باب مملكته وتستعد لقتاله وقتال جنده إذا هو لم يستجب لدعوة الحق ؟

هذا هو الأساس الصحيح والمعيار السليم الذى تُدرس على ضوئه أحداث التاريخ .

إن الخوف من المخلوقين لم يعرف طريقاً إلى قلب صاحب الدعوة ، فقد واجه وحده باطل المشركين فى مكة من قبل ، ولم يعرف طريقاً إلى قلوب أتباعه فاقتحموا القلاع والحصون فى كل مكان . ودكوا عرشى الفُرس والروم ورفعوا كلمة الحق مكاناً علياً « الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ، الله أكبر . أشهد أنْ لا إله إلاَّ الله ، أشهد أنْ لا إلٰه إلاَّ الله . أشهد أنَّ محمداً رسول الله ، أشهد أنَّ محمداً رسول الله » .

* * *

مثالية الإسلام .. ومشكلة صلاحيته للتطبيق .. ؟!

المستشرقون الذين تخصصوا فى الكتابة عن الإسلام بُغية الإساءة إليه والطعن، يتحركون تحت غطاء واحد ، ثم يسيرون نحو الهدف المنشود فى اتجاهين . فالغطاء الواحد الذى يسيرون تحته هو ادعاء أنهم باحثون مجرَّدون عن الهوى . أما الاتجاهان فإن فريقاً منهم يصوِّر مشاعره وتصوراته بشكل مكشوف. وفريق يتلطف ويحتال . فيصف الفرع الذى يكتب عنه أو يصف الإسلام كله وصفاً حسناً ، ثم سرعان ما يعكس الوضع ويجعل الحسن قبحاً . وهذا سلوك خبيث ماكر يعتمد على التمويه ، ولكنه عند المستشرق الذى ينحو هذا المنحى وسيلة للإقناع وللتوصل إلى الهدم من طريق مأمون . ومن هؤلاء المستشرق « نويل كالسون » فى دراساته التى وضعها حول : القانون الإسلامى أو الشريعة الإسلامية . إنه شديد الحرص على أن يمهد لتصوراته المعادية للشريعة الإسلامية بتمهيد يسوِّغ إعلانها أو قبولها لدى قصار النظر من المسلمين .

*　　*

● مقصود « كالسون » :

يريد « كالسون » أن يقول من أول الأمر ، وبصوت عال : إن الإسلام غير صالح للتطبيق فى هذه العصور ؟!

ولكنه لم يعلن عن تصوره هذا هكذا طفرة وبلا مقدمات . بل غلَّف هذا السم برقائق لذيذة المذاق من الحلوى الطيبة الرائحة . فهو يقرر أولاً بأن الشريعة الإسلامية بلغت حد الكمال فى مصدرها الأول - يعنى القرآن الكريم - وهذا كلام طيب ومقبول .

ثم يعود فيصف الشريعة الإسلامية بأنها شريعة « مثالية » وهذا - كذلك - كلام يمكن قبوله وتقديره .

ويقول : « إن ارتباط الشريعة الإسلامية بالقرآن ، وقد انقطع الوحى بوفاة الرسول (ﷺ) جعل الشريعة الإسلامية ثابتة غير قابلة للتغيير .

وهذا أيضاً كلام طيب وصحيح من البروفسور « كالسون » .

وبعد هذه « التطبيبات » المعسولة يتوصل « كالسون » إلى مقصوده وقد توهم أن أذهان المسلمين وعقولهم قد تهيأت لابتلاع « الطُعم المسموم » فيتخذ من الثبات وسيلة لوصفها بالجمود والتحجر ؟! كما يتخذ من وصف الشريعة بـ « المثالية » وسيلة أخرى لوصفها بالبُعد عن مشكلات الحياة التى تطوَّرت بعد نزول القرآن وانقطاع الوحى . أى أن أحكام الشريعة الإسلامية مثل الرومانسية فى تصوراتها الحالمة وإيغالها فى التخيل ، فهى شريعة ليست عملية لأنها تحلق فى آفاق بعيدة عن الواقع ، ومن الصعب أو المستحيل صلاحيتها للتطبيق الآن ؟! فهى كانت مناسبة جداً للعصر الذى ولدت فيه ، أما الآن فلا . وعلى المسلمين - الآن - حسب تصورات « كالسون » أن يبحثوا عن بدائل واقعية تملأ ذلك الفراغ الهائل بين الواقع وبين شريعة الإسلام .. ؟!

والبديل الذى يدعو إليه « كالسون » وظيفته - كما قال : « فض المنازعات بعيداً عن المفاهيم المثالية الدقيقة للشريعة الإسلامية ولو أدى ذلك إلى وقوع انحراف عن تلك المفاهيم الشرعية » ؟!

و « كالسون » وغيره من المستشرقين يؤيدون هذا الوهم الذى صوَّره عن الشريعة الإسلامية بالسلبيات التى تعج بها كثير من النظم الإسلامية فى حياتنا المعاصرة والتى تتمثل فى ترك العمل بأحكام الشريعية وإحلال القوانين الوضعية محلها . وهذا الواقع المؤلم كان السبب فيه هو الاستعمار ، ولكن السادة المستشرقين يتجاهلون ذلك تماماً ويتخذون من هذا الواقع الذى فُرِض على المسلمين دليلاً على أن النظم السياسية التى أخذت بالقوانين الوضعية قد لمست ما فى أحكام الشريعة من قصور وعدم ملاءمة للواقع ولجأت للعمل بالقوانين الوضعية مستوردة كانت أو محلية ؟!

والمؤسف حقاً أن كثيراً من المفكرين والقانونيين فى البلاد الإسلامية والعربية قد تحمسوا لهذا الوباء والمسخ ، وفاقوا أساتذتهم المستشرقين فى الدعوة إليه والإشادة به ؟!

* *

● مرفوض جملة وتفصيلاً :

هذا الكلام الذى أورده « كالسون » - وفينا سمّاعون له - وأعانه عليه قوم آخرون من بنى جلدته ، وَهُمّ مرفوض جملة وتفصيلاً . ومثالية الشريعة الإسلامية لا تعنى بُعدها عن الواقع المؤدى لعدم صلاحيتها للتطبيق ، وإنما مثالية الإسلام كامنة فى أنه - دائماً - يدعو للتى هى أقوم فى الاعتقاد والقول والعمل والسلوك . إنها لم تطلب من الناس أن يكونوا ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ، ولا يخرجون من المساجد ليل نهار ، وإنما أتاح لهم فرصة التمتع بكل حلال طيب ، والترفع عن كل حرام خبيث . لم يقض على إنسانية الإنسان وإنما تسامى بتلك الإنسانية ، وهذّبها ليعيش الإنسان إنساناً جسداً وروحاً وقلباً : لا أن يكون إنسانى الجسد حيوانى السلوك . و «كالسون» ومَن شايعه وهم يرسلون القول على عواهنه لم يذكروا لنا أمراً واحداً أو نهياً واحداً ، أو توجيهاً واحداً من شريعة الإسلام ليبينوا لنا لماذا لا يصلح للتطبيق . وإنما وصفوا الشريعة - جملة - بأنها حالمة رومانسية بعيدة عن الواقع .

وهلاّ ذكروا ما هو الواقع التى عجزت الشريعة عن مواجهته ؟ فالشريعة - مثلاً - فى مجال التسامى بالغريزة الجنسية شرعت الزواج العفيف الطاهر .

وفى مجال الكسب حرّمت أكل أموال الناس بالباطل .

وفى مجال التربية جعلت للأولاد - ذكوراً وإناثاً - حقوقاً على والديهم حتى يبلغوا راشدين ويؤسسوا أسراً .

فهل الواقع يا ترى أن تترك الشريعة الحبل على الغارب فى العلاقات الجنسية كما هو فى غرب « كالسون » ورفاقه ؟ هل الواقع أن تصبح نسبة المواليد غير الشرعيين فى بعض البلاد الأوروبية أكثر من ٥٠٪ ؟!

هل الواقع أن يلغى الإسلام نظام الزواج ويحل محله بدعة الارتباط غير المشروع على أن يعيش المترابطان تحت سقف واحد وينجبا البنين والبنات على مرأى ومسمع من مجتمعهم وحكوماتهم ولا رادع ولا زاجر ؟! كما يحدث الآن فى البلاد الإسكندناڤية وغيرها .

هل الواقع أن تفقد الفتيات الصغيرات فى دور التعليم بكارتهن بنسبة تفوق الـ ٥٠٪ - كذلك - كما يجرى فى أوروبا مسقط رءوس المستشرقين ؟!

هل الواقع أن تصبح جريمة الفحشاء أياً كان طرفاها سلوكاً مشروعاً تماماً كما يدخل الإنسان دورات المياه لقضاء حاجته ؟!

أما أن الشعوب الإسلامية تركت العمل بأحكام الشريعة طواعية لعدم صلاحيتها للتطبيق فهذا كذب محض . إنما الاستعمار هو الذى قهر إرادة الشعوب الإسلامية فألغى العمل بشريعتها . حدث هذا فى كل بلد إسلامى مستعمر ، حدث فى الهند وفى مصر ، وفى المغرب وتونس ، والعراق والشام والباكستان وألبانيا وتركيا . واليوم تتطلع جميع الشعوب الإسلامية لعودة الإسلام إليها ، وبعض البلاد الإسلامية التى كفاها الله وباء الاستعمار لم تتخل عن العمل بالشريعة . وما لمست - ولن تلمس - فيها رومانسية حالمة غريبة عن الواقع .

* * *

عالمية الإسلام .. فكرة طارئة على صاحب الدعوة .. ؟!

محاولات المستشرقين للنيل من الإسلام سببها معروف وغاياتها معروفة وهى فى جملتها وتفصيلاتها لم تقم على فكر علمى مقبول ، وليس لها من واقع الإسلام أى سند ، وطول معاشرتنا لكتابات المستشرقين المعادين للإسلام ، أظهر لنا حقيقة ينبغى التنبه إليها . تلك الحقيقة تقول بلسان فصيح إن مصدر الاتهامات التى يلصقها المستشرقون بالإسلام هو الخيال الجانح الجامح . هذا دأبهم وديدنهم . فما رأينا واحداً منهم - على كثرتهم - أصاب فى اتهام واحد ألصقه بالإسلام ، على عكس المعتدلين منهم فإنهم يصيبون - دائماً - إذا أثنوا على الإسلام عامة ، أو على حقيقة من حقائقه . ونضع بين يدى القارئ ثلاث تهم مما قالوه ليرى مدى الدور الذى يلعبه الخيال الجانح الجامح فى تصورات هؤلاء الحاقدين ؟!

* واحد منهم يسمى « تولستوف » ينكر وجود النبى ﷺ إنكاراًمطلقاً ويقول : إنه أسطورة خرافية ولم توجد شخصية حقيقية باسم رسول اسمه محمد ؟!

* و « تولستوف » - هذا - يقول مرة أخرى : إن الإسلام نفسه ليس مصدره الوحى الإلهى ، بل هو فكرة نشأت عن أسطورة - كذلك - ظهرت فى عصر الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة ؟!

إلى هذا الحد من التخريف وصلت تصورات هؤلاء الموتورين . ومحال أن تصدر هذه التصورات عن رجل فيه مسكة من عقل ، أو بقية من إدراك يميز بها بين ما يمكن أن يقال وما يجب أن يوأد ؟ ولكن اليأس والحقد المتقد هو الذى جعل هذا الرجل يهذى هذيان المخمور أو المحموم .

ومما ينسف تصوراته هذه ويدل على أن هذا الرجل - « تولستوف » - كان مذهوب العقل ، مسلوب الإدراك فعلاً لا مبالغة ، أن كلامه هذا يناقض بعضه

بعضاً درى أم لم يدر . تأمل مقولته هذه : « الإسلام نفسه نشأ عن أسطورة ظهرت فى فترة الخلافة .. » ؟!

ومعلوم أن الخلافة يتعلق وجودها بوجود صاحب الرسالة . فالخلفاء سموا كذلك « خلفاء » لأنهم خلفوه فى الزمن فجاءوا بعده ، وخلفوه فى العمل بالإسلام . فكيف تكون خلافة بدون مخلوف . و « تولستوف » أقر بالخلافة فيلزمه الإقرار بالمخلوف ؟ فأين العقل الذى أمد هذا « المجنون » بهذا التصور المضحك .

إن مثل « تولستوف » - هنا - مثل رجل يشير إلى إنسان ويقول : هذا ابن فلان ، وفى نفس الوقت يقول : وأبوه شخصية أسطورية لم توجد لها حقيقة فى الواقع .. أهذا يصدر عن عاقل يا عباد الله ؟!

وهكذا يفقد بعض المستشرقين عقولهم وهم يصفون الإسلام بما ليس فيه لعلهم يشفون غيظ قلوبهم من كراهية الحق .

* أما التهمة الثالثة - ونريد أن نقف أمامها أطول - فإنهم - أو كثيراً منهم - يقولون : إن محمداً (ﷺ) مجرد مصلح عادى عبقرى . لم يتلق رسالة من الله وإنما أراد أن يصلح شأن المجتمع الذى نشأ فيه ، وينصف الفقراء والمساكين فدعوته كانت نوعاً من الاشتراكيات التى تهدف إلى توزيع الثروة توزيعاً عادلاً لذلك تراه قد فرض ضريبة - يعنون الزكاة - على الأغنياء ووزعها على الفقراء مواساة لهم . ثم اخترع فكرة النبوة ليدعم مركزه ، وقد ساعدته الظروف فحقق نجاحات هائلة ، ولم يكن يفكر فى أول الأمر فى أن يكون لدعوته الاشتراكية وجهوده الإصلاحية مجال خارج مجتمعه المحدود -مكة- ولكن نجاحاته قد أملت عليه فكرة التوسع فى مجال الدعوة داخل شبه الجزيرة . ثم انتهى إلى فكرة عالمية الإسلام وامتداد الدعوة إلى خارج شبه الجزيرة كما حدث فى عصره وعصر الخلفاء من بعده ؟!

ويسوّل لهم الشيطان ما يزيدهم به ضلالاً ، فيستدلون على عدم عالمية الإسلام بهذا الزعم فيقولون :

إن محمداً (ﷺ) عربى الجنس ، وعربى اللغة ، والقرآن عربى اللغة ، والعالم موزع على لغات غير العربية كثيرة ومختلفة . فهل من المعقول أن يكون محمد ﷺ رسولاً لجميع أمم وشعوب العالم وهو لا يعرف - ولا قومه - إلا لغة واحدة هى العربية ؟

وحين وصلوا ، أو أوصلهم الشيطان ، إلى هذا القول اعتقدوا أنهم أفلحوا فى « تحجيم الإسلام » ووضعوا فى طريق عالمية الإسلام عقبات وسدوداً لا يمكن اختراقها أو إزالتها ، ويعقب على هذه التصورات فريق منهم فيقول : إن محمداً (عليه السلام) إن كان رسولاً حقاً فهو رسول إلى العرب وحدهم ، لا يتعداهم إلى غيرهم من الأمم والشعوب ؟!

* *

● نقض هذه التصورات :

إن عالمية الإسلام بدهية لا ينكرها عاقل أو منصف . عالمية تعم المكان والزمان والأجناس والإنس والجن والملائكة ، هذا من حيث الشكل . أما من حيث الموضوع فقد جاء الإسلام بكلمة الله الأخيرة فى الكون . وبمنهج عام كامل كفيل باحتواء البشرية جميعاً ، وتوجيهها إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة ، وكفيل بقيادة الإنسانية جمعاء ، وحلول مشكلاتها وهدايتها إلى الحق والصواب فى كل صغيرة وكبيرة : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَىْءٍ ﴾ [1] ، فليس فى الإسلام تشريع خاص بالعرب . وإنما تشريعاته صالحة لكل « العالمين » ، ورسوله مرسل رحمة « للعالمين » .. فهل العرب وحدهم هم « العالمون » وغيرهم هوام .

---

(١) الأنعام : ٣٨

والرسول كان يتلقى خطة الدعوة من قيوم السموات والأرض ، وهى خطة حكيمة رائعة تدرج فيها الإسلام فى معارج الصعود حتى بلغ الذروة . محمد ﷺ كان رسولاً موحى إليه وليس مصلحاً أرضياً ولا اشتراكياً ، ولا منتهزاً لفرص يتطور معها توسعاً وامتداداً . فهذه أوهام كأوهام المخمور أو المحموم الذى لا يدرى ما يقول .

* *

● وحدة الجنس واللغة :

ما تقدم من تصورات إنما هى نفثة مصدور أطلقها أصحابها فى غير وعى. أما ما أثاروه من وحدة اللغة والجنس ليسلبوا عن الإسلام عالميته التى أنزله الله عليها ، فقد يرى فيها بعض المتعجلين نوعاً من الوجاهة ، ولكنها فى الواقع وجاهة أشبه ما تكون بالسراب يخادع الحواس وهو لا وجود له .

وردنا عليها من شقين :

الأول : إن الذين احتجوا بهذا القول على عالمية الإسلام قسيسون نصارى . وقد نسوا أو تناسوا ما قالوه من قبل عن « عالمية » رسالة عيسى – عليه السلام – فهل كان عيسى عليه السلام يجيد لغات العالم كله ؟ وهل نزل عليه الإنجيل بلغات العالم كله . فلماذا إذن يحظرون على الإسلام ما جزموا به بالنسبة لرسالة عيسى . وكفى بذلك تهافتاً وسقوطاً .

الثانى : إن عالمية الإسلام لم يحل بينها وبين الأمم والشعوب كون الرسول ولغته والقرآن ولغته عربياً . وهذا واقع ملموس لا يُنكر فالمسلمون الآن من غير العرب أضعاف أضعاف المسلمين العرب فهل فى ذلك من شك ؟ وفى عهد الرسول كان من أصحابه مَن يجيد غير العربية ، وما أرسل رسول الله رسولاً بكتاب إلى ملك أو زعيم شعب إلا بمن يجيد لغة المرسَل إليه . فعلام هذه المكابرة يا ترى ؟

* * *

للمستشرقين مداخل شتّى فى عدائهم للإسلام وإلصاق التهم . فأحياناً يقفون أمام أصل من أصوله ، وأحياناً أمام فرع من فروعه ، وأحياناً يقفون أمام الإسلام كله . وهم فى كل مدخل من هذه المداخل يدفعهم دافع واحد ، هو الكيد لهذا الدين العملاق ، ومحاولة إقصائه عن الحياة أو وقف زحفه وتأثيره على النفوس والعقول ، وما رأينا المستشرقين ولا أساتذتهم المبشرين وقفوا أمام نِحلة من النحَل ، أو مذهب من المذاهب أو دين من الأديان ، مثلما وقفوا أمام الإسلاَم ، وهذا لن يخيفنا ولن يزهدنا فى ديننا ، بل على العكس هو حافز لنا على زيادة التمسك بالإسلاَم والسرور به ؛ لأن الإسلام لو كان ضعيفاً أو فيه شئ من الباطل لما حرَّك لهذا الجيش العرمرم من المبشرين والمستشرقين والملحدين ساكناً ، ولما سكّن لهم متحركاً . فالخصم الضعيف لا يسر صديقاً ، ولا يقلق عدواً .

* *

● **التهمة الجزاف :**

ونحن - هنا - أمام تهمة عامة ، ساقها المستشرقون جزافاً وألصقوها بالإسلام . وخلاصتها أن الإسلام نفسه هو سبب تأخر المسلمين وتخلفهم ، هكذا بجرة قلم واحدة وضعوا الإسلام كله فى قفص الاتهام . وقد استغلوا الضعف المزرى الذى يخيِّم على واقع المسلمين الآن . إن تأخر العالَم الإسلامى ، وضعفه فى كل مجالات الحياة المعاصرة حقيقة لا ينازع فيها منصف . هى ظاهرة عامة فيهم ، وكل ظاهرة هى فى حاجة إلى تفسير ، وفى مقدمة تفسيرها هو البحث عن أسبابها كما هى فى الواقع ، لا كما يملى الهوى والخيال .

استغل المستشرقون هذا الواقع المؤسف الذى نعيش فيه عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وأخلاقياً واجتماعياً وعلمياً . استغلوا هذا الواقع ثم اختاروا فى

تفسيره ما قد علمت : إن الإسلام نفسه هو السبب فى صنع هذا الواقع المؤلم ، الإسلام – عندهم – هو السبب ولا شئ غير الإسلام ؟!

* *

• التفسير الصحيح :

تنكب السادة المستشرقون سواء الصراط فى تفسيرهم لظاهرة تخلف العالم الإسلامى المعاصر . فهم يجزمون بأن الإسلام نفسه هو السبب . ولو أنصف هؤلاء المستشرقون وكانوا أمناء مع أنفسهم ومع الواقع لقالوا عكس ما قالوه : إن سبب تأخر المسلمين المعاصرين هو تركهم العمل بالإسلام ، وبُعدهم عنه وطلبهم العزة والتقدم فى سواه من النظم المستعارة ، هذا هو التفسير الصحيح لتخلف مسلمى العصر . والدليل على خطأ المستشرقين فيما ذهبوا إليه من عدة وجوه ، منها :

١ – أن الإسلام لو كان هو السبب لصاحب التأخر المسلمين فى كل العصور والواقع غير هذا . فطوائف كثيرة من المستشرقين – غير هؤلاء الحاقدين – يعترفون بعظمة الإسلام ، وأنه منهج حياة ومدنية لا مثيل له فى جميع النظم العابرة والمعاصرة .

٢ – ومنها أن المسلمين الأوائل حين كانت صلتهم بالإسلام وثيقة ، وعملوا بكل توجيهاته وإرشاداته ، وأخلصوا التوجه إلى الله حازوا قصب السبق فى كل الميادين ، وصاروا رواداً للبشرية فى شرق الأرض وغربها ، ولا ينكر منصف فضل الحضارة الإسلامية على العالم أجمع ، وبخاصة أوروبا ، فقد نهلت وعبُت من حضارة الإسلام فى الأندلس ، والعراق ، والشام ، وبين أيدينا صيغة خطاب من الملك چورج ملك بلاد الغال بعث به إلى هشام أمير المؤمنين فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وكان قد سمع بالنهضة العلمية والازدهار الحضارى للمسلمين ، ورجا فى هذا الخطاب أن يسمح له هشام بقبول بعثة علمية من بنات فرنسا ، وكان من بينهن أميرات

متوَّجات يتلقين العلم فى معاهد الأندلس على أيدى أساتذة عرب مسلمين ، ثم ختم خطابه قائلاً لهشام : خادمك « چورج » ؟!

و « كريستوفر كولومبس » مكتشف الأمريكتين يعترف بأن الذى هداه لهذا الكشف قراءته فى كتب الفيلسوف العربى المسلم ابن رشد .

وللدكتور « غريسيب » مدير جامعة برلين ورئيس فرع الطب بها شهادة رائعة من هذا النوع . فقد خطب فى الطلاَّب المسلمين المبعوثين إلى ألمانيا بمناسبة احتفال لهم بالمولد النبوى ، فكان مما قال :

« أيها الطلاَّب المسلمون .. الآن قد انعكس الأمر ، فنحن الأوربيين يجب أن نؤدى ما علينا نحوكم . فما هذه العلوم إلا امتداداً لعلوم آبائكم وشرحاً لمعارفهم ونظرياتهم . فلا تنسوا أيها الطلاَّب تاريخكم ، وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر . فما دام كتابكم المقدس - يعنى القرآن - عنوان نهضتكم ، ما يزال موجوداً بينكم ، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم . فارجعوا إلى الماضى لتؤسسوا المستقبل . ففى قرآنكم علم وثقافة ، ونور ومعرفة . وسلام عليكم يا طلاَّبنا اليوم ، وإن كنا نحن طلابكم بالأمس » .

اللّه أكبر ، اللّه أكبر . هذا هو الإسلام . سلاح ماض إذا حمله مَن هو عالم باستعماله ، ماهر فى استخدامه كان النصر حليفه وهكذا كان شأن المسلمين قديماً . كانوا هم الإسلام ، فصنعوا حضارة هى تاج فى رأس التاريخ .

وحين ترك المسلمون الإسلام ، واقتنعوا بالقشور ، وتركوا الأصول واللُّب ضاعوا وانتكسوا ، وشمَّتوا فيهم عدوهم . فالإسلام برئ من أوضاع المسلمين الحاضرة .

الإسلام فى كتاب اللّه العزيز ، وحديث رسوله الكريم ما ترك خيراً إلا ورغَّب فيه ، وحثَّ على طلبه ، ولا شراً إلا حذَّر منه ونهى عن اقترافه . ولم يطلب من المسلم فى اليوم والليلة إلا خمس صلوات لا تستغرق فى جملتها وتفصيلها أكثر من ساعة طهارة وأداء ، ثم أفسح له المجال فى العمل بعد إعطاء جسمه

قسطاً مناسباً من الراحة . وحثٌ على العمل للدنيا بكل ما أوتى الإنسان من قدرات وطاقات شريطة أن يكون العمل مشروعاً يحقق النفع للأفراد والجماعات. وقد رأى النبى ﷺ رجلاً تشققت يده من العمل ، وتضرّس جلد كفه ، فأخذ النبى يد الرجل وقبّلها ثم قال : « هذه يد يحبها اللّه ورسوله » ؟! إلى هذه الدرجة من العناية يقدّر الإسلام العمل الطيب ، أما إذا كان المستشرقون يأخذون على الإسلام الإيمان بالقضاء والقَدَر ، وأن هذا الإيمان يغرى بالتواكل والكسل.. فهذا كذلك مرفوض ؛ إذ لم يرد الإسلام ذلك ، وإنما ثمرة هذا الإيمان أن يحفظ توازن النفس فلا تجزع إن خاب لها أمل ، ولا تبالغ فى الفرح إن تحقق لها كسب مرغوب . ومَن يفهم من المسلمين أن القضاء والقَدَر وسيلة للاسترخاء والكسل فهو مخطئ . وقد دخل عمر بن الخطاب يوماً المسجد فرأى جماعة فيه فى غير وقت صلاة فلما سألهم عن وجودهم فى المسجد قالوا : نحن متوكلون ، فعلاُهم بدرته وقال : أنتم متواكلون فإن السماء لا تمطر ذهباً أو فضة ؟!

ومن قبل عمر .. كان عليه الصلاة و السلام كلما دخل المسجد رأى رجلاً بعينه مقيماً فيه . فلما سأل عنه قيل له : إنه رجل عابد . قال : « فمن يعوله »؟ قالوا : أخوه . قال : « أخوه أعبد منه » .. هذا هو الإسلام .. فأين هو من اتهام المستشرقين والحاقدين ؟!

* * *

الإسلام .. والعنف فى كتابات خصومه

منذ نشأ الاستشراق والتبشير فى الغرب . لحقت بالإسلام مثلبة شنيعة هو منها برئ . فقد دأب المبشرون وتلاميذهم المستشرقون ورموز الاستعمار والإلحاد على وصف الإسلام بأنه دين العنف والتعطش لسفك الدماء ، وإزهاق الأرواح . وزادت هذه الحملة ضراوة مع قيام الصَحوة الإسلامية المعاصرة . وساند بعض بقايا الإلحاد الأحمر الذى دالت دولته أعداء الأمة فاتهموا شيوخ الصَحوة وأشبالها بالعنف والتخريب . وزهَّدوا الناس - أو بعبارة أصدق - حاولوا أن يُزهِّدوا المسلمين فى إسلامهم ؛ لا لشئ إلا لأنه دين عنيف أو بعبع مخيف ، وهذا ما تفوَّه به الدكتور فرج فودة فى ندوة معرض الكتاب المعروفة ؟!

● ولهم نقول :

ولهؤلاء جميعاً - المستشرقين ، والمبشرين ، وساسة الغرب ، وعملاء أعداء الأمة - لهؤلاء جميعاً نقول ، وبأعلى صوت : كذبتم وافتريتم وبيننا وبينكم الإسلام نفسه ، وما انبثق عنه من سلوك حفل به تاريخ الإسلام حين كان قادة المسلمين يعرفون ما هو الإسلام . فتعالوا نحتكم إلى الإسلام فى مبادئه النظرية ، ثم فى سلوكياته العملية عبر التاريخ الذى له وزن وتقدير فى نظر الإسلام نفسه .

* *

● مبادئ الإسلام النظرية :

لم يعرف الإسلام العنف قَطْ ، لا فى علاقة المسلمين بالدول غير الإسلامية ، ولا فى معاملة الأفراد غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامى ، ولا بين المسلمين بعضهم وبعض .

ففى العلاقات الدولية يقرر جمهور العلماء أن الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم هى علاقة سلام وتواد . فالكفر نفسه لم يجعله الإسلام سبباً فى قتال الكافر . بل يقرر الإسلام أن الكافر معصوم الدم والعرض والمال إلا فى حالة نشوب حرب بين المسلمين وبين قوم الكافر فيكون حلال الدم إذا كان قادراً على القتال وقاتلَ فعلاً أو أعد للقتال عُدَّته .

ومعنى أن العلاقة بين المسلمين وغيرهم « الأصل فيها السلام » : أنه يحرِّم على المسلمين - أفراداً وجماعات - أن يعتدوا على غير المسلمين ، أو ينتهكوا حرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

* *

● مشروعية القتال :

والقتال - وهو ظرف اضطرارى - تلجأ إليه الأمة فى حالات أشار إليها القرآن الحكيم فى مواضع مثل :

* ﴿ وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

* ﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ .. ﴾ (٢) .

* ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ﴾ (٣) .

إن مشروعية القتال فى الإسلام تُستمَد من سبب واقعى عادل ، هو ردُّ العدوان ودفعه . فإذا وقع عدوان على الدولة الإسلامية وجب رده بعدوان (قتال) مثله تأمل معى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ .. فالقتال المأمور به هنا له ضابطان :

---

(١) البقرة : ١٩٠ . (٢) التوبة : ١٢ (٣) الممتحنة : ٩

الأول : أن يكون فى سبيل الله . فلا يكون لهدف دنيوى رخيص .

الثانى : أن يكون ضد قوم يقاتلوننا فعلاً . فلا يكون ضد قوم لم يعتدوا علينا وإن كانوا ملحدين .

وقد يكون سبب مشروعية القتال هو مساندة عدونا علينا ، أو طردنا من ديارنا .

وكان القتال فى بدء الإسلام غير مأذون به ، وأول آية شرعت القتال نصّت على حصره فى رد العدوان : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [١] .. على أن هذا القتال المأذون به له ضوابط أخرى عند ممارسته أشار إليها القرآن إجمالاً . وفصّلها الواقع الإسلامى فيما بعد .

أما إشارة القرآن فهى : ﴿ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [٢] ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴾ [٣] .

وفى هذا نهى عن الانتقام والتشفى ومجاوزة الحد المأذون به فى القتال ، والحد المأذون به هو « المثلية » بلا زيادة ولا نقص .

وقد ترجم الواقع العملى لقادة المسلمين هذا الإجمال ، فكان من وصايا قادتهم للجيوش إذا خرجت للقتال :

* أن لا يقتلوا أو يقاتلوا : النساء ولا الأطفال ، ولا الشيوخ الفانين الطاعنين فى السن ، ولا الرهبان ولا الأحبار المعتزلين فى الصوامع والبِيَع - يعنى الكنائس ودور العبادة - للعبادة .

* أن لا يهدموا بنياناً ولا يعقروا بهيمة ، ولا يقطعوا شجرة ، أى إن قتالنا المأذون به يجب أن يكون ضد مَن قاتلنا وشهر السلاح فى وجوهنا .

---

(١) الحج : ٣٩ - ٤٠ .　　(٢) البقرة : ١٩٠ .　　(٣) البقرة : ١٩٤

وقد أخذت النظم الحربية المعاصرة - قولاً لا عملاً - هذا المبدأ الإسلامى فحرمت الاعتداء على الأهداف المدنية . بَيْدَ أنها لم تلتزم به على أرض الواقع . وهذا هو الفرق بينها وبين الإسلام الذى يقرن العمل بالمبدأ دائماً .

* *

● الوفاء بالعهود أو نقضها جهاراً :

وإذا كان بين المسلمين وغيرهم عهد أمان . ثم نما إلى علم المسلمين أن طرف العهد الآخر ينوى الخيانة والمروق ويضمر الشر للمسلمين ، ويكاد أن يعتدى عليهم . فإن الإسلام يوجه القادة المسلمين إلى إلغاء هذا العهد والتحلل من الالتزام به ، وفى هذه الحالة يلزم قادة المسلمين أن يخبروا طرف العهد الآخر بالتحلل منه وعدم الالتزام بمقتضاه وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ .. ﴾ (١) ، ويحذّر القادة المسلمين من الغدر فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٢) ، ومن الملاحَظ من سياق الآية أن نقض العهد - هنا - مشروط بشرط عادل ، هو أن يبدر - على سبيل اليقين - أن مَن بيننا وبينه عهد قد أضمر لنا الخيانة ، وكاد يفاجئنا بالعدوان، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ . فتأكيد الفعل المضارع « تخافن » - بالنون الثقيلة - يفيد أن أسباب الخوف جلية واضحة ، وليست ظنوناً وأوهاماً .

هذا هو الإسلام من مبادئه وتشريعاته النظرية ، يحذّر من العنف والاعتداء حتى ضد المخالفين له فى العقيدة . فأين التعصب والعنف والتعطش لسفك الدماء وإزهاق الأرواح . إن المعاملة بالمثل مبدأ عرفه الإسلام قبل أن تعرفه القوانين الدولية الوضعية بأكثر من أربعة عشرة قرناً . فالقتال فيه لمن قاتل ، والسلام لمن سالم ، والإحسان لمن أحسن .. وكما تدين تُدان .

* *

---

(١) الأنفال : ٥٨ (٢) الأنفال : ٥٨

● الواقع العملى الإسلامى :

الواقع العملى فى الإسلام حافل بالوقائع التى آثر فيها قادة الإسلام الرفق والعفو على حز الرقاب وإسالة الدماء مع القدرة على ذلك . ونكتفى بذكر بعض النماذج خشية التطويل :

* فى عصر النبوة خلص شابان إلى رسول اللّه ﷺ ، وكانا موفدين من قبَل حاكم اليمن التابع لدولة الفُرس ، وقالا للرسول : جئنا لنأخذ رأسك كما أمَر « ربنا » - يعنى : ملك الفُرس - فصوَّب عليه السلام فيهما النظر ثم قال : « لولا أن الرُسل - يعنى السفراء - لا تُقتل لقتلتكما .. » ثم خلّى سبيلهما فعادا إلى حيث أتيا . قارن هذه الواقعة بما يحدث الآن بالنسبة لمن يُضبطون متآمرين ضد الملوك والرؤساء . وهل حدث فى غير الإسلام أن حاكماً فوجئ بمن يقف أمامه ليقتله ، فعفا عنه وخرج من عنده سالماً ؟! أم أن الدنيا تقوم ولا تقعد حتى يُعدم « المجرم » حزاً بالسيف ؟ أو رمياً بالرصاص ؟ أو شنقاً بالحبال ؟!

* وكم من مرة يجفو فيها الأعراب على صاحب الدعوة فيَهمُّ الصحابة لقتلهم فينهاهم صلى اللّه عليه وسلم عنه ، ويعفو ويصفح . والعفو والصفح من صفاته المذكورة فى الكتب المنزّلة ، ومنها التوراة قبل تحريفها .

* ووجده أعرابى نائماً تحت ظل شجرة ، ملقياً سيفه ، فأخذه وشهره فى وجهه - بعد أن أيقظه - وقال : مَن يمنعك منى يا محمد ؟ فقال عليه السلام : « اللّه » . فزعر الرجل وسقط السيف من يده ، فأخذه عليه السلام وشهره وقال : « مَن يمنعك منى » ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ . فعفا عنه صلى اللّه عليه وسلم .

* وأبو سفيان - والمستشرقون يطلقون عليه : « رئيس جمهورية مكة » - قدم المدينة قبيل فتح مكة على إثر أزمة حادة حدثت بين مشركى مكة ، وبين المسلمين ، بسبب نقضهم لشروط صلح الحديبية . قدم أبو سفيان هذا فى محاولة لإصلاح ما أفسده هو وقومه ، وقضى أياماً فى المدينة لم يعتد عليه

أحد ، وكان من الممكن قتله قصاصاً . ثم خرج إلى مكة بعد فشل مهمته ناجياً بنفسه ، محقوناً دمه ، ولم يتعرّض أحد له من المسلمين بسوء .

* المرأة اليهودية حين دسّت السم لصاحب الدعوة فى الطعام ، وفُضِحَ أمرها . وطار الخبر فى كل مكان . أما كانت تلك المرأة تستحق أن ينتقم منها المسلمون ؟ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . ولو كان الإسلام يقدّم العنف على الرفق لقتل الشابان المتقدم ذكرهما ، ولقتل كل من كان يجفو على صاحب الدعوة من الأعراب الذين وصفهم القرآن بأنهم : ﴿ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾ (١) ، ولقتل الرجل الذى هدد صاحب الدعوة بالقتل وهو وحيد تحت ظل الشجرة ، ولقتل أبو سفيان لخيانته العهد ، ولقتلت اليهودية التى حاولت قتل صاحب الدعوة بالسم ولما عثر لها على أثر . وغير ذلك من الوقائع كثير .

وكيف يكون الإسلام عنيفاً متعطشاً للدماء والأمر الإلهى فى قوله تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ (٢) يحفظه كل مسلم ويتلوه فى كتاب الله العزيز صباح مساء .

* *

● تجاوزات بعض شباب الصحوة :

ويتمسك الذين يصفون الإسلام بالعنف بالأخطاء التى وقعت من بعض شباب الصحوة . ولنا على هذا ملحظان يبرئان الإسلام مما يصفونه به من أقصر طريق:

* الملحظ الأول : ليس كل عمل يصدر من مسلم معناه أن الإسلام مسئول عنه ، أو أمر به وأقره ، وإنما يكون عمل المسلم حُجَّة للإسلام إذا صدر فى إطار تشريعات الإسلام . أما الأعمال الطائشة الحمقاء فالمسئول عنها مرتكبها وليس الإسلام . هذه قاعدة مهمة يجب تذكرها فى هذا المجال .

---

(١) التوبة : ٩٧ (٢) الأعراف : ١٩٩

* الملحظ الثانى : أن ما حدث من بعض شباب الصَحوة من أخطاء تُنسب إلى العنف ليس هم وحدهم المسئولين عنها ؛ لأن ما حدث منهم كان رد فعل لما حدث لهم .

فمقتل السادات كان نتيجة لموقفه من الإسلاميين . شتمهم بلسانه ، وزجَّ بهم فى المعتقلات والسجون زرافات ووحداناً . وداخل السجون - أو فنادق وزارة الداخلية - عُذِّبوا ونُكِّل بهم وأوذوا فى أنفسهم وأسرهم .

والاعتداء على ثلاثة وزراء داخلية كان انتقاماً لأنفسهم لما حل بهم فى المعتقلات والسجون .

ومقتل رفعت المحجوب قد وقع منهم خطأ كما قالت بعض الصحف ؛ لأنهم أرادوا وزير داخلية وأراد القدر المحجوب ، والعنف دائماً يولد العنف .

ولا ننسى حملات الصحفيين والكُتَّاب حتى من غير المسلمين ، وتطاولهم على شباب الصحوة - فهم إرهابيون ، وخوارج وحمير - هكذا والله كتب أحدهم ، ولحاهم مثل لحية أبى جهل وأبى لهب .. لم يتركوا نقيصة إلا رموا بها شباب الصحوة . فولَّدوا عندهم العنف وحب الانتقام .

ولو وجد هؤلاء الشباب لدينا لساناً عفيفاً ، وصدراً حانياً ، وقلباً عطوفاً وصحافة عادلة نزيهة . ومعاملة كريمة لما ارتكبوا شيئاً مما ارتكبوه ، ولتبدل الحال من سئ إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن . ولكننا بدأناهم بالعنف فى القول والعمل فكالوا لنا بنفس المكيال .

أجل .. نحن الذين بدأناهم بالعنف . والبادئ أظلم - كما جاء فى المثل - ومستحيل أن نجنى من الشوك العنب .

* * *

... الإسلام عدو للديمقراطية .. ؟

من أشد الحملات شيوعاً وشراسة هذه الأيام ، وصف الإسلام بأنه عدو للديمقراطية . ولهذا السبب يحاولون رفض عودته فى أى بلد إسلامى . وهذه التهمة كان أول مَن أشاعها المستشرقون ، وحذا حذوهم ساسة الغرب وبعض ساسة الشرق وزعمائه ومفكريه . وعقب فوز جبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر ، والتفاف الشعب حولها ، وكادت تمسك بزمام الحكم فى البلاد ، عقب هذه الظاهرة هبَّت عاصفة هوجاء شنَّها أصحاب الأقلام الجاهلة ، وأساطين الفكر العميل ، وقالوا - فى غير حياء ولا خجل - أن الذى يجرى فى الجزائر خطر خطير على الديمقراطية ، وحرب شعواء على الحضارة ، وعود إلى عصور التخلف والاستبداد ؟!

*

● الاتهام سهل .. ولكن :

والإتهام سهل بطبعه ، ولا يكلف صاحبه إلا جعجعة باللسان ، أو شقشقة بالقلم .. أما إقامة الدليل على صحته فهى الصعب . والدعوى بدون دليل سراب خادع لا وجود له إلا فى خيال رائيه ؟ واتهام الإسلام بأنه عدو للديمقراطية أكذوبة بلقاء مثل أكذوبة الديمقراطية نفسها .

* *

● ماذا يريدون من الديمقراطية ؟

يقولون إن الديمقراطية هى « حكم الشعب للشعب » أو « حكم الشعب بالشعب » فـ « حكم » مصدر مضاف لفاعله ، وهو « الشعب الأول » ، ناصب لمفعوله وهو « الشعب الثانى » . أى أن الشعب هو الذى يحكم نفسه . والمعنى الحرفى لهذه العبارة مستحيل ، لأنه لا يمكن أن يكون الشعب كله

حاكماً لنفسه فى آن واحد ، ولذلك كان لا بد لدعاة الديمقراطية من أن يتنازلوا عن هذه الدعوى العريضة الضخمة إلى القول بأن المراد : مشاركة الشعب فى عملية الحكم ، هذا المعنى قد يكون مقبولاً نظرياً ، لكنه مدفوع عملياً ، لذلك قال بعض نقّاد الديمقراطية : « إن عملية مشاركة الشعب فى حكم نفسه لا تتعدى مرحلة وضع الأصوات فى صناديق الاقتراع ثم تنفلت منه العملية إلى أناس آخرين » .

وقد أعجبنى تشبيه لبعض مفكرينا قال فيه : « إن صلة الشعب بديمقراطية الحكم كصلة جماعة مارين فى الشارع فرأوا قائد سيارة يحاول أن يندفع بها ولكن محركاتها لم تسعفه فاستعان بالجماعة فدفعوا السيارة إلى الأمام وهو جالس فنشطت محركاتها فانطلق بها صاحبها حيث يريد ، وانقطعت صلتهم بالسيارة وأصبح أمرها فى يد قائدها يصرِّفها كيف يشاء دون احتياج إلى الذين دفعوها فى بداية المشوار » ؟!

تشبيه صائب من كل الوجوه . فالشعوب فى النظم الديمقراطية تختار الرؤساء كما تختار النواب فى المجالس التشريعية ، وكلٌ بعد ذلك يغنى على ليلاه . لذلك يرى بعض النقّاد السياسيين أن الديمقراطية أكذوبة أحيطت بهالة من الدعاية جعلت منها إلهاً يُعبد من آلهة الأرض ..

* *

● مساوئ الديمقراطية :

وإذا تجاوزنا المآخذ النظرية التى رُصدت عن الديمقراطية ، ووقفنا أمام الجانب العملى منها وجدنا للديمقراطية مساوئ وعيوباً فى مجال التطبيق تنوء بحملها الجبال ، وبخاصة فى نظم الشرق العربى الإسلامى .

فهذه النظم تؤمن بالديمقراطية إذا وضعت الديمقراطية أثقالها فى كفة ميزان النظام الحاكم ، وتكفر بالديمقراطية إذا وضعت أثقالها فى كفة ميزان قوة أخرى معارضة للنظام . والأمثلة على ذلك كثيرة :

* فمن حيث الإجمال كم من دولة ديمقراطية تعرضت لأزمات حادة فما كان من النظام الحاكم إلا المبادرة لحل البرلمان وتعطيل الدستور ووقف صدور الصحف للمرور بفترة أمان للنظام الحاكم حتى يسترد أنفاسه ، ويرتب أوراقه ليمثل اللعبة من جديد ؟

* وكم من مرة تُزَوَّر فيها الانتخابات لصالح النظام وحزبه الحاكم ؟

* وكم من مرة فى انتخابات الرياسة العليا يُرشَّح فرد واحد لهذا المنصب الخطير ، وهو الشخص « اللى عليه العين بتلالى » - كما تقول الأغنية العاطفية المعروفة . ثم تأتى النتيجة ٩٩٪ أو أكثر . وخوض معركة الرياسة العليا بدون منافسين خطر وخطأ حتى على النظام الديمقراطى نفسه ، فضلاً عن المصلحة العامة . وترشيح شخص واحد معناه أننا نقول للشعب : كُلِ السم أو تمت ؟!

ومن حيث التفصيل نذكر واقعتين :

١ - الرئيس السادات وهو يستعد للتصالح مع إسرائيل ماذا فعل بمجلس الشعب المصرى الذى كان يطمع الرئيس فى موافقته ، فقلب له المجلس رأس المجن - كما يقول المثل العربى القديم - وظهرت فى المجلس ألسنة أشحة حداد بما طلب الرئيس وعارضوا مشروعه . فماذا فعل الرئيس السادات .. وباسم الديمقراطية ؟

سارع إلى فض الجلسة . وقبل أن يصل الأعضاء « المشاغبون » - فى نظره - إلى منازلهم كان الرئيس قد أصدر قراره « المؤدِّب » بحل مجلس الشعب ؛ لأن الدستور « الديمقراطى » يعطيه الحق فى ذلك إعمالاً للمادة (٧٤) من الدستور المصون والذى يضع فى حسابه إنقاذ الرئيس الأعلى من الأزمات الحادة . ثم جئ بمجلس جديد خالٍ من المشاغبين ؟!

ألم يقع هذا فى دولة ديمقراطية كان الرئيس يسميها دولة « المؤسسات » ؟!

أهذا حق أم كان ضحكاً على الذقون ؟!

٢ - وأقرب مثل إلى الأذهان ما وقع فى الجزائر باسم الديمقراطية سلباً وإيجاباً ، فباسم الديمقراطية أتيح لجبهة الإنقاذ الإسلامية أن تنال أصوات الشعب بنسبة أذهلت العالم ، وباسم الديمقراطية وئدت تلك التجربة وديست بالأقدام حين اشرأب رأس الديمقراطية وحمل الإسلاميين فوقه ، سارع النظام بحز رأس الديمقراطية ؟!

فأين الديمقراطية الحقة إذن ؟

لو كان للديمقراطية وجود لمرت التجربة فى الجزائر حتى النهاية . فهل هى هذه الديمقراطية التى تباكى عليها « الرفاق الحمر » فى مصر ؟

لو كانوا - حقاً - دعاة للديمقراطية لثاروا على إلغاء الجولة الأولى من الانتخابات فى الجزائر . أم الديمقراطية التى تباكوا عليها ... ثوب مفصَّل بالقد يرتديه النظام الحاكم فى أى بلد ؟!

إذا كانت هذه هى الديمقراطية فلا كانت ولا كان المتباكون عليها حمر أو سود أم بيض .

* ومن مساوئ الديمقراطية العربية - المعمول بها الآن - أنها تقوم على تقديس الحاكم ونظامه ومعاونية .. الأعلى فالأعلى . يكاد الحكام فى الديمقراطية العربية أن يكونوا « قديسين » معصومين من الخطأ قولاً وعملاً . إنها ديمقراطية نفاق وتزلف وخداع .

والدليل على ذلك أن الرئيس الأعلى - أى رئيس - يظل مبجلاً ومثالاً أعلى فى الحياة ، تُذبح على أعتابه نوق النفاق وقرابينه صباح مساء ، فإذا ولَّى (أى مات) فهناك فترة حداد تُذبح فيها عبارات الرثاء باكية حزينة . ثم ينعكس الوضع فإذا بمادحيه هم قادحوه . وترصع المقالات فى رصد أخطائه ؟ أهذه أخلاق حميدة أم رقص على أنغام الزمن المتغير ؟؟ .

إن حكامنا فى أمسِّ الحاجة إلى الإخلاص والصراحة . نبارك صوابهم ، ونقوِّم خطأهم ويكون الباعث لنا فى الحالتين هو الحق وحده ، لا مجاملة رخيصة ولا كره بغيض .

ولحكامنا - إذا أرادوا - قدوة حسنة فى عمر بن الخطاب . فقد تعوَّد رجل كلما جلس فى مجلس فيه عمر أن يقترب منه ويوهمه بأنه ينتزع « غبارة » من شعر رأسه . وفطن عمر إلى أن الرجل ينافقه . فعزم على وضع حد لهذا النفاق، ولما كرر الرجل ما كان يفعل من قبل قال له عمر : ماذا تفعل ؟ قال : ألقيت من على رأسك حشرة غريبة . فقال له عمر : إذا فعلتَ شيئاً من ذلك مرة فأرنى ما تلقيه من على رأسى قبل أن تطرحه بعيداً . وبذلك قطع عمر على الرجل سُبُل النفاق ولم يعد يفعل ما كان يفعله من قبل .

حكامنا فى حاجة إلى تنقية حاشياتهم ومجالسهم ومخاطباتهم من النفاق ومن المنافقين معاً .

وكان أبو بكر الصدِّيق يقدِّم مَن أبصره بعيوبه على مَن اقتصر على سرد مزاياه، وبهذا - وغيره - أفلح عمر كما أفلح من قبل أبو بكر .

* *

● هل الإسلام عدو حقاً للديمقراطية :

الجواب : نعم .. ولا .

فهو عدو لديمقراطية النفاق والديمقراطية التى تزن وتكيل بميزانين وكيلين ، وبخاصة الديمقراطية السائدة الآن فى النظم العربية .

ولا .. فلا عداوة بين الإسلام وبين الديمقراطية التى تنشد الحق والصواب، ولا شئ غير الحق والصواب .

وكيف يكون الإسلام عدواً للديمقراطية ، وهو الذى أرسى قواعدها ووضع أصولها قولاً وعملاً ، ثم علمها الناس ، وعنه أخذ الغرب أحسن ما فيه من أصول النظام الديمقراطى ، رضى المتباكون على الديمقراطية أم كرهوا ، فلا رضاهم نافع ، ولا كرههم ضار .

* *

● الشعب أو الأمة مصدر السلطات :

هذا هو الأساس الذى يقوم عليه النظام الديمقراطى فى الفقه الدولى المعاصر ، وما عداه مستمَد منه ، ومرتكز عليه . ولكى نعرف هل الإسلام عدو للديمقراطية أم صديق فتعال معى نستقرئ بعض حقائق الإسلام المتصلة بنظام الحكم .

*

● فى حياة النبى :

من أهم الأركان فى النظم الديمقراطية مبدأ الشورى . وهى الوسيلة المباشرة لإشراك الشعب فى عملية الحكم . هذا المبدأ طُبِّق كثيراً وبإخلاص فى حياة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم . ومن ذلك :

* إستشارته أصحابه قبيل غزوة بدر فى قتال قريش لما علم بأنها أعدت العُدَّة لغزو المسلمين . وقد أيد ثلاثة من كبار المهاجرين الخروج لقتال قريش وهم : أبو بكر الصدِّيق ، وعمر بن الخطاب ، والمقداد بن عمرو . ومع رضا النبى ﷺ بما قاله هؤلاء الثلاثة فإنه كرر قوله : « أشيروا علىَّ أيها الناس » ، وكان يريد بهذا أن يستطلع رأى الأنصار أهل المدينة بعد أن عرف رأى المهاجرين ممثلاً فى ما قاله الثلاثة الكبار - أبو بكر ، وعمر ، والمقداد - وفطن لهذا زعيم الأنصار سعد بن معاذ . فقال : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ ثم استطرد فأعلن إجماع الأنصار - أوساً وخزرجاً - على إنفاذ رغبة رسول الله ، وقال كلاماً قرَّت به عين النبى ﷺ فقرر بناء على ما سمعه الخروج لمحاربة قريش .

* وفى الغزوة نفسها استجاب عليه السلام لرأى الحباب بن المنذر بتغيير الموضع التى أمر النبى ﷺ بأن يعسكر المسلمون فيه لملاقاة عدوهم . والحباب كان من الخبراء العسكريين الذين يحذقون أمر الحروب والاستعداد لها . فلما أبدى وجهة نظره رأى النبى ﷺ أنها أصوب . فأمر الجيش بالتحرك نحو المكان الذى أشار به الحباب .

* وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ووقع فى قبضة المسلمين سبعون أسيراً من رجالات قريش استشار النبى ﷺ أصحابه فى كيفية التصرف فى الأسرى ، ولم يكن لديهم حكم قاطع من الله فى التصرف فيهم . فرأى أبو بكر أن تؤخذ منهم الفدية ويطلق سراحهم عسى أن يثوبوا إلى رشدهم .

ورأى عمر بن الخطاب قتل الأسرى ، على أن يقتل كل رجل من المهاجرين قريبه من أسرى قريش ، ليرى الله أن إيثار الإيمان به على إيثار وشائج القربى هو الذى حمل المسلمين على قتل الأسرى .

بَيْدَ أن صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - أدى به اجتهاده إلى موافقة أبى بكر لما فيه من رحمة ولطف .

* فى غزوة الخندق - بعد إجماع المسلمين على مواجهة قريش وأحلافها - استشار النبى ﷺ أصحابه : شيوخاً وشباباً على : هل يبقى المسلمون فى المدينة ويقاتلون كل داخل فيها ؟ أم يخرجون لقتالهم خارج المدينة . واختلف الرأى وكانت الأغلبية - وبخاصة الشباب - تفضل الخروج على البقاء فى المدينة . وبهذا الرأى عمل صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم .

أليست هذه صور حية لمشاركة الأمة فى شئون الحكم . وما الذى تفعله أرقى النظم الديمقراطية - الآن - أكثر من هذا ؟

* *

• وقائع السقيفة :

وبعد وفاة صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - تعرَّضت الأمة حينذاك لأعقد مشكلة واجهتها عقيب الوفاة مباشرة : مَن الذى يتولى أمر المسلمين بعد صاحب الدعوة ؟

اجتمع الناس فى سقيفة بنى ساعدة ، وجسد النبى الطاهر مُسجَىً لم يُدفن بعد . وظهرت فى الاجتماع ثلاث نظريات :

إحداها : ترى الولاية تكون فى الأنصار أهل المدينة .

وأخرى : ترى أنها تكون فى المهاجرين .

وثالثة : ذهبت إلى تنصيب خليفتين أو أميرين .. واحد من المهاجرين ، واخر من الأنصار .

ثم بعد تداول الرأى ضاق الخلاف وانحصر فى ترشيح واحد من ثلاثة من المهاجرين : أبو بكر - عمر بن الخطاب - أبو عبيدة بن الجراح .

وبعد جولة أخرى من تبادل الآراء انعدم الخلاف وأجمعت الأمة على مبايعة أبى بكر خليفة لصاحب الدعوة .

الديمقراطية المعاصرة تقول : إن الأمة تختار قادتها عن طريق الإرادة الحرة . وما حدث فى سقيفة بنى ساعدة كان أساساً لما تأخذ به النظم الديمقراطية المعاصرة . فأبو بكر رضى الله عنه لم يتول المنصب القيادى العام إلا باختيار الأمة ، وعن طريق إرادتها الحرة النابعة من سريرة كل فرد فيها .

* *

● أبو بكر يؤكد عملياً :

وما إن تمت المبايعة لأبى بكر حتى خطب فى الأمة خطبة قصيره ، ولكنها حافلة بالمعانى السامية . أكد فيها أول خليفة راشد عملياً أن الأمة هى مصدر السلطات . وكان مما جاء فى تلك الخطبة : « أيها الناس .. إنى وُليتُ عليكم ولست بخيركم .. »

وهنا يقرر أبو بكر رضى الله عنه مساواته بالرعية وأنه لا يفضل أحداً منهم بكونه رئيس الدولة . فالفضل له معايير أخرى . وليس تولى المناصب العليا واحداً منها .

وبذلك استبعد الخليفة الأول ما كان يراه الناس من قداسة لحكامهم ، مثل ما كان معروفاً لأكاسرة الفرس وقياصرة الروم والبابوات ، وأقر ما أقرَّه الإسلام

من مساواة الحاكم والمحكومين ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .

ومن المعانى التى أرساها الخليفة الأول - رضى الله عنه - وقوف الحاكم بكل ثقله ضد الظالم حتى يكف عن ظلمه ، ووقوفه مع المظلوم حتى يدفع الظلم عنه لذلك قال : « واعلموا أن الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، وأن القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه » .

* *

● عزل الحاكم :

ومما أقره أبو بكر رضى الله عنه أن الحاكم إذا لم يؤد ما عليه ، وخالف الله ورسوله وجب نصحه : « فإن رأيتم فىَّ خيراً فأعينونى . وإن رأيتم فىَّ شراً فقوّمونى - أو سددونى » .

فإذا لم يستجب الحاكم للنصح وكان خطأه جسيماً وجب عزله : « أطيعونى ما أطعتُ الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم » ، ومعنى « لا طاعة لى عليكم » هو العزل .

لذلك استخلص الفقهاء المسلمون أن « الإمام » مجرَّد وكيل عن الأمة فى حماية الدين وسياسة الدنيا . وأن العقد الذى يتم بالبيعة عقد حقيقى بين الراعى والرعية - وليس وهمياً كما ذهب « چان جاك روسو » - وأن هذا العقد غير ملزم للأمة إلا فى حالة استقامة حكامها . فإذا انحرفوا عزلتهم الأمة وولت من هو خير منهم .

فما الجديد فى الديمقراطية المعاصرة الذى لم يسبق الإسلام إليه حتى يقال إن الإسلام عدو للديمقراطية

* *

● الالتزام بالشورى :

استقراء تاريخ الخلفاء الراشدين ، وهو المعوّل عليه فى مسألة نظام الحكم . استقراء تاريخهم - رضى الله عنهم - يضع أمامنا حقيقة جليلة الشأن وهى التزامهم بمبدأ الشورى فى الأمور المهمة . ما تخلّف منهم أحد فى هذا المجال :

* فأبو بكر التزم به طول حياته فى الحكم - كما فى مسألة قتال مانعى الزكاة - وكان لأبى بكر مجلس شورى من كبار الصحابة رضى الله عنهم .

* وعمر التزم به على امتداد وجوده فى الحكم .

* وكذلك عثمان بن عفان رضى الله عنه مع شدة الفتن والاضطرابات التى منى بها الشطر الثانى من خلافته .

* وعلىّ رضى الله عنه التزمه - مع تفاقم الشرور والفتن الدامية - طول خلافته . وسيأتى لهذا شئ من التفصيل فى مبحث « المعارضة » . والذى نقوله الآن : إن مبدأ الشورى - وهو خطوط العرض والطول فى النظام الديمقراطى - كان هو الأداة الفعّالة فى ممارسة الأمة ومشاركتها فى عملية الحكم . ولم يحدث أن استبد خليفة واحد من الخلفاء الراشدين بإنفاذ أمر هو فى حاجة إلى التشاور فيه .

وهذا كان منهم تنفيذاً لأمر الله : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ [1] ، ومدحه لفريق من عباده : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [2] ، ولأن بالتشاور تورى أزندة العقول ، وينكشف الحق عن الباطل .

وفى الحديث : « لا خاب مَن استخار ، ولا ندم مَن استشار » .

* *

(١) آل عمران ١٥٩ (٢) الشورى : ٣٨

● المعارضة :

وقد يظن ظان أن فى نظم الديمقراطية المعاصرة ما لم يعرفه نظام الحكم فى الإسلام وهو مبدأ « المعارضة » أو « أحزاب المعارضة » وهى من أبرز ضمانات سلامة الحكم الديمقراطى الحديث .

*

● ظن مرفوض :

وهذا ظن مرفوض . فمبدأ المعارضة فى الإسلام قديم قِدَم الإسلام نفسه ، وقد وقع شئ منه فى حياة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم . ومنه ما تقدمت الإشارة إليه فى الإعداد لغزوة بدر حيث اعترض الحباب بن المنذر على اختيار الموقع الذى نزل به المسلمون بناء على رأى صاحب الدعوة ، وقد أشرنا من قبل إلى أن صاحب الدعوة - عليه الصلاة والسلام - نزل عن رأيه وأخذ برأى الحباب لما ظهر له صوابه .

* ومنها اعتراض عمر على دخول الرجال بيوت صاحب الدعوة ونساؤه بغير حجاب . وقد نزل القرآن فيما بعد بآيات الحجاب .

* ومنها اعتراض رجل بلغ حد الاتهام لصاحب الدعوة نفسه - صلى الله عليه وسلم - فى مسألة تقسيم الغنائم قائلاً له : « اعدل يا رسول الله » ؟ أو « هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ... » فقال عليه السلام للرجل : « ويلك .. مَنْ يعدل إذا لم أعدل » ؟

وهَمَّ بعض الصحابة بقتل هذا الرجل الفظ الغليظ ، لولا أن نهاه صاحب الدعوة - عليه الصلاة والسلام - وتحمل فظاظة هذا القائل بصدر رحب .

* ومنها اعتراض الصحابة على أبى بكر فى مسألة قتال مانعى الزكاة . وظلوا يتحاورون حولها مع خصومهم فترة ، وفى النهاية ظهر لهم وجه الصواب فيما ذهب إليه أبو بكر فما وسعهم إلا أن يكونوا جنوداً مخلصين فى المعركة .

* ومنها اعتراض كثير من الصحابة على عمر بعد فتح العراق وغَنْم المسلمين أرض السواد . فأراد عمر أن تكون الأرض وقفاً على المسلمين جميعاً مَن اشترك منهم فى القتال ومَن لم يشترك ، حتى الأجيال القادمة . عارضه كثير من الصحابة فى هذا الرأى وطالبوه بتقسيم الأرض بين الذين اشتركوا فى القتال فعلاً وظلوا يتبادلون الرأى ثلاثة أيام متواليات . ثم أجمعوا على الرأى الذى رآه عمر .

* ومنها لما كثرت الشائعات حول عثمان رضى الله عنه فى النصف الثانى من مدة خلافته حضر إلى المدينة ثلاثة وفود من مصر والبصرة والكوفة وواجهوا عثمان بما يشاع عنه فجلس لهم عثمان فيما يشبه المؤتمر الصحفى الآن واستمع إليهم ورد بما يقنعهم عن ستة وعشرين اتهاماً . فانصرفوا عنه راضين بما قال لولا أن أعداء الأمة قد دبروا فتنة انطلت على بعض الحمقى منهم فعادوا إلى المدينة وحاصروا منزل عثمان رضى الله عنه حتى قُتل شهيداً وهو يقرأ كتاب الله العزيز .

فالمعارضة - إذن - كانت ظل الحكم منذ ظهور الإسلام . والفرق بين المعارضة فى نظام الحكم الإسلامى وبين المعارضة فى الدولة الديمقراطية الحديثة أن المعارضة فى الإسلام لم يكن لها أحزاب أو أشخاص محدودون . بل كانت من حق كل ذى رأى . والرجل الواحد منهم كان يعارض مرة ، ويوافق أخرى حسبما يؤدى إليه النظر عنده من صواب أو خطأ حول المسألة المطروحة ، فالمعارضة والموافقة كانت تدور مع المصلحة حيثما دارت . وكون المعارضة الآن لها كتل وأحزاب وظيفتها السياسية أن تقول « لا » فى الغالب . فهذا إجراء شكلى لا يؤثر فى موضوع أو مشروعية المعارضة أساساً . فلا حُجَّة إذن لمن يقول إن نظام الحكم فى الإسلام لا يعرف المعارضة .

* *

● فى خيال قائليها :

ونرى فريقاً من الناس يشوِّش على نظام الحكم فى الإسلام بما جرى فى عهد الخلفاء من طرائق مختلفة فى اختيار الخليفة .

* فأبو بكر اختير عن طريق المبايعة العامة .

* وعمر اختير عن طريق العهد أو التعيين من قِبَل أبى بكر .

* وعثمان اختير من وسط ستة رشَّحهم عمر قبل موته .

ويعترضون على عهد أبى بكر لعمر بالخلافة ، ويرون فيه انتهاكاً لحق الأمة فى اختيار مَن يتولى أمرها .

وجهل هؤلاء أن أبا بكر فى مرض موته أجرى مشاورات عدة من جانبه مع كبار الصحابه . انتهىَ منها إلى أنه ولَّى على الأمة خير مَن يعلم من أصحاب رسول الله ﷺ .

وفاتهم أى رأى أبى بكر لم يكن ملزماً للأمة ، وأن الأمة لو علمت أصلح من عمر لهذه المهمة لما مكَّنت عمر من الأمر ، ولجاءت بمن تراه أصلح منه وألقت فى يديه مقاليد الأمور . فالأمة لم تكن غائبة عند ما تولى عمر أمرها . بل تولى برضاها بعد عهد أبى بكر .

وقد وصف بعض علمانى مصر (فرج فودة) عهد أبى بكر لعمر بأنه «خطاب مغلق » وليسمح لنا هذا العلمانى أن نقول له : « إن المغلق هو فهمك وفهم رفاقك بقايا علوج الشيوعية ، وليس المغلق هو خطاب أبى بكر للأمة . بل كان خطابه مفتوحاً فتح الله به للأمة فى خلافة عمر أبواب النصر فى السماء والأرض » .

وعمر رضى الله عنه حين جعل أمر الخلافة فى ستة من أصحاب رسول الله ﷺ كان باعثه على هذا هو توخى الصلاح للأمة ، ولم يكن باعثه هوىً فى النفس .

بدليل أنه لم يجعل من الستة أحداً من أهل بيته أو من أقربائه . وحين عُرض عليه أن يكون ابنه عبد الله واحداً من المرشحين رفض هذا العرض قائلاً : كَفى آل الخطاب أن يتحمل واحد منهم - يريد نفسه - مسئولية المسلمين أمام الله .

وفات الذين يتحاملون على عمر أن الستة الذين رشحهم للخلافة من بعده كانت لهم مناقب عليا فى الفضل هى التى رشحتهم قبل أن يرشحهم عمر رضى الله عنهم أجمعين .

فكان منهم مَن بشَّره رسول الله ﷺ بالجنة .

وكانوا جميعاً قد مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض .

وفاتهم - كذلك - أن الأمة أقرت ما صنعه عمر ، وإلا لرفضته ولو بعد وفاة عمر . ولكنها أمضته لأنها رأت صلاحها فيه .. ونضيف إلى ما تقدَّم أمرين :

أما أحدهما : فإن عصر الخلفاء الراشدين - وبخاصة الثلاثة الأوائل - يجب أن يُنظر إلى وقائعه فى ضوء الظروف الخاصة به وفى مقدمتها كون رجاله من أصحاب رسول الله ﷺ ، وكلهم أهل فضل وكرامة وتقوى ، وكانوا يحتلون من رتب الفضل فى الإسلام ما لم يتح لأحدٍ سواهم ، حتى التابعين وتابعيهم .

وأما ثانيهما : فإن وسائل اختيار الخلفاء والأئمة ، ثم الأمراء والرؤساء من بعدهم إلى يوم القيامة هى « وسائل » فى حد ذاتها ، وليست « غايات » ولا « مقاصد » ، أما المقاصد فهى أن يسير الحكام على كتاب الله وسنة رسوله وما أجمع عليه المسلمون . هى الحكم الصالح فى حماية الدين وسياسة الدنيا . فإذا سار الحكام هذه السيرة وأعلوا كلمة الحق فلن تضرهم الوسائل التى تم بها الاختيار : بيعة عامة ، أو عهداً ، أو انتخاباً من درجتين . فى دائرة محدودة . أو انتخاباً عاماً كما يحدث الآن . فالمهم هو صلاح الحكم والحكام وليس الوسيلة الموصلة للحكم . وهذا هو ما حدث فى صدر الإسلام .

* *

● سُلطة الأمة فى الإسلام :

وينبغى أن نفرّق بين سُلطة الأمة فى نظام الحكم الإسلامى، وبين سُلطة الأمة فى الدول الديمقراطية الحديثة ..

ففى الدول الديمقراطية الحديثة تشمل سُلطة الأمة الجانبين التشريعى والإدارى، بمعنى أن تضع الأمة دستور الحكم فيها . وتختار أدوات الإدارة البشرية من رؤساء ومجالس نيابية وتشريعية .

أما فى الإسلام .. فسُلطة الأمة مقصورة على اختيار أدوات الإدارة وهم الحكّام ومعاونوهم من المجالس المشار إليها .

وسلطة الأمة على أدوات الحكم أو الإدارة البَشرية تتلخص فى الآتى :

١ - اختيار الولاة .

٢ - مراقبتهم فى أثناء العمل .

٣ - نصحهم إذا انحرفوا .

٤ - عزلهم وتولية الأصلح منهم إذا عصوا الله ورسوله وأخطأوا وكان الخطأ جسيماً ولم يستجيبوا للنصح .

أما دستور الحكم فهو شريعة الله وليس للأمة حق اختيارها أو رفضها . ولها أن تمارس من التشريعات ما ليس فيه نص ولا حكم معروف ، وأساس التشريع لما يستجد من وقائع هو كتاب الله وسُنّة رسوله . أما أن تخالف الأمة حكماً لله أو لرسوله أو قام عليه الإجماع فهذا أبعد ما يكون عن سُلطة الأمة ؛ لأن : ﴿ وما كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. ﴾ [1] .

ولأن : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [2] .

---

(١) الأحزاب : ٣٦ (٢) المائدة : ٥٠ .

فاختيار الله ورسوله ، وقضاء الله ورسوله ، ملزم للأمة لأن فيه صلاحها فى الدنيا ، وحُسن عاقبتها فى الآخرة . وبهذا يمتاز الإسلام عن النظم الوضعية الحديثة اختلاف الثريا عن الثرى . فالنظم الديمقراطية الحديثة مخلوق مشوه معلول يتنفس برئة واحدة فى أحسن أحواله . وأحياناً تصاب الرئة الثانية بعلل قاتلة .. العلّة الصحيحة هى اختيار الأدوات البَشرية ، أو هيكل الإدارة ..

أما العلة المريضة فحيث تذهب النظم الديمقراطية الحديثة إلى جَعْل منهج الحكم وأصوله وتشريعاته من سُلطة الأمة لحمةً وسدىً . وهى بذلك كأنها تقول لله - سبحانه - : ارفع يدك عن الكون فنحن قادرون على اختراع المناهج والدساتير التى نحتكم إليها .

إن كارثة الكوارث فى النظم الديمقراطية المعاصرة هى رفضها لشريعة الله . واختراعها نظماً وضعية فى التشريع . والتشريع - لخطورة مسلكه وعمق مراميه ومضايق دروبه - لا يعلم صالحه من فاسده إلاّ علام الغيوب .

ونعود فنقول للذين يتباكون على الديمقراطية ، ويخشون عليها من الإسلام ويعتبرون الإسلام عدواً للديمقراطية ، نقول لهم بأعلى صوت :

الخطأ حليفكم ..

أجل .. إن الخطأ حليفكم فى كل حال .. فإن كنتم قلتم ما قلتم وأنتم تعرفون حقيقة الإسلام فأنتم معاندون قبل أن تكونوا مخطئين .

وإن كنتم قلتم ما قلتم وأنتم جاهلون بحقيقة الإسلام فأنتم مخطئون ؛ لأن الجاهل بشئ غير صالح للحكم عليه .

إذن فالخطأ حليفكم كيف كنتم . وذلك مصير كل من يعادى الحق ، ويؤازر الباطل . وماذا بعد الحق إلا الضلال .

* * *

فى التشريع الجنائى فى الإسلام .. قسوة ووحشية .. ؟!

سهام المستشرقين المعادين للإسلام - هنا - موجهة إلى فرع خاص من الفقه الإسلامى ، وشُعبة محددة من شعابه ، وهى جرائم الحدود والقصاص ، أو ما يطلق عليه مصطلح « التشريع الجنائى » . والموضوع بطبيعته أغرى أعداء الإسلام من المبشرين والمستشرقين والعلمانيين ، وعملائهم من العرب بالانقضاض على الإسلام ؛ لأن الاتهام من جهته يسير ، ولأنه شديد التأثير على العامة وبعض الخاصة ممن لا فقه لهم بمقاصد الإسلام ، وعلل أحكامه ، وحِكَم (جمع حكمة) تشريعاته . فقد دأب هؤلاء جميعاً على وصف أحكام الشريعة فى الجنايات على النفس أو ما دون النفس ، والأموال والأعراض ، والأمن العام والخاص ، والأعراض والدين والعقل ، دأبوا على وصف الأحكام المحددة فى هذه الجرائم بأنها قاسية جداً ، ووحشية جداً . وأنه يترتب على بعضها تشويه لهيئة الإنسان؟!

* *

● دفاع عن الفساد :

والواقع أن هجوم هؤلاء الكارهين لما أنزل الله على أحكام الشريعة العادلة الرحيمة إنما هو دفاع عن الفساد فى الأرض ، وحماية للإجرام والمجرمين . والنظر فى هذه الأحكام التى قررها الإسلام بالنسبة لجرائم محددة تحديداً دقيقاً ، يقف بك على روعة التشريع الإسلامى ، وثماره اليانعة فى حماية الحرمات ، وتوفير الأمن العام والخاص وتطهير المجتمع من تفاقم الشرور ، وشيوع الفساد .

* فالاعتداء على المال بالسرقة - مع توافر شروط معيَّنة - جريمة إذا ثبتت يقيناً فالحكم العادل فيها قطع يد السارق .

* وجريمة الزنا إذا ثبتت على المتهم بها يقيناً - كذلك - يُرجم حتى الموت إذا كان مرتكبها محصناً - متزوج أو سبق له الزواج - ويجلد مائة جلدة إذا كان غير محصن .

* وجريمة القذف – وهى اتهام بالزنا من غير بينة – جريمة عقوبتها ثمانون جلدة .

* وقطع الطريق والاعتداء على أموال الناس وتخويفهم فى الخلاء أو حتى داخل العمران – عند بعض الفقهاء – جريمة تطبق فيها واحدة من أربع عقوبات: القتل والصلب قطع الأيدى والأرجل – التغريب أو الحبس .

* والخروج عن النظام العام الذى يتولاه الحكّام العادلون – المصحوب بشهر السلاح – جريمة توجب مقاتلتهم والتصدى لهم .

* وشرب الخمور ، وجميع المذهبات للعقل جريمة عقوبتها ثمانون جلدة .

* وارتداد المسلم عن دينه إذا أصر على الارتداد مع نصحه وتحذيره جريمة توجب قتل المرتد المُصِّر المعاند .

* والاعتداء العمد على النفس بالقتل أو إزالة عضو من الجسم ، إذا صدر هذا الفعل من بالغ عاقل مختار ، جريمة توجب القصاص من الجانى . فمَن قتل يُقتل ومَن أزال عضواً من جسم كاليد والعين يُفعلَ به ما فعلَ هو بالمجنى عليه ما لم يعف المجنى أو أولياء دم القتيل ، أو يرضوا بتعويض مادى .

هذه هى العقوبات التى حددها الشرع وهى لا تزيد على ثمانى عقوبات مع أن الجرائم لا حصر لها . وفيما عدا هذه الجرائم فالأمر فى تحديد عقوبات لها يرجع إلى العلماء وولاة الأمر . فالعلماء يجتهدون فى وضع العقوبة المناسبة للجريمة شدة وخفة . وولاة الأمر ينفذون .

والحكمة فى تحديد هذه العقوبات دون غيرها أنها ترجع – كما يقول الأصوليون – إلى حفظ الضرورات الخمس فى الحياة : المال – النفس – العرض – الدين – العقل . ويترتب على حفظ هذه الضرورات توفير الأمن العام للمجتمع كله ، ثم الأمن الخاص لكل فرد من أفراده . ولأهمية هذه الأمور الخمس حدَّد الله تعالى عقوباتها تحديداً مباشراً بالنص القطعى ، ولم يترك أمرها لأحد سواه قد يصيب فيها اجتهاده أو يخطئ . ما عدا حد شارب الخمر فقد ثبت بالقياس الجلى .

وإذا أنعمتَ النظر فى هذه العقوبات وجدتها عادلة رحيمة لا قسوة فيها ولا وحشية . لأن العقوبة فى كل جريمة جاءت مناسبة لها فلا إفراط ولا تفريط.

* *

● مناقشة بعض العقوبات :

انظر - مثلاً - جريمة الزنا ، وهى من الجرائم الخُلُقية القذرة تجد مرتكبها ينحدر إلى أحط سلوك ، ويقترف إثماً قبيحاً ، وينتهك حُرمات حسَّاسة جداً . هذا الصنف من الناس المنغمس فى الدناءة والقحة إذا لم يُردع شاع الفساد فى الأرض شيوعاً مخيفاً ، واختلطت الأنساب . ومع بشاعة هذه الجريمة الحيوانية فإن الإسلام - لأنه دين العدل والرحمة - يفرِّق بين نوعين من مجرميها :

* الزانى أو الزانيان المحصنان - المتزوجان - فيحكم عليهما بالإعدام لأنهما لا عذر لهما قط يدفعهما إلى ارتكاب هذه الوقاحة البشعة .

* والزانى أو الزانيان غير المحصنين - وغالباً ما يكونان من الشباب - فيُحكم عليهما بالجلد مائة جلدة ، لأن لهما بعض العذر ، ولكنه عذر لا يحيل الحرام حلالاً . فالتفرقة - هنا - قائمة على العدل والرحمة لاختلاف البواعث عند النوعين .

ويشترط الإسلام فى تنفيذ هذه العقوبة أن تكون علنية يشاهدها جمع من الناس . وقد يقال : هذا تشهير بهما والأولى الستر . والجواب : أن قاصرى النظر هم الذين يرون فى هذا الإعلان تشهيراً . أما مَن لهم فقه بالإسلام فلا ، لأن مقصود الشرع من إيقاع هذه العقوبة هو أولاً وقبل كل شئ : تطهير المجتمع المسلم من هذه الدناءة المنحطة . وهذا يتحقق بأمرين :

أولاً : إيقاع العقوبة فى حد ذاتها دون أن تأخذنا بالمجرم شفقة .

ثانياً : شيوع أمرها بين الناس ليكف مَن تحدثه نفسه بارتكاب هذه الجريمة فيقلع وينزجر ، والذين يرون فى هذا وحشية لو فكروا بعقل واع لأدركوا روعة هذا التشريع الإلهى الحكيم ، فمن منهم - مثلاً - يرضى لواحدة من محارمه أن

يُعتدى عليها هذا الاعتداء الشنيع ؟! ومَن منْ العقلاء يرضى أن تخونه حرمه ، وتُدْخل فى كنفه ولداً غير ولده ينفق عليه ويربيه وينسبه إليه ، لا أعتقد أن عاقلاً مسلماً كان أو غير مسلم يقبل هذا على نفسه أو لأحد تربطه به صلة رحم .

لهذا خطا الشرع هذه الخطوة الحكيمة الحاسمة لاستئصال هذا الوباء الوبيل وقطع دابر سفلة المجرمين ومنتهكى الحرمات .

* *

● **قتل القاتل عمداً :**

وانظر - مثلاً آخر - لشريعة القصاص فى الإسلام سواء أكان الاعتداء على النفس بالقتل عمداً مختاراً أو قطع عضواً أو تعطيله . حكم الإسلام - هنا - هو قتل القاتل ، وقطع عضو مماثل لمن اعتدى على آخر بقطع عضو من أعضائه .

القاتل المتعمد اعتدى على آخر ظلماً وعدواناً فحرمه من نعمة الحياة . أفإذا حكم الشرع على القاتل بالإعدام يكون قسوة ووحشية ؟ وهَبْ أنه قسوة ووحشية، فمَن الذى ارتكب هذه القسوة والوحشية ؟ الشرع أم القاتل المعتدى ظلماً وعدواناً ؟ هى قسوة ؟ نعم .. ولكنها قسوة مقابل قسوة . هى وحشية ؟ نعم .. ولكنها وحشية مقابل وحشية . ولو لم يكن الحكم كذلك فى الإسلام -قسوة مقابل قسوة - لرخصت الأرواح وأهلك الحرث والنسل : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وإذا فقأ إنسان عين إنسان آخر عمداً ظلماً وعدواناً فحكم الشريعة أن تفقأ عين المعتدى المماثلة لعين المعتدَى عليه . لأنه تعمد حرمان أخيه من نعمة، فجزاؤه العادل أن يُحرم هو من تلك النعمة . والقصد من هذا كله ردع الإجرام والمجرمين واستئصال الشر من الحياة بقدر المستطاع . وكما تدين تدان ، فما أعدل هذه الشريعة وما أروعها .

* * *

---

(١) البقرة : ١٧٩

التحكم الفقهى وضياع حرية المسلم .. ؟!

درس كثير من المستشرقين أحكام الفقه الإسلامى فى مختلف مجالاته ومنهم مَن أشاد به ، ورفعه مكاناً علياً . أما الفريق الحاقد على الإسلام من المستشرقين ، فقد أجهدوا أنفسهم فى الوصول إلى رمى الفقه الإسلامى بكل نقيصة ، ولهم فى ذلك عدة اتهامات كاذبة ومنها أنهم صوَّروا أحكام الفقه الاسلامى بسجن يحيط بالمسلم من كل جهة .. لدرجة أن حرية المسلم قد تبددت وزالت أمام الأوامر والنواهى التى يلاحقه بها الفقه من ساعة أن يستيقظ من نومه صباحاً إلى أن يؤوب إلى النوم مرة أخرى ؟!

وهذه فرية ليس لها سند ، لا من واقع التوجيه الفقهى للمسلم ولا من واقع الحياة الراشدة . ويقيناً أن هؤلاء المستشرقين يدركون خطأ ما يقولون . ولكن ادراكهم لهذا الخطأ لم يمنعهم من الاسترسال فى هذه التهم والمفتريات ما دام الكيد للإسلام هو المطلوب ؟!

* *

● واقع الحياة الراشدة :

فى الحياة العامة عنصران متقابلان : الفوضى ، والنظام .. ومعنى الفوضى أن يعيش الإنسان حياته بلا هدف ولا مثل أعلى يسعى لتحقيقه ، ويصبح ويمسى هائماً على وجهه لا يدرى ماذا يقول ولا ماذا يفعل ، فهو - دائماً - يخبط خبطاً عشوائياً كالذى يسير فى ظلام دامس لا يبصر ما أمامه ولا ما خلفه . وهذا شأنه أن يستولى عليه القلق ، وتسيطر عليه الحيرة . ويصاب بدوار لا ينفك يترنح بسببه حتى يهوى ساقطاً لا يلوى على شئ .

أما النظام فيبدأ بتحديد الهدف أولاً . ثم معرفة الطريق الموصل إليه والوسائل المقرِّبة منه ، وكيفية ممارسة تلك الوسائل ، والمعوِّقات التى تحول دونه ، والآفات التى تؤثر - سلبياً - فى خطة السير نحو ذلك الهدف . وبعد هذا كله

يبدأ العمل فى التنفيذ نحو الغاية المرجوة .. ومَن كان هذا شأنه فهو على بيِّنة من أمره ، يخطو وهو واثق . ويسير وهو آمن ، ويعمل وهو مطمئن . ومن أصدق التمثيل لهذا قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وهذا ما صنعه الفقه الإسلامى فى حياة المسلم : تحديد واضح للأهداف ، مُثل العليا ، وخطة محكمة للسلوك فى الحياة .

الفقه الإسلامى حدَّد للمسلم رسالته فى الحياة . ورسم له الطريق الصحيح لتأدية تلك الرسالة العصامية . فهو يعرف تماماً ماذا يريد . وكيف يحقق ما يريد . والخطة التى رسمها الفقه الإسلامى لسلوكيات المسلم فى الحياة تعتمد على ثلاث ركائز ، وهى تتمثل فى العبارات « الكلية » الآتية :

افْعَل : هذه العبارة مثل « الضوء الأخضر » توحى بالأمان والاطمئنان ، وتؤذن بالسير إلى الأمام دونما خطر أو حظر ، ويندرج تحتها فرعان :

الأول : الواجبات العامة . سواء أكانت واجبات دينية ، مثل : أدِّ الصلاة ، صُمْ شهر رمضان . حج إلى بيت الله . بر والديك . أحسن إلى جارك . أو واجبات دنيوية ، مثل : اعمل لكسب قوتك ، اعط بدنك حقه من الراحة - اغسل يديك قبل الأكل وبعده .

الثانى : الأمور المندوبة ، وهى ما كانت أنزل درجة من الواجبات وفعلها أولى من تركها ، مثل : توضأ ثلاثاً ثلاثاً ، اعف عمن ظلمك ، وأعط مَن حرمك ، وصِلْ مَن قطعك . وهذه أمثال للمندوبات الدينية . ومثل : نم مبكراً واستيقظ مبكراً . بالغ فى اتقان صنعتك . وهذان مثلان للمندوبات الدنيوية .

---

(١) الملك : ٢٢

أما الركيزة الثانية فهى :

لا تفعل : وهذه العبارة مثل « الضوء الأحمر » المنذر بالخطر والواجب عند سماعها الإحجام عن العمل أو التوقف عنه إن كان قد تلبس به . وكذلك يندرج تحتها فرعان :

الأول : الأمور المحظورة حظراً قاطعاً ؛ لأن فى فعلها فساداً وضرراً بالغاً ، كعقوق الوالدين ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وقتل النفس التى حرَّم اللَّه إلا بالحق ، وتسمى فى الفقه بـ « المحرَّمات » .

والثانى : الأمور التى فى فعلها ضرر خفيف ، ويعبِّر عنها فى الفقه بـ « المكروهات » كأكل مال فى شبهة ، والتراخى فى أداء الواجبات ، والإكثار من النوم والأكل والشراب المباح .

أما العبارة الكلمة الثالثة فهى :

افعل أو لا تفعل : وهذا التوجيه الفقهى الإسلامى يندرج تحته كل الأمور المباحة إباحة يستوى فيها طرف الفعل ، وطرف الترك من حيث براءة المكلف . فإذا فعلها لم يرتكب مخالفة ، وإذا تركها لم يقترف إثماً .

ومن أمثلتها : الوضوء فوق الوضوء ، التقرب إلى اللَّه بكثرة النوافل كصلاة التطوع وصيامه ، والحج مرة أخرى ، والتصدق بالمال بعد إخراج الزكاة ، وهكذا .

فالنشاط كله الذى يمارسه المسلم محكوم بهذه القواعد الثلاثة فعلاً وتركاً .

هذا هو التوجيه الفقهى لحياة المسلم ، وهو حين يلتزم به فإنه لم ولن يشعر بأنه فقد حريته ، بل يكون فى قمة السعادة ؛ يهتدى فى حياته بخطة حكيمة تأذن له بفعل كل شئ فيه منفعة له أو للناس أو لهما معاً . وتحظر عليه فعل كل شئ فيه ضرر له أو لغيره ، وبذلك يقدِّم الفقه الإسلامى للمسلم خدمة جليلة الشأن يتحقق من خلالها جلب المنافع ودفع المضار . وإذا التمسنا لهذا مثالاً

فأقرب ما يكون إليه إرشادات المرور بمختلف أنواعها ، فإنها ما وضعت إلا لتحقيق السلامة وتجنب الكوارث . وليس فيها اعتداء على الحريات . فعندما يضاء النور الأخضر فمعناه أن الطريق آمن . والسير غير محظور ، وحين يضاء النور الأحمر فمعناه التحذير من التحرك إلى الأمام لما فيه من وقوع الضرر على قائد السيارة وعلى غيره . وأيهما أنفع لقائد سيارة معه أسرته - مثلاً - أن يتوقف عند مشاهدة النور الأحمر لحظة من الوقت فيغنم السلامة له ولأسرته ، أم أن يسير غير عابئ بالتحذير فتصدمه مركبة أخرى من اليمين أو اليسار ويعرّض حياته وحياة أسرته وآخرين لخطر محقق : موت أو كسور فى العظام وعاهات مستديمة ؟!

هذا مثال توضيحى لتوجيهات الفقه الإسلامى ، الذى هو منهج حياة المسلم . والفقه الإسلامى له ثلاثة مصادر :

* فبعض أحكامه شرعها الله مباشرة فى كتابه العزيز . والله وحده هو العالم بالمصلح من المفسد علم إحاطة وشمول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

* وبعض أحكامه صدرت عن صاحب الدعوة الصادق المصدوق وهو لا ينطق عن الهوى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (٢) ، والقرآن الكريم دعانا أن نثق فى صاحب الدعوة كل الثقة ؛ لأنه معصوم من الخطأ فى التبليغ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. ﴾ (٣) .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴾ (٤) .

---

(١) المائدة : ٥٠   (٢) النجم : ٤

(٣) الأحزاب : ٣٦   (٤) الحشر : ٧

* وكثير من أحكام الفقه كانت من اجتهادات الفقهاء الذين كان لهم فى علوم الشريعة قدم راسخة . والأحكام الفقهية الاجتهادية مرجعها كتاب الله وأحاديث رسوله ، وليست ابتداعاً من عند الفقهاء .

هذه المصادر الثلاثة هى التى استمد منها الفقه الإسلامى ثروته الهائلة . لذلك كان منهاج المسلم فى حياته منهجاً سماوياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . أما مناهج غيره فهى مناهج بَشرية المصدر شديدة الخلط والاضطراب .. ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (١) .

ويمتاز منهاج المسلم فوق ذلك إذا ما قورن بغيره بما يأتى :

١ - أنه منهاج عام شامل لكل صغيرة وكبيرة من سلوكياته . فليس فى نشاط المسلم صورة ليس لها توجيه - فعلاً أو تركاً - بينما مناهج غير المسلم إما مهزوزة المصدر إن رجعت إلى مصدر دينى . وإما قاصرة على بعض السلوكيات المحدودة فى الحياة . فهى مليئة بالثغرات والفجوات التى لا يدرى الإنسان وجه الصواب فيها فتختلف أمامها المواقف ، ويمارسها كل فرد على هواه ، وهذه هى قمة الضياع إن كان للضياع قمم .

٢ - المسلم يمسى ويصبح ، ويعمل ويترك ، وهو يعرف لمن سيقدِّم كشف حسابه فيجزيه على الخير خيراً ، وعلى الشر شراً . بينما غيره يهيهم على وجهه فإن عمل فعلى هواه ، وإن ترك فعلى ضلالة ، وتنحصر كل اهتماماته فى الجزاء المادى فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يقيم وزناً ليوم تشخص فيه الأبصار . وإن أقام فعلى تصور مخطئ معلول لا يسمن ولا يغنى من جوع .

٣ - الفقه الإسلامى يضع المسلم تحت رقابة الله ، فيولِّد فى نفسه وازعاً دينياً يزين له الحق والخير والصواب ، ويكره له الباطل والشر والخطأ ، بينما

---

(١) النور : ٤٠ .

غيره .. الغاية عنده تبرر الوسيلة . والفضائل ليس لها معيار ثابت فما نفعه فهو خير وإن أضر غيره . وما ضرّه فهو شر وإن نفع غيره . منهج أنانى ضيق يقوده ويحدوه الشيطان .

إن هؤلاء المستشرقين دأبوا - دائماً - على قلب الحقائق استجابة لحقدهم على الإسلام .

ومهما أرعدوا وأزبدوا فلن يضروا الإسلام شيئاً ، كما قال الشاعر :

هل يضر البحر أمسى زاخراً ‏ ‏ ‏ ‏ إن رمى فيــــه غلام بحجــــر

* * *

الشريعة الإسلامية خارج نطاق الدين .. ؟!

فى البدء أذكِّر القارئ الكريم أن من خطط مواجهة أوروبا للإسلام فى العصر الحديث الترويج بشتَّى الطرق لفكرة : تطوير الإسلام ، أو تحديث الإسلام ؟ وكان الهدف من هذه الفكرة هو إزاحة الشريعة الإسلامية من الوجود ! وإحلال القوانين الوضعية محلها ، وهذا ما انطلى على بعض المفكرين من المسلمين ، وما يزال يسيطر عليهم . وقد أسهم المستشرقون فى الترويج لهذه الفكرة خدمة لمطامع الاستعمار فى الشرق الإسلامى، وأجهدوا أنفسهم فى ابتداع مقولات تسهِّل على المسلمين أنفسهم قبول فكرة تطوير الإسلام أو تحديث الإسلام . وهذا ما سيتضح مما يأتى :

وضع المستشرق الفرنسى « چوزيف شاخت » كتابين أحدهما أسماه : «المدخل إلى الفقه الإسلامى » ، والآخر دعاه : « أصول الشريعة المحمدية » وقد ادَّعى فى الكتابين أن الشريعة الإسلامية خارجة عن الدين الإسلامى نفسه؟ وفى سبيل تأكيد هذا القول المفترى يقول :

* إن الجانب التشريعى لم يكن له وجود فى حياة النبى وأصحابه وتابعيهم ؟

* إن علماء الإسلام فى القرون الثلاثة الأولى كانوا كذَّابين وملفقين .. ؟!

* إن الأحاديث الفقهية التى رويت منسوبة إلى النبى ليس فيها حديث واحد صحيح .. ؟!

هذا موجز لما قاله « چوزيف شاخت » وتابعه عليه آخرون من زملائه المستشرقين . والهدف من هذا الادعاء أن يوحى للمسلمين بأن التمسك بأحكام الشريعة ليس واجباً بل لهم أن يطوروه كما شاءوا . وفى هذا فتح للباب

على مصراعيه لمشروعية القوانين الوضعية ، وتحديث الإسلام ، وهو الهدف الذى سعى إليه الاستعمار منذ زمن طويل .

* *

● **نقض هذا الادعاء :**

المستشرقون دائماً يصرِّحون وهم يكتبون عن الإسلام أنهم ينهجون نهجاً موضوعياً خالصاً ، وأنهم يستخلصون النتائج من واقع الإسلام نفسه نظرياً وعملياً ، ونحن إذ نتصدى لبطلان ما ذهب إليه « چوزيف شاخت » وغيره ندير حديثنا معهم على هذا الأساس الذى قالوا إنهم يلتزمون به فى بحوثهم ودراساتهم ، وبناء على هذا نبدأ مناقشتنا لما قاله « شاخت » بطرح هذا السؤال:

هل واقع الإسلام النظرى والعملى يؤدى إلى نفس النظرية التى انتهى إليها « شاخت » ، وهى أن الشريعة الإسلامية تقع - فعلاً - خارج نطاق الدين ؟!

السؤال كما ترى يتكوَّن من شقين : الشق النظرى . ثم الشق العملى . وعلى هذا الأساس ندير الحديث :

أولاً - الشق النظرى :

يتكون الشق النظرى من مصدرين ، وهما : الكتاب ، والسُنَّة . وهما مصدرا التشريع فى الإسلام ، وغيرهما من المصادر كالإجماع مستقى منهما . فما هو موقف القرآن ، وهو المصدر الأول للتشريع من دعوى « شاخت » . هل خلا من النصوص التشريعية يا ترى ؟

الجواب : كلا . إن القرآن حافل بالنصوص التشريعية ، ومنهج القرآن فى التشريع قسمان ، الأول : وضع الأسس التشريعية الكلية التى تتفرع عنها أحكام لا تقع تحت حصر سريع ، وهذه هى الطريقة الغالبة فى القرآن ، وقد فطن إلى هذا الإمام الشافعى رضى الله عنه حيث قال : « ما تنزل بأحد نازلة إلا وفى كتاب الله دليل على طريق الهدى إليها » .

أما القسم الثانى : فهو ورود أحكام تشريعية مفصَّلة بوجه عام أو خاص مثل أحكام المواريث ، وفقه الأسرة ، والجهاد ، والأطعمة والأشربة .. وهذه الطريقة تلى الطريقة الأولى فى الكثرة .

وقد قام الأستاذ محمد مصطفى الأعظمى بوضع رسالة حول ما ورد فى القرآن الكريم من تشريعات أوضح من خلالها أن التشريعات الواردة فى القرآن قد شملت جميع مناحى الحياة .

ومن قبل قام لفيف من العلماء بحصر ما فى القرآن من آيات الأحكام حصراً شاملاً ، من هؤلاء العلأمة ابن العربى فى كتابه « أحكام القرآن » ويقع فى أربعة مجلدات . ومنهم الجصَّاص فى كتابه « أحكام القرآن » ويقع فى ثلاثة مجلدات . ومنهم الكيا الهراس فى كتابه « أحكام القرآن » ويقع فى أربعة مجلدات كذلك .

السُنَّة .. ووردت فى السُنَّة أحاديث صحيحة وحسنة مضمونها أحكام فقهية خالصة . وقد اهتم فريق من العلماء بجمع الأحاديث الفقهية فى مصنَّفات خاصة ، مثل : « الموطأ » للإمام مالك . و « بلوغ المرام » لابن حجر العسقلانى . و « نصب الراية فى أحاديث الهداية » للزيلعى . و « نيل الأوطار » للشوكانى ، و « أدلة الأحكام » لابن دقيق العيد .

هذا فى إيجاز موقف القرآن والسُنَّة من التشريع . فمن أين علم « شاخت » أن القرآن والسُنَّة خاليان من النصوص التشريعية حتى تسوِّل له نفسه أن الشريعة الإسلامية تقع خارج نطاق الدين ، وأن موقف الرسول وأصحابه وتابعيهم بالنسبة للتشريع كان موقف الإهمال واللامبالاة ؟! إن كان « شاخت » رجع إلى القرآن والسُنَّة وفهم منهما هذا الفهم فهو إما مغفَّل أو كذَّاب . وإن لم يكن قد رجع إليهما فلا يصح له أن يحكم على شئ هو لم يعرفه قطْ ، ولا ثالث لهذين الفرضين . فمن هو إذن المغفَّل الكذَّاب ؟ : علماء المسلمين فى القرون الأولى ، وهم قدوة الأمة ؟ أم « شاخت » هو الكذَّاب المغفل ؟

ثانياً - الشق العملى :

التزم المسلمون منذ صدر الإسلام بالاحتكام إلى كتاب الله ثم إلى سُنّة رسوله سواء فى العبادات أو المعاملات . فالقرآن هو المصدر الأول الذى يرجعون إليه ، ثم إلى السُنّة . وكل الأحكام الاجتهادية التى انعقد عليها الإجماع والتى ظلت خارج الإجماع لاختلاف وجهات النظر فيها . هذه الأحكام كلها مستمَدة من الكتاب والسُنّة ، والاجتهاد لا يكون صحيحاً إلا إذا استند إلى واحد من مصدرى الشريعة الأوّلين - وهما الكتاب والسُنّة - وكتب أصول الفقه ، وكتب الفقه التزمت بهذا المنهج . فليس في الفقه الإسلامى المعمول به إلى الآن مسألة واحدة مبتوتة الصلة تماماً عن مصادر التشريع . ولهذا لا يصح - ولن يصح - ما ذهب إليه « شاخت » من أن الشريعة الإسلامية تقع خارج نطاق الدين، وسيظل كلامه أكذب الأكاذيب ما دام فى الوجود ميزان يفرِّق بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ . أما قوله : « إن الأحاديث الفقهية ليس فيها حديث واحد صحيح » فقد هرف فيه بما لا يعرف . وغيره من أبناء جلدته المنصفين قد اعترفوا بأن علوم الحديث رواية ودراية أقوم المناهج فى توثيق النصوص لم تهتد إليه أمة مثلما اهتدت إليه أمة الإسلام .

* * *

الزكاة فى الإسلام .. مدعاة للبطالة والخمول .. ؟!

أطلق المستشرقون على نظام الزكاة فى التشريع الإسلامى الحكيم سهمين ، أحدهما وجهوه إلى تاريخها ومصدرها ، والثانى أطلقوه على وظيفتها وآثارها ، ومعلوم – مقدماً – للقارئ الكريم أن كلا السهمين اللذين أطلقوهما كانا طائشين ، لم يصيبا ولن يصيبا فى المطلق عليه مقتلاً ، ولم يشفيا لمطلقيهما غليلاً . وهذا شأن جميع السهام التى صوبت ضد الإسلام منذ جاء محمد ﷺ ، وإلى الآن . وكل الذى حدث أن فريقاً منا – نحن المسلمين – من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم – صاروا أبواقاً لأعداء الأمة يرددون مفترياتهم على الإسلام . ولن يضروا الله شيئاً . إن الله لا يصلح عمل المفسدين .

* السهم الأول : بدأ المستشرقون باتهام الإسلام أنه أخذ نظام الزكاة عن الشريعة اليهودية عن طريق اليهود الذين كان يلتقى بهم فى المدينة ، وقد تعلم منهم – هكذا يقولون – الكثير ؟! وتسألهم : ما دليلكم على ما تقولون ؟ فيسارعون إلى القول بأن كلمة « الزكاة » موجودة فى المصادر اليهودية باللغة العبرية هكذا « زاكوت » .. يا سبحان الله . ألمجرد وجود كلمة « زاكوت » بمعنى الزكاة فى اللغة العبرية يكون محمد ﷺ أو الإسلام أو القرآن قد سطا أو أخذ نظام الزكاة عن اليهودية ؟! هل هذا منهج بحث علمى موضوعى تطمئن النفس إلى نتائجه ؟ أم هو مجرد حيلة أوهى من خيوط بيت العنكبوت بنى عليها المستشرقون هذا الادعاء الضخم الأجوف ؟

نحن لا ننكر ورود كلمة « زاكوت » فى العبرية بمعنى الزكاة فى العربية . وإنما ننكر أن يكون ورودها فى العبرية دليلاً على أن الزكاة فى الإسلام مأخوذة عن اليهودية . وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : لأن المسألة على هذا النحو مسألة مقارنة بين لغتين لا بين ديانتين . وهذا ظاهر لمن كان يطلب الحق .

ثانياً : أن اللغتين العربية والعبرية ينتميان إلى شعبة لغوية واحدة ، ومعهما اللغة الآرامية ، تلك الشعبة هى : اللغة السامية الأم .

ثالثاً : بحث علماء اللغة بحثاً موضوعياً لمعرفة اللغة الأم للغات السامية ولم يهتدوا على وجه القطع واليقين إلى قول متفق عليه . وذهب بعض الباحثين إلى أن المرجح أن تكون اللغة العربية هى اللغة الأم للغات السامية .

رابعاً : ونحن لا نعوّل كثيراً على هذا الترجيح ، وإنما الذى نعوّل عليه أن هذه اللغات : العبرية والعربية والآرامية ما دامت تنحدر إلى أصل واحد فإن ورود التشابه بين مفرداتها يكون أمراً طبيعياً . ولذلك لم يقتصر التشابه بين العبرية والعربية على كلمتى : زاكوت - زكاة . بل فيها كلمات لا تحصر قد حصل بينهما التشابه مثل : شالوم - سلام ، عليخ - عليك ، هيّوم - اليوم ، آنى - أنا . وهكذا .

خامساً : وإذا كان الأمر أمر مقارنة بين لغتين لا بين ديانتين فكيف جزم السادة المستشرقون بأن العربية هى التى أخذت عن العبرية . مع احتمال صحة العكس ؟! أليس هذا تحكماً يجافى روح البحث العلمى النزيه ؟! .

سادساً : هل يعتقد السادة المستشرقون أن لو كان محمد ﷺ قد أخذ الزكاة عن اليهود فى المدينة كان اليهود يخفون ذلك يوماً واحداً ولا يعلنونه على الملأ ليفضحوا محمداً عليه السلام ؟ وبخاصة حين أخذ القرآن يكشف عن مخازى اليهود مع الله ومع رسلهم ويكشف سوء سيرتهم وسيرة أحبارهم الذين كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل ويقتلون الأنبياء ويعبدون العجل ؟ لو كان هذا السهم فى كنانة اليهود لنثروه فى وجه رسول الإسلام ، ولطيروا الخبر فى كل مكان ، فمن أين استقى هؤلاء المستشرقون هذا القول يا ترى ؟!

إن اليهود أنفسهم - قديماً - لما لم يجدوا طعوناً حقيقية فى الإسلام افتروا عليه وكذبوا . ولو كان يعلمون أنهم علّموا محمداً ﷺ ما لم يكن يعلم لكان

حرياً بهم أن يواجهوه بالحقائق التي يعلمها هو ويعلمونها هم . لا بالأوهام كما يفعل السادة المستشرقون الآن .

* السهم الثانى : ربما أحس المستشرقون بضعف موقفهم السابق من الزكاة فى الإسلام فراحوا يتلمسون لها منفذاً آخر ينقضون منه عليها . فماذا قالوا يا ترى ؟

قالوا : إن نظام الزكاة فى التشريع الإسلامى يشجع على كثرة البطالة فى المجتمع ، ويدعو إلى الخمول والاسترخاء ، وخلق طبقات عاطلين من الناس يستهلكون ولا ينتجون ، ولا يبحثون عن عمل شريف ما دامت أعطياتهم من الزكاة مضمونة وهذا يصيب المجتمع بآفة قاتلة مع أن المجتمع فى أمس الحاجة إلى استثمار كل طاقات أعضائه ؟!

* *

● **تعقيب :**

ردنا على هذا الادعاء من وجهين :

الأول : أن الزكاة كما هى فرض أو ركن من أركان الإسلام ، فإنها مشروعة فى اليهودية وفى النصرانية ، وقد أخبرنا القرآن الأمين بذلك ، ففى شأن اليهود جاء قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ... ﴾ (١) .

وفى شأن عيسى عليه السلام حكى القرآن الأمين قوله : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ (٢) .

فعلام إذن يوجه المستشرقون اللوم للإسلام ويسكتون عن اليهودية والنصرانية ؟!

فالزكاة إذا كانت محمودة يجب أن تكون محمودة فى كل الشرائع :

---

(١) المائدة : ١٢ (٢) مريم : ٣١

وإن كانت مذمومة يجب أن تكون مذمومة فى كل الشرائع . فعلام إذن هذه التفرقة ؟!

والجواب : إن المستشرقين إما يهوداً ، وإما نصارى . وهؤلاء جميعاً لم يكونوا على صواب قط حين يتلمسون العيوب للإسلام . والمقصود هو الإسلام وليس الزكاة . وهذا يبيِّن مدى تعصب هؤلاء المستشرقين ضد الإسلام . وأنهم لم يكونوا فى يوم ما أمناء فى مجال الكلمة المقولة على الإسلام . وكفى بذلك فضوحاً لهم .

الثانى : من محاسن التشريع الإسلامى أنه شرع أحكاماً كثيرة لحماية الضعفاء الذين لا يخلو منهم مجتمع . والضعف أنواع ، ولكل نوع حماية فى الإسلام ، كحماية الأطفال الذين دون سن الرشد . فالأب ولى على مصالحهم . فإذا مات أوجب تعيين وصى يحل محله حماية لمصالحهم . والسفيه ضعيف يجب الحجر عليه وتعيين ولى له حماية لمصالحه .

وعدم القُدرة على الكسب ضعف ، وعدم وجود مجال للكسب مع القُدرة عليه ضعف ، وهذا متحقق فى الفقراء والمساكين الذين لهم نصيب من الزكاة فى الإسلام . والغريب (ابن السبيل) الذى نفد ماله أو هلك ضعيف تجب مواساته، لذلك جعل له الإسلام نصيباً من الزكاة . ومَن تعرَّض من الناس للإفلاس وكثرت عليه الديون والواجبات ضعيف كذلك وهو « الغارم » ، فجاء الإسلام ليساعده على الخروج من فاقته وجعل له سهماً من الزكاة شريطة أن لا يكون أضاع ماله فى الحرام . والأرقاء ضعفاء ، فشُرع لهم الإسلام سهماً من الزكاة ليستعينوا به على « فك رقابهم » من نخاسيهم . والعاملون على جمع الزكاة ولا عمل ولا مال لهم يعانوا على واجباتهم بإعطائهم سهماً من الزكاة . ثم ما بقى بعد ذلك ينفق فى الخير العام : « وفى سبيل الله » . إن الزكاة بلسم يعالج به الإسلام ظواهر العجز والحرمان وليست مؤسسة لتخريج العاطلين كما يدَّعى خصوم الإسلام .

* * *

كفران النعمة قبيح ، وأقبح منه أن يحاربك كافر نعمتك بنفس النعمة التى أسديتها أنت إليه . والشرق الإسلامى له على بلاد الغرب فضل عظيم ، فقد نهض وهى مكبلة بالقيود ، وتعلّم وهى غارقة فى بحار الجهل ، وازدهرت حضارته على ضفاف الهندى والهادى والأطلسى والأبيض والأحمر وعلى شاطئ الخليج الإسلامى (العربى - الفارسى) وهى تغط فى نوم عميق . ثم أمدها الشرق الإسلامى بأسباب النهضة وهى تتحسس معالم الطريق بكلتا يديها قبل أن تراه . وجعلت تكبو حيناً ، وتنهض حيناً . ولما شبت عن الطوق طفقت تلعن الأمة التى أحسنت إليها ، وتقطع الأصابع التى طالما أطعمتها . ومثَّل هذا الدور بعض بنيها من المستشرقين الحاقدين ، والمبشرين الموتورين . ومظاهر اللعن والإساءة لا تحصر ، ونتصدى - هنا - لواحد منها خلاصته : أن عقول المسلمين - عرباً وغير عرب - أشبه ما تكون بعقول الأطفال .. ؟!

* *

● سُنَّة اللّه فى خلقه :

خلق اللّه الناس من أب واحد ، وأم واحدة . وفضَّل بعضهم على بعض درجات فى المواهب والملكات . ولكن فى محيط الأفراد لا الجماعات . فليس هناك جنس أفضل من جنس ، ولا لون أزكى من لون ، وكل من أخذ بالأسباب منحه اللّه قدراً من النبوغ . ونهضة الأمم والشعوب لا ترجع إلى أصل عرقى فالأصل واحد . وإنما ترجع إلى توفر أسباب النهضة ، واستثمار الطاقات المادية، وإعمال العقل والفكر . وحاد ناس عن هذه الحقائق - وفى مقدمتهم اليهود - حيث زعموا أنهم مصدر العبقريات لأنهم ينتمون إلى أصل «عرقى» متوقد الذكاء .. ؟! وما يردده المستشرقون - الآن - شبيه بدعوى اليهود .

* *

● البداية :

وترجع بداية الحملة التى يشنها المستشرقون ضد الشرق الإسلامى - الآن - إلى مقولة تفوّه بها « رينان » صاحب نظرية أو بدعة « الأجناس » فقد قسّم « رينان » الناس قسمين ، أحدهما : يرجع إلى الجنس الآرى ، وهم شعوب الغرب السياسى لا الجغرافى . والآخر : ينتمى إلى الجنس السامى ، ومنهم العرب المسلمون . وقال « رينان » : إن الجنس الآرى هم أرباب الزكاء الوقّاد ، والعبقريات الخارقة ؟!

أما الجنس السامى - المسلمون - فهم ذوو عقول طفلية لا تدرك إلا حاضر المحسوس وتهتم بالتوافه ، ومعرفتها تقف عند حدود الجزئيات ولا صلة لها بمعرفة « الكليات » ، هى عقول تقوم على التمزيق والتفريق بينما عقول الآريين تقوم على المزج والتركيب .، وعقول الساميين لا تدرك غير الظواهر ، أما عقول الآريين فتغوص وراء الكوامن وتحسن الجمع بين المعقول الدقيق ، والمحسوس البسيط . ثم عزا « رينان » تخلف المسلمين إلى هذا « التخلف العقلى » الذى بسببه يجب وضع المسلمين فى مؤسسة تهتم برعاية « المعوقين » ؟!

وبعد « رينان » راح السادة المبشرون وتلاميذهم المستشرقون يعزفون ألحاناً شديدة النكارة على هذا « الوتر » الرينانى ؟!

* *

● منصفون من بنى جلدتهم :

إذا كان الله قد ابتلانا بطائفة مسعورة من غجر الاستشراق والتبشير كـ « رينان » هذا ، و « كالسون » و « كازانوفا » ، فإنه جلّت حكمته قد منّ علينا بطائفة أخرى من بنى جلدتهم شهدوا بفضل المسلمين على الغرب ، وأنصفوا تاريخنا العلمى الحضارى فى عبارات فصاح .

من هؤلاء « جواهر لال نهرو » ، إذ يقول فى كتابه « لمحات عن تاريخ العالم» مشيداً بفضل علماء المسلمين الأوائل :

« كانوا بحق آباء العلم الحديث ، وإن بغداد تفوقت على العواصم الأوروبية ما عدا قرطبة عاصمة أسبانيا العربية . وإنه كان لا بد من وجود ابن الهيثم وابن سينا والخوارزمى والبيرونى لكى يظهر جاليليو وكبلر وكوبرنيق ونيوتن » .

ومنهم « إميل درمنجم » إذ يقول فى كتابه « القيم الخالدة فى الإسلام » :

« إن حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماوية ، نظامها الاجتماعى يقوم على أسرة متماسكة ، ونظامها الاقتصادى يعتبر المال وسيلة لا غاية ، ويحترم الملكية الفردية غير المستغلة . وثقافتها تقوم على العقل فى كسب المعارف . ولا شك أن لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية » .

ويقول « چوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » :

« إن فلاسفة العرب والمسلمين هم أول مَن علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

ويقول الأستاذ « كويلر يونج » أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة « برنستون » فى محاضرة ألقاها فى مؤتمر الثقافة الإسلامية فى واشنطن عام ١٩٥٣ وكان موضوع المحاضرة « أثر الثقافة الإسلامية فى المسيحية » :

« وبعد .. فهذا عرض تاريخى قصدتُ به التذكير بالدَّين الثقافى الذى ندين به للإسلام ، منذ أن كنا نحن المسيحيين داخل هذه الألف سنة نسافر إلى العواصم الإسلامية ، وإلى المعلمين المسلمين ، ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الإنسانية .. ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدَّيْنا ما علينا وبربحه . وسنكون مسيحيين حقاً إذا نحن تناسيناً شروط التبادل وأعطينا فى حب واعتراف بالجميل » .

* *

● حقائق لا تنكر :

ومهما غالى ذلكم الفريق من المستشرقين فى احتقارنا نحن العرب المسلمين ، فإن فى التاريخ حقائق لا تُنكر ، واضحة الدلالة على أن نهضة الغرب المعاصرة قد ارتكزت على أصول الحضارة والمعرفة الإسلامية .

*

● معابر الحضارة الإسلامية إلى الغرب :

اقتبس الغرب من حضارة الإسلام عبر ثلاثة معابر رئيسية :

١ - الشرق العربى (سوريا) إبّان الحروب الصليبية .

٢ - صقلية التى فتحها العرب سنة ٨٣٠ م .

٣ - الأندلس ، وهى أكبر وأعظم معبر عبرت منه حضارة الإسلام إلى الغرب .

ومن الحقائق التى لا تُنكر أن الغرب تعلّم من الإسلام مهارات عديدة فى مجال العلوم النظرية والعملية وسائر الفنون ، وذلك عن طريقين رئيسين : البعثات العلمية التى أشار إليها « يونج » من قبل . ثم ترجمة الكتب العربية الإسلامية إلى لغات الغرب .. ونشير - هنا - إلى ما تعلّمته أوروبا عن المسلمين فى مجال واحد هو الطب .

أنشئت فى الغرب مدارس طبية اعتمدت اعتماداً كلياً على الكتب العربية الإسلامية التى تمت ترجمتها ، كمدارس نابولى ، ومونبيليه ، وبولونيا ، وأورليان ، وأكسفورد ، وكمبردج .. أما الكتب التى اعتمدت عليها فمنها :

* كتاب القانون فى الطب لابن سينا .

* كتب أبى القاسم القرطبى المعروف بالزهراوى ، وكان جرّاحاً ماهراً . يقول فيه العالم الفيزيولوجى « هالر » : كانت كتب أبى القاسم الزهراوى المصدر الوحيد الذى استقى منه جميع الجرّاحين بعد القرن الرابع ، ونحن مدينون لأبى القاسم

بكثير من الآلات الجراحية ، وكتابه فى الجراحة مكوّن من ٢١ جزءاً ، وبه مائتا شكل للآلات الجراحية .

* كتاب الحاوى لأبى بكر الرازى ، وله عناية خاصة بالجروح الباطنية .

* كتب ابن النفيس . وهو أول من اكتشف الدورة الدموية فى جسم الإنسان قبل أن يهتدى إليها « وليام هارفى » الإنجليزى .

وللعرب فضل على الغرب فى إنشاء المستشفيات ونظام الأسِرّة ، وبطاقات متابعة أحوال المرضى ، والتحاليل الطبية ، وخياطة الجروح ، وعلم الصيدلة إلخ . إلخ .

والآن .. فهل هذه العقول عقول أطفال كما يدّعى « رينان » ومشايعوه ؟

وفى الختام نذكر قول الشاعر الحكيم الذى ينطبق على « رينان » ورفاقه :

أعلمــه الرماية كـــل يوم   فلما اشتـد ساعده رمانى

وكـم علمته نظم القوافى   فلما قال قافية هجانى !

* * *

التصنيف فى المجتمع الإسلامى تعصب وانتهاك .. ؟!

مما عابه المستشرقون على الإسلام : التصنيف داخل المجتمع الإسلامى أو الدولة الإسلامية . وهذا التصنيف الذى عابوه هو حقيقة لا يمارى فيها ، ولكن الذى يجب أن يُستبعد هو اعتبار هذا التصنيف نقيصة أو عيباً ، أو له مساس سئ بحقوق الإنسان - كما يحلو لهم أن يقولوا - لأنه تصنيف قائم على أسس مراعاة حقوق الإنسان ، وقد عرفت النظم السياسية المعاصرة شيئاً منه ، ولكن لم تبلغ دقة الإسلام فيه ، لا من حيث الاعتبارات القائم عليها ، ولا من حيث رعاية الحقوق وكفالة الحريات . ومع هذا ترى المستشرقين وعملاءهم منا لا يتورعون أن يصموا التصنيف داخل الدولة الإسلامية بالتعصب وانتهاك حقوق الإنسان .

* *

● أنواع التصنيف :

يطلق التشريع الإسلامى على مَن يعيشون فى دولته أو على حدودها اصطلاحات مختلفة ، لكل مصطلح منها اعتبار قام عليه ، وحقوق وواجبات تنشأ عنه ، ومن ذلك : « المعاهد » و « المستأمن » - وهما صيغتا اسم مفعول - و « الذمِّى » . ثم « الحربى » .

وهذه بالطبع مصطلحات خاصة بغير المسلمين ، سواء أكانوا يعيشون داخل المجتمع المسلم ، أو خارجه أو على حدوده . أما المسلم داخل الدولة أو خارجها أو كان ينتمى إلى دولة إسلامية أخرى ، فلا تنطبق عليه هذه المصطلحات ؛ لأنه وحدة فى نسيج الأمة ، وكفى رباطاً بينه وبين المسلمين وصف الإسلام الجامع لهم .

فـ « المعاهد » : هو الذى بينه وبين المسلمين عهد تصالح . والواجب على المسلمين نحوه الوفاء بالعهد . وفيه يقول الرسول ﷺ : « مَن ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق ما يطيق أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » .

و « المستأمن » : هو مَن دخل فى أمان المسلمين إلى مدة معلومة . والواجب على المسلمين نحوه تأمينه على نفسه وماله وعرضه . ورعاية حقوقه ما دام فى أمانهم . وعليه نحوهم الانصياع للقانون وألا يأتى عملاً يضر بمصالح المسلمين . والمستأمن - الآن - هو الذى يلجأ إلى الدولة سائحاً أو عاملاً بما يسمى تأشيرة الدخول . ويحظر الإسلام أن يظلمه أحد ، أو يخيفه أو يعتدى على حقوقه .

أما « الذمى » : فهو مَن يعيش بين المسلمين ويقيم إقامة دائمة . فله ما للمسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات . ويكفل الإسلام له حرية العقيدة وممارسة طقوسه الدينية وحرية العمل المشروع ، ولا يؤذى فى نفسه أو ماله أو أولاده أو عرضه . ويخضع خضوعاً تاماً للقانون الإسلامى إلا ما يتصل بالعقيدة وممارسة الشعائر المنبثقة عنها . فهذا لا يُطلب منه الإسلام ، بل تُترك له عقيدته وممارسة شعائرها سواء أكان ذلك فى مجال العبادات أو نظام الأسرة من تزوج وغيره .

و« المحارب » : هو الذى ينتمى إلى بلد بينها وبين المسلمين حرب قائمة أو فى حكم القائمة . ومعاملة الحربى تختلف عن معاملة المعاهد والمستأمن والذمى لأنه غير مأمون الجانب ، وربما كان دخوله بلاد المسلمين للتجسس أو التخريب، وإذا اقتضت الحاجة إبعاده فالإسلام يحتم أن نبلغ به مكاناً يأمن فيه على نفسه كإركابه الطائرة أو الباخرة . ولا نخرجه خارج الحدود إلى مكان يخشى عليه فيه الهلاك ، يشير إلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [1] .

---

(١) التوبة : ٦

هذا هو التصنيف الإسلامى المعيب فى نظر المستشرقين ، وهو تصنيف قائم على اعتبارات دقيقة كما ترى . وليس فيه انتهاك لحقوق الإنسان من أى نوع . وإنما اتخذ الإسلام منه وسائل لتنظيم الحقوق والواجبات ورعايتها ، ويزيد الفقهاء الأمر وضوحاً فيبيحون للمستأمنين إلى مدة محددة أن يحملوا معهم الخمور ولحوم الخنازير ، ولكن إذا خرجوا يجب أن يحملوا معهم ما تبقى من الخمور خشية أن يتسرب الفساد إلى المسلمين . وهذا من محاسن الإسلام ولا ريب ، ومع هذا فإن عملاء الاستشراق من المسلمين ينعون على الإسلام أنه يُفرِّق بين المواطنين إلى مواطن من الدرجة الأولى وآخر من الدرجة الثانية . وهذا النقد صادر عن ضيق أفق عند هؤلاء الكُتّاب . فهذا التصنيف الذى ذكرناه لا يمس حقوق المواطنة من قريب ولا من بعيد بالنسبة للذمِّى المقيم إقامة دائمة بين المسلمين . وقد رأينا أن الذمِّى يمتع بجميع الحقوق والواجبات إلا ما كان متصلاً بعقيدة المسلمين فلا يُطلب منه ولا يُكره عليه ، وكذلك له حق تولى الوظائف العامة إلا الإدارة العليا . وله حرية العمل المشروع تجارة أو زراعة ، وحق التعليم العام والرعاية الصحية والاجتماعية . فأين التفرقة بين مواطن من الدرجة الأولى وآخر من الدرجة الثانية فى ظل النظام الإسلامى الرحيم العادل ؟

وهل جهل هؤلاء أو تجاهلوا أن الإسلام لا يبيح ظلم أحد لدينه أو عقيدته أو غُربته عن مجتمع المسلمين ؟ وهل نسوا أو تناسوا معاملة عمر بن الخطاب لشيخ طاعن فى السن من النصارى رآه يستجدى الناس ليدفع الجزية . فأسقط عمر عنه الجزية ، وأوصى المسلمين بالإحسان إليه .

وهل نسوا أو تناسوا أمر عمر باقتصاص ابن القبطى من ابن عمرو بن العاص لما لطمه لطمة أوجعته ، وكان عمرو بن العاص وقتذاك عاملاً عاماً على مصر (محافظ مصر) والقبطى أحد رعاياه ؟

وفى عصور الخلفاء - بعد عمر - كان غير المسلمين يتولون وظائف ذات شأن فى الدولة . فلم ينكر ذلك عليهم أحد ؛ لأنهم ليسوا مسلمين .

والغريب أن هؤلاء الناقدين من المستشرقين وعملائهم لا ينقدون إلا الإسلام . مع العلم بأن تصنيف المجتمع لم تخل منه دولة معاصرة مهما كان نصيبها من التحضر أو التخلف ؟ فأى دولة الآن لا تُصنِّف مَن يعيشون فيها إلى أغلبية وأقلية ؟ وأى دولة فى الوجود - الآن - تساوى بين أبنائها وبين الأجانب عنها فى كل الحقوق والواجبات ؟ وحتى الدول التى تمنح جنسيتها لبعض الأجانب ـ ـ ـ فإنهم بعد الحصول على الجنسية لا يتمتعون بما يتمتع به أبناؤها من حقوق. فَهُمْ قولاً وعملاً مواطنون من الدرجة الثانية .

وإذا قارنا بين المصطلح الإسلامى : « مستأمن » أو « ذمِّى » ، وبين مصطلحى الدولة الحديثة : « أجنبى » و « مجنَّس » وجدنا الاصطلاح الإسلامى أحب إلى النفس وآلف من نظيره المعاصر ، فمصطلح « مستأمن » الإسلامى يوحى بالأمن والحماية . أما مقابله « أجنبى » الذى يُطلق على غير مواطنى الدولة فإنه يوحى بالانفصال والغُربة .

وكذلك مصطلح « ذمِّى » الإسلامى فإن معناه أن مَن يُطلق عليه هذا الوصف له ذمّة المسلمين وعهدهم فلا يُخان ولا يُغدر . أما مقابله فى الدولة الحديثة وهو « مجنَّس » فيخلو من ذلك المعنى الكريم الذى دلّ عليه المصطلح الإسلامى : « ذمِّى » ، فضلاً عما يوحى به لفظ « مجنَّس » الذى قد يعنى « دخيل » من انفصال وحطة .

وبقى مصطلح إسلامى آخر كان كثير الشيوع فى صدر الإسلام . حيث كانوا يطلقون على مَن يلتحق بقبيلة أو جماعة - وهو أصلاً ليس منهم - مصطلح : « مولى » فيقولون : فلان مولى فلان . والموالاة فى الإسلام عقد بين طرفين كل منهما يطلق عليه « مولى » . وهذا الاصطلاح أكرم من مصطلح « مجنَّس » لأن من معانى « مولى » : الصديق . الحليف ، وهما ينطبقان تماماً على مَنْ على جنسية قوم ليس هو فى الأصل منهم .

وهكذا يتضح للقارئ الكريم أن ما عدَّه المستشرقون وعملاؤهم عيباً ونقصاً وانتهاكاً لحقوق الإنسان فى الإسلام هو على عكس ما يقولون . وهؤلاء - سواء أكانوا مستشرقين أو عملاء لهم - يقولون ما يقولون ، إما عن جهل ، وإما عن تجاهل وحقد . أو عنهما معاً . وتبقى - بعد ذلك - حقيقة ناصعة ، وهى أن الإسلام هو الإسلام سمواً ورفعة . لن ينال منه جهل الجاهلين ، ولا حقد الحاقدين. ومثل أعدائه مثل رجل كره شروق الشمس فراح يحجب ضوءها بأطراف ثوبه ، فلم يحتجب ضوؤها وما نال ذلك الأحمق إلا الافتضاح والتعرى .

* * *

الفقه الإسلامي .. تقليد ومحاكاة للفقه الروماني .. ؟!

هذه الدعوى إحدى صور تصفية الإسلام ، وتجريده من خصائصه الذاتية فى كتابات المستشرقين . فالإسلام كله - فى نظرهم - استعارات قابلة للرد إلى أصولها من حضارات ومعارف الأمم ؟! ومَن أكثر خبرة ومهارة من السادة المستشرقين العالمين ببواطن الأمور ؟ ومَن أكثر منهم جرأة وإقداماً على اختراق الموانع أياً كانت ، وبخاصة إذا كانت تلك « الموانع » منصوبة حول حقول الإسلام وحماه ؟ والفقه الإسلامى باعتباره أضخم وأروع ثروة تشريعية ما كان ليسلم من اعتداءات المستشرقين وافتراءاتهم ، إنه - فى نظرهم - سلع مستعارة سطا عليها المسلمون من الخارج ، وآن الأوان لرد تلك السلع إلى منتجيها الأصلاء . وكلمة واحدة من مستشرق - هكذا تصوروا - كفيلة بنسف ذلك الصرح العظيم ؟!

*

● **الدعوى والدليل :**

قال شاعر حكيم :

لـي حيلـة فيمـن ينم وليس فى الكذّاب حيلة
مـن كـان يخلق ما يقول مخيلتـي فيـه قليلـة

النمّام والكذّاب صنوان فى شجرة واحدة هى : الإجرام . بَيْد أن النمّام يسعى بالفساد بين الناس ناقلاً ما يقول هذا فى ذاك . أما الكذّاب فهو يصنع أسلحة الفساد متى وكيفما يشاء . إنه الكذب ، وميدان الكذب واسع ؛ لأن الكذّاب لا يتقيّد بأصل منقول ، بل يستطيع أن يورد ألف كذبة فى لحظة ، لذلك فإن الشاعر يقر بضعف حيلته أمام الكذّاب ؛ لأن الكذّاب يخلق ما يقول فلا يعجز .

والسادة المستشرقون أكثر بضاعتهم هى الكذب إذا كتبوا عن الإسلام أو ما يتصل به من أمور . ولما نظروا فى الفقه الإسلامى هالهم جوانب العظمة والعبقرية فيه . ثم حملهم حقدهم على هدمه . فما كان منهم إلا أن قالوا : إن الفقه الإسلامى ، متأثر إلى حدٍ بعيد بالقانون الرومانى . وبعضهم لا يكتفى بمجرد التأثر فيذهب إلى أبعد من هذا ويدَّعى أن الفقه الإسلامى هو هو القانون الرومانى مع تعديلات طفيفة أدخلت عليه ؟!

هذه هى الدعوى . ما دليلها عندهم يا ترى ؟

*

● الدليل :

استند القائلون بهذا القول إلى دليل عندهم مكوَّن من شقين :

الأول : أن القانون الرومانى أسبق وجوداً من الشريعة الإسلامية .. ؟!

والثانى : وجود بعض التشابه فى الأصول والقواعد بين القانون الرومانى والشريعة الإسلامية . ؟!

* *

● تعقيبات :

هذه الدعوى من أكذب الدعاوى التى تبنَّاها الاستشراق ضد الإسلام . وما استندوا إليه من دليل - بشقيه - وهمٌ زائل .

* فمجرد التشابه لا يكفى دليلاً على مدَّعاهم حتى يثبت أخذ اللاحق عن السابق بدليل يقينى لا يقبل الجدل .

* وكون القانون الرومانى أسبق وجوداً فى التاريخ من وجود الشريعة الإسلامية ليس معناه أن الفقه الإسلامى أخذ عنه شيئاً ، وإلا لكان كل سابق فى التاريخ أصلاً لكل لاحق . وهذا بعيد كل البُعد عن المنهج العلمى الصحيح .

* إن بعض مَن درس القانون الرومانى دراسة متخصصة ، ثم ألمَّ بأصول الفقه الإسلامى وقدر صالح من جزئياته ينفى - وبشكل قاطع - وجود صلة بين قانون روما وفقه الإسلام ومن هؤلاء الفقيه الفرنسى « زيس » إذ يقول :

« إنى أشعر حينما أقرأ فى كتب الفقه الإسلامى أنى نسيت كل ما أعرف عن القانون الفرنسى أو القانون الرومانى ، وأصبحتُ أعتقد أن الصلة منقطعة بين الشريعة الإسلامية وهذين القانونين .

فبينما يعتمد قانوننا على العقل البَشرى ، تقوم الشريعة الإسلامية على الوحى الإلٰهى ، فكيف يُتصور التوفيق بين نظامين قانونيين وصلا إلى هذه الدرجة من الاختلاف » .

* إن الفقه الإسلامى نشأ وترعرع منذ صدر الإسلام الأول - قبل حدوث عصر الترجمة من السريانية إلى العربية - على يد الرسول وأصحابه وكبار التابعين والطبقة التى تليهم ، فمذهب الإمام أبى حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعى كل هذه ظهرت قبل عصر الترجمة ، ومذهب الإمام أحمد لم يشذ فى أصوله عن أصول تلك المذاهب ، فكيف إذن يستقيم القول بأن الفقه الإسلامى تأثر أو كان صورة معدلة للقانون الرومانى ؟

* *

● **الفروق بين الاثنين :**

الفروق بين قانون روما وفقه الإسلام تنسف دعوى المستشرقين نسفاً تاماً :

١ - فالفقه الإسلامى مستمَد من الكتاب والسُنَّة أصولاً وفروعاً ، ومن اجتهاد العلماء المستند إلى الكتاب والسُنَّة . أما القانون الرومانى فمستمَد من القانون الطبيعى ، وهو وليد العقل المحض . وليس له مصادر تشريعية قد تقيَّد بها .

٢ - الفقه أو الشريعة الإسلامية تخاطب جميع المكلَّفين ولم تفرِّق بين جنس أو نوع أو بيئة . والقانون الرومانى ، وهو أبو القوانين الوضعية - الآن - كان خاصاً بجنس معيَّن فى زمن معيَّن ومكان معيَّن .

٣ - الفقه الإسلامى أعم وأشمل من حيث أنه يشمل كل أحوال الناس ديناً ودنيا ، معاملات وعبادات . والقانون الرومانى شأنه شأن القوانين الوضعية

محصور فى دائرة تنظيم العلاقات وفض المنازعات فى الأحوال المدنية والجنائية أى محصور فى الجانب الخاص بالجريمة والعقاب والفصل بين الخصوم فى المنازعات .

٤ - الشريعة الإسلامية تجمع بين القواعد والأصول القانونية والقواعد والأصول الأخلاقية ، بينما يقتصر القانون الرومانى على الجوانب القانونية ولا يقيم وزناً للأخلاق .

٥ - ومما يؤكد أصالة الفقه الإسلامى أن جميع أحكامه التفصيلية ترجع إلى نص تشريعى إما من الكتاب ، وإما من السُنّة ، أو الاجتهاد الذى يُشترط فى صحته وقبوله أن يكون مبنياً على سند صحيح من مصادر الشريعة فهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصادر التشريع فى الإسلام أصلاً أو قياساً . فما الحاجة - إذن - إلى تلمس مصادر أجنبية له هو ليس فى حاجة إليها ؟!

إن السادة المستشرقين يجهدون أنفسهم كثيراً لتصفية الإسلام وتجريده من خصائصه . ومحاولاتهم - دائماً - تبوء بالفشل . وهدفهم من هذه المحاولات اليائسة واحد من أمرين :

إما القضاء على الإسلام إن أمكن . وإما تحجيمه وحصره فى نطاق ضيق بتزهيد الناس فيه ، وإظهاره فى مظهر يسلب عنه الجاذبية التى كانت السبب فى انتشاره من قديم الزمان .

* * *

نظام الحكم فى الإسلام .. فردى مستبد .. ؟!

أعد المستشرق الإنجليزى « آرنولد » دراسة عن نظرية الخلافة فى الإسلام ، باعتبارها كانت تمثل نظام الحكم إدارياً . وانتهى فى دراسته إلى عدة تصورات واهمة ، وأحكام لم - ولن - يساعده عليها دليل أو حتى شبه دليل . ولم يقتصر نقده لنظرية الخلافة على الشكل الإدارى فحسب ، بل أشرك الجانب النظرى أو الدستور الذى تم فى ظله قيام الإدارة العليا - السلطة الحاكمة - وممارسة العمل فى الإدارة وفى التوجيه على هدى ذلك الدستور . ولما كان الدستور الذى التزمت به الخلافة فى صدر الإسلام هو كتاب الله وسُنَّة رسوله . كان نقد « آرنولد » موجهاً إليهما معاً كما كان موجهاً إلى سيرة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم . والوصف العام الذى وصم به « آرنولد » نظام الحكم فى الإسلام هو : الفردية والاستبداد .. ؟!

* *

● نقده للجانب النظرى :

ينعى « آرنولد » على القرآن وعلى السُنَّة أن فيهما أوامر حاسمة بطاعة ولى الأمر - الخليفة - وأن فيهما نواهى عن عصيانه ومخالفته . ويذكر بعضاً من الآيات والأحاديث القاضية بهذه المعانى ، وكأن الإسلام عند « آرنولد » يحيط الخليفة - الحاكم - بهالة من التقديس تجعله فوق مستوى المحكومين ، وتضفى عليه صفات تجعله فى مأمن من المسئولية على ما يفعل أو يدع . وهذا من شأنه أن يطلق عنان الحكام فلا يخشون عاقبة ظلم أو انحراف ، وتقل عندهم الرغبة فى العدالة والاستقامة .

وفَهِمَ « آرنولد » من الأمر بوجوب طاعة الولاة - الحكّام - أن الحاكم تجب طاعته فى نظام الحكم الإسلامى سواء أكان عادلاً أو ظالماً ، وسواء دعا إلى معروف أو إلى معصية ؟! ولماذا لا . والآيات والأحاديث ترفعه مكاناً علياً فوق المحكومين ، وتجعله ذا سُلطة إلٰهية المصدر والحماية .. ؟!

ويقول « آرنولد » : إن الخلافة الإسلامية لهذه الاعتبارات كانت تمثل نوعاً مستبداً من الحكم ، يضع فى أيدى الحكّام سُلطات مطلقة من القيود تفرض على المحكومين طاعة عمياء لا تعرف التردد ، ولا تقبل النقد أو المراجعة من قِبَل غير الحكام .

أما الفردية فلعل « آرنولد » ومَن شاركه فى هذا التصور وصف به نظام الحكم فى الإسلام لخلو نظام الخلافة من جبهة معارضة وأحزاب مختلفة الميول كما هو متبّع – الآن – فى نظم الحكم الأوروبية والذين حذوا حذوها من دول الشرق .

إذا صح هذا – ولا نخاله إلا صحيحاً – فإنه يمكن القول بأن « آرنولد » يحمل منهج الحكم – الدستور – الإسلامى الجزء الأكبر من الظلم والاستبداد بينما يجعل « الفردية » مجرد مظهر للشكل الإدارى أو استجابة للنصوص الدستورية التى قامت الخلافة فى ظلها وعلى هداها .

* *

● نقض هذه التصورات :

يستوى صواب « آرنولد » وخطؤه فيما وصف به نظام الحكم فى الإسلام ؛ لأن صوابه – وهو قوله بوجوب طاعة الحاكم – انتهى به صاحبه إلى خطأ من ناحيتين :

إحداهما : توسيع دائرة الطاعة إلى ضعف مساحتها التى وضعها فيها الإسلام .

والأخرى : أنه رتب على الطاعة ما لم يرده منها الإسلام ، لذلك قلنا إن خطأه وصوابه كليهما خطأ . وإليك البيان :

● وجوب الطاعة :

صحيح أن القرآن أوجب طاعة ولاة الأمر كما فى قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ .. ﴾ (١) ، وكذلك السُّنَّة كما فى قوله عليه السلام : « اسمعوا وأطيعوا وإن أُمِّر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » ، ولكن هذه الطاعة مقيَّدة لا مطلقة . مقيدة بما إذا أمر الحاكم بطاعة ، أما إذا أمر بمعصية فلا طاعة إذن . وفى ذلك يقول النبى ﷺ : « إنما الطاعة فى المعروف » ، ويقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .. وبهذا ندرك مدى الخطأ الذى وقع فيه « آرنولد » ، حيث عمم وجوب الطاعة فى المعروف والمعصية معاً . وهذا غير صحيح . ولعل « آرنولد » اختلط عليه الأمر بين حالتين فلم يفرِّق بينهما ، وهما : طاعة الحكّام إذا أمروا بمعروف فيه نفع للناس ، ثم الصبر على جَور الحكّام إذا أدّى الخروج إليهم إلى وقوع فتن واضطرابات تُنتهك فيها الحرمات وتُهدر دماء الأبرياء .

الفرق كما ترى كبير . و « آرنولد » - إذا افترضنا أنه باحث موضوعى لا متحامل - اختلط عليه وجوب الطاعة فى المعروف بالصبر على جَور الحكّام الظالمين ، ثم انتهى إلى نتيجة باطلة وهى أن نظام الحكم فى الإسلام يوجب طاعة الحكّام عدلوا أو ظلموا ، وهذا خطأ فاحش وقع فيه « آرنولد » ومشايعوه.

والحاكم فى الإسلام ليس ذا سُلطة مطلقة كما قال « آرنولد » ، بل هو مقيَّد من ناحيتين :

الأولى : الالتزام الكامل بشريعة الله بمعناها الشامل للكتاب والسُّنَّة وإجماع المسلمين .

والثانية : موافقة الأمة له على ما يفعل أو يترك . وهنا يبرز مبدأ الشورى وهو من أعظم أسس الحكم فى الإسلام . فعلى ولى الأمر أن يستشير الرعية فى الأمور الطارئة المهمة ، سواء أكانت الشورى نوعية (المجالس النيابية)

---

(١) النساء : ٥٩

أو شاملة (الاستفتاء العام) ، والمهم أن تكون فيه شورى حرة وأن تُحترم نتائجها. وهي ملزمة للحاكم تنفيذاً لإرادة الأمة .

وقد كان مبدأ الشورى معمولاً به في حياة النبي ﷺ نفسه ، ولدى الخلفاء من بعده امتثالاً لأمر الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (١) .

وإذا انحرف الحاكم عن هذه المبادئ وجب نصحه ، فإذا أصرَّ على انحرافه وكان الخطأ جسيماً فلعلماء الأمة حياله مذهبان : الصبر على جَوره حتى يُحكم الله ما يريد . وهذا مذهب أهل الحديث . ثم نزع الثقة وعزله إذا لم يؤد عزله إلى فتنة طاحنة . وهذا مذهب الفقهاء والمتكلمين .

فأين السُلطة المطلقة التي ادَّعاها « آرنولد » للحاكم المسلم يا ترى ؟!

أما إذا أراد بخلو نظام الخلافة من جبهة معارضة ، فهذا قصور في الفهم من « آرنولد » . فالمعارضة كانت ملازمة لنظام الحكم في الإسلام بدءاً من حياة النبي ﷺ . وكان عليه السلام يعدل عن رأيه ويعمل بالرأي المعارض إذا رآه أكثر صواباً كما حدث في غزوة بدر وغيرها . واستمرت المعارضة في عصور الخلفاء ، وكانت هادئة رزينة في عهود أبي بكر وعمر وشطر عهد عثمان الأول . وعنيفة هوجاء في شطر عهد عثمان الثاني وفي عهد الإمام عليّ رضي الله عنهم أجمعين . فقد عارض الصحابة أبا بكر في حروب مانعي الزكاة . وعارضت امرأةٌ عمرَ في الحد من مهور النساء ، وغير ذلك كثير ، والفرق بين نظام المعارضة في النظم الديمقراطية المعاصرة وبين المعارضة في عصر الخلفاء أنها - الآن - لها أحزاب وكتل حددت وظيفتها سياسياً بأن تقول : « لا » في غالب أمورها . أما في نظام الخلافة فكانت المعارضة من حق كل ذي رأي . وهي ليست وظيفة ملازمة لصاحبها ، بل قد يكون الرجل معارضاً في موقف ، موافقاً في آخر حسب القضية المطروحة ومراعاة الأكثر نفعاً . فهي معارضة مرنة تدور مع المصلحة أينما كانت .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٥٩

الفلسفة الإسلامية يونانية بحروف عربية .. ؟!

الفريق الذين نتحدث عنهم من المستشرقين ، وهم تلك الفئة الناقمة على الإسلام بذلوا جهوداً مضنية فى تعرية الإسلام من كل مزاياه وفضائله ، ووصفه بكل نقيصة . وكان مما سوّلت لهم أنفسهم أن يقولوه على الإسلام : أن الفلسفة التى عزيت إليه فلسفة مستعارة ، وليست أصيلة فيه . وأن المسلمين سطوا على الفلسفة اليونانية ، ونسبوها إلى الإسلام ، بعد أن ألبسوها ثوب الحروف العربية . والعقل الإسلامى - حسب زعم هؤلاء الحاقدين - عقل قاصر عن التفكير الفلسفى . عاجز عن إدراك العلوم والفنون ، وأن المسلمين - عموماً - وُجدوا ليكونوا مقودين لا قادة ، تابعين لا متبوعين . فهم - دائماً - فى حاجة إلى وصاية عليهم من أوروبا . ربة الحضارة والمدنية ؟!

ومن الأخطاء التى تقع فيها بعض النظم الإسلامية منذ بداية القرن العشرين أن نستعين بخبراء من أوروبا ، وهؤلاء كثيراً ما يكونون أعداء فى ثياب أصدقاء . ثم يفرضون أستاذيتهم على شبابنا الجامعى وغيره فيسقونهم الدسم الممزوج بالسم . من ذلك أن مصر حين أنشأت الجامعة المصرية لأول مرة استعانت بأساتذة من الغرب لا فى مجال الكيمياء مثلاً ، بل فى مجال الفنون والآداب والفلسفة ، وبخاصة فى كلية الآداب التى كان عميدها آنذاك الدكتور طه حسين رسول ثقافة الغرب وفنونه . فاستدعى بعض المستشرقين للتدريس للطلاب المصريين ، وكان منهم « سانتلانا » . وقد بدأ « سانتلانا » منذ أول محاضرة له فى الجامعة المصرية بانتقاص الإسلام فقال :

« إن العلوم الإسلامية - ومنها الفلسفة - مؤسسة منذ نشأتها على علوم اليونان وأفكار اليونان ، بل وعلى أوهام اليونان » ؟!

وانطلت هذه المقولة على المثقفين فى مصر وفى غير مصر ، ولا يزال التمسك بها يحتل مساحات واسعة فى أذهان المثقفين . وإذا كان « سانتلانا » قد حصر مصدر الفلسفة الإسلامية فى فكر اليونان . فإن غيره - من بعده - قد توسع فى فكرة هذه المصادر فيجعلها أربعة وهى :

١ - الفلسفة اليونانية كما قال « سانتلانا » ؟

٢ - الفلسفة اليهودية ؟

٣ - الفلسفة المسيحية ؟

٤ - الفلسفة الرومانية ؟

وهكذا لم يصبح للإسلام نفسه أى أثر أو توجيه للعقل الإسلامى فى مجال الفكر الفلسفى ، بل إن فلسفة الإسلاميين أشبه ما تكون بقميص مكوّن من أربع رقع ؟! كلها مستعارة ؟

* *

● **خلط مقصود :**

وفى المسألة خلط مقصود . ذلك أن الذين يدّعون أن الفكر الفلسفى الإسلامى مستعار من مصادر أجنبية على نحو ما تقدّم خلطوا بين مرحلتين كان الواجب - للأمانة العلمية - أن يفرّقوا بينهما . ونعتقد أن هذا الخلط متعمد ومقصود لكى يتاح لهم تجريد الإسلام من فضائله وخصائصه واحدة تلو الأخرى !

كان يجب عليهم أن يفرّقوا بين مرحلة النشأة للتفكير الفلسفى فى الإسلام وبين مرحلة متأخرة احتك فيها الفكر الإسلامى بثقافات وفكر الشعوب غير العربية بعد اتساع رقعة الإسلام وحلوله فى بيئات لم يكن له بها عهد من قبل .

ففى المرحلة الأولى .. نشأ الفكر الفلسفى فى الإسلام نشأة إسلامية خالصة كان مصدرها القرآن الحكيم بما أثار من قضايا فكرية وعقدية ، وبما أتاح للعقل

من مجالات للفكر والتأمل . والدعوة إلى النظر فى النفس والكائنات الحية : حيوانات - نباتات ، وغير الحية : أرض - سماء - جبال .. إلخ .

بل إن القرآن كان مرجعاً لكثير من الآراء والمذاهب الكلامية ، فالمعتزلة - مثلاً - كانوا يجدون فى ظواهر نصوصه أدلة على آرائهم التى خالفوا فيها أهل السُنّة . وأهل السُنّة - فى الوقت نفسه - يجدون فى نصوصه أدلة على آرائهم التى خالفوا فيها المعتزلة ، مثل : أفعال العباد هل هى مخلوقة لله - وهذا رأى أهل السُنّة - أم العبد هو خالقها وهو رأى المعتزلة ، ومثل : عقيدة الجبر التى تقابل عقيدة الاختيار ، وهى مسألة طال حولها الجدل . ومثل : إسناد أفعال القبح لله كالختم على القلوب . هل جائز فى حق الله أم ممتنع ؟ ومثل : خلود أصحاب الكبائر فى النار ، ورؤية الله بالأبصار هل هى ممكنة فى الآخرة أم غير ممكنة ؟ وما أكثر القضايا من هذا النوع التى كثر حولها الجدل ، وهى قضايا فكرية فلسفية أكثر القرآن من الإشارات إليها .

فى هذه المرحلة كانت نواة الفكر الفلسفى قد وجدت فيها متدرجة فى النمو والاكتمال . ويؤيد هذا أن واصل بن عطاء حين انفصل عن مجالس أستاذه الحسن البصرى المتوفى عام ۱۱۰ هـ قد أسس المذهب المعتزلى هو وعمرو بن عبيد قبل اختلاط المسلمين بغيرهم من أمم الحضارة . وقبل ترجمة كتب الفكر الأجنبى - وبخاصة الفكر الفلسفى الحر - إذ لم تتم هذه الترجمات ، ومنها كتب الإلهيات إلا فى عهد دولة بنى العباس .

أما مرحلة الاختلاط وما بعد الترجمة ، فلا ينكر أحد اشتغال الفلاسفة الإسلاميين بفلسفات غيرهم من الشعوب والديانات الأخرى ، وكون الفلاسفة الإسلاميين اشتغلوا بالفكر الفلسفى الأجنبى ، فهذا ليس معناه أنهم كانوا عالة عليه . بل كانت لهم أسسهم الفلسفية الخاصة بهم والتى مصدرها الإسلام نفسه . ومع هذا فإن اشتغالهم بالفلسفات الأجنبية لم يفقدهم أصالتهم قط .

وقد حدَّد الكندى - فيلسوف العرب - موقف الفلاسفة الإسلاميين من الفكر الفلسفى الأجنبى الذى نظروا فيه حيناً من الدهر ، حدده فى ثلاثة عناصر :

الأول : قبول ما فيه من حق وصواب بعد تمحيصه والتدقيق فيه .

الثانى : رفض ما فيه من باطل .

الثالث : تكملة ما فيه من نقص أو قصور .

إذن .. لم يكن الفلاسفة الإسلاميون مجرد مقلِّدين ونقلة عن غيرهم ، بل كانت لهم شخصيتهم البارزة فيما درسوا ، فوقفوا منه موقف الناقد الواعى البصير . ولم يقعوا صرعى لمعارف الأمم وثقافاتهم .

أضف إلى ذلك شروحهم المسهبة لفكر اليونان وغيرهم ، والعقل الشارح ندٌّ وقرين للعقل المنشئ .

ومن البداية أن فضل الفلاسفة الإسلاميين على أوروبا فى نهضتها الحاضرة كان عظيماً باعتراف المنصفين من أبناء أوروبا نفسها وكان ذلك الفضل يتمثل فى محورين كبيرين :

الأول : أن أوروبا لم تعرف حضارات الأمم القديمة إلا عن طريق ما كتبه عنها الفلاسفة العرب المسلمون كابن رشد وابن سينا وابن خلدون وغيرهم كثيرون .

الثانى : المعارف الإسلامية الخالصة . وفى مقدمتها العلم التجريبى الذى يقوم على النظر والمشاهدة والتجربة والاختبار . هذا العلم هو السبب فى نهضة أوروبا المادية المعاصرة . وقد نقله عن المسلمين « روجر بيكون » الذى تعلَّم اللغة العربية ودعا بنى جنسه لدراستها وتعلمها لأنها كانت لغة العلم والمعرفة خلال سبعة قرون ، من القرن الثامن الميلادى حتى القرن الثالث عشر .

وهذا الذى سقناه - فى إيجاز شديد - يدحض دعوى المستشرقين بأن العقل الإسلامى ناضب فى مجال العلم والفلسفة . وقد عالج هذه الدعوى وكشف عن زيفها نفر قليل من المسلمين المحدَثين ، مثل الإمام عبد الحليم محمود شيخ

الأزهر الأسبق ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور الأهوانى ، والدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، والدكتور محمد يوسف موسى .

أما الكثرة الكاثرة من المثقفين فوقعوا صرعى الفكر الأوروبى ، وراحوا يرددون فى غير إدراك مزاعم المستشرقين ، وكان حرياً بهم أن يفطنوا للقضية من أساسها . فمزاعم المستشرقين تخدم فكرة سيادة الغرب على الشرق الإسلامى . وأن الجنس الآرى (الأوروبى) هو منبع العبقريات ومصدر العلوم والمعارف . أما الشرق الإسلامى فليس له فى هذه المجالات أثر يذكر .

هذه القضية تدور وتلف حولها معظم كتابات المستشرقين ، بتأييد وعون مادى وغير مادى من دولهم التى يزداد الآن حقدها على العرب والمسلمين لدرجة أن كثيراً منها يعد قوانين وتشريعات تمنع نزوح العرب والمسلمين إليها . هذا ما بدا من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

أجل .. إن كنتم تعقلون .

* * *

(١) آل عمران : ١١٨

الشافعى هو الذى جعل السُنَّة مصدراً للتشريع .. ؟!

زعم المستشرق الفرنسى « جوزيف شاخت » أن السُنّة النبوية - بأنواعها الثلاثة : القولية والعملية والتقريرية - ظلت بمنأى عن التشريع الإسلامى ، لا يُلتفت إليها ولا يُعمل بها ، وليست معدودة مصدراً للتشريع لا فى عهد النبى ولا عهد الخلفاء الراشدين الأربعة ، ولا فى عهد كبار التابعين . وإنما يرجع الفضل فى جَعْل السُنّة مصدراً ثانياً للتشريع إلى الإمام الشافعى رضى الله عنه. ثم أدرجها الفقهاء بعد الشافعى ضمن مصادر التشريع ، بعد أن ظلت نحو قرنين من الزمان من ظهور الإسلام أمراً معدوماً لا وزن له .. ؟!

والهدف الذى يريده « شاخت » وأمثاله التأكيد على أن المصدر الثانى للتشريع المعتَرف به لدى جميع علماء الأمة هو عنصر بَشرى دخيل ، وليس أمراً نزل به وحى من عند الله ؟! وما دام الأمر كذلك فليس على المسلمين حَرَج فى كل عصر ومصر أن يهملوا السُنّة ولا يتقيدوا بأوامرها ونواهيها وتوجيهاتها أياً كانت ؟!

ويستطرد « شاخت » فيتهم الإمام الشافعى بعدم الأمانة العلمية ، وهذا مسلك كان ضرورياً أن يسلكه « شاخت » للطعن فى الإمام الشافعى نفسه حتى يظهره فى صورة الأفّاق المزوِّر فى نظر المسلمين ، فلا يرون حرجاً فى إهمال العمل بالسُنّة ما دامت - حسب زعم شاخت :

أولاً : ليست مصدراً تشريعياً أقرَّه الوحى .. ؟!

ثانياً : وأن الذى أضفى عليها سمة المصدرية التشريعية رجل أفّاق تنقصه الأمانة العلمية .. ؟!

* *

ومزاعم « شاخت » هذه قد تأثر بها بعض المفتونين من أبناء المسلمين مثل محمود أبو رية الذى أكثر الطعون فى السُنّة فى كتابه « أضواء على السُنّة المحمدية » ، ثم حسين أحمد أمين فى مقالاته الصحفية وغيرهما كثيرون قد سلكوا هذا المسلك . وقالوا منكراً من القول وزوراً ، ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ويا شقاء المسلمين لو كانت مصادرهم المعرفية عن السُنّة محصورة فيما يكتبه المستشرقون ومَن دار فى فلكهم من أبناء المسلمين المفتونين الجهلة .

وها نحن أولاء نتعرض لهذا الهراء الذى تفوّه به هؤلاء الدّجالون من حزب الشيطان :

● السُنّة فى القرآن الكريم :

إن الذى جعل السُنّة مصدراً للتشريع هو القرآن الكريم الموحى به من لدن رب العالَمين ، وليس الإمام الشافعى ، وما الإمام الشافعى إلا تابع لكتاب الله ، وما كان له ولا لغيره - رضى الله عنه - أن يبتدع فى الدين ما ليس منه ، وهو الإمام التقى الورع . والنصوص القرآنية فى هذا الشأن كثيرة نكتفى منها بما يأتى :

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) .

* ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾ (٢) .

* ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٣) .

* ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٤) .

---

(١) النساء : ٥٩ — (٢) الحشر : ٧

(٣) الأحزاب : ٣٦ — (٤) النساء : ٦٥

فهذا هو القرآن يقرر فى أكثر من موضع أن السُنَّة مصدر ثان من مصادر التشريع الإسلامى قبل أن يولد الإمام الشافعى بأكثر من مائة وخمسين عاماً .

*　*

● السُنَّة فى السُنَّة :

ووردت فى السُنَّة أحاديث متواترة بجعل السُنَّة مصدراً من مصادر التشريع بل ويضيف بعضها سُنَّة الخلفاء الراشدين . ومن ذلك : « إنى لتارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسُنَّتى » .

- « عليكم بسُنَّتى وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجد » .

- وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه قاضياً لأهل اليمن : « بِمَ تقضى فيهم » ؟ قال : بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد فى كتاب الله » ؟ قال : فبسُنَّة رسول الله . قال : « فإن لم تجد فى سُنَّة رسول الله » ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو » .

*　*

● السُنَّة عند الأصوليين والفقهاء :

دأب الأصوليون جميعاً وهم يضعون القواعد الكلية وأصول الأحكام على جَعْل السُنَّة المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن . والفقهاء وهم يستنبطون الأحكام التفصيلية من الأصول الكلية لم يشذ منهم أحد عن اعتبار السُنَّة مصدراً تشريعياً . وهم متفقون جميعاً على أن صلة السُنَّة بالقرآن أو دورها فى التشريع له ثلاثة عناصر :

الأول : أن تكون السُنَّة مؤكدة ومقررة لما ورد فى القرآن كالنهى عن عقوق الوالدين ، والحث على الجهاد .

الثانى : أن تكون السُنَّة شارحة وموضِّحة لما ورد فى القرآن كنصاب الزكاة والمقادير التى تخرج من رءوس الأموال ، وعدد ركعات كل صلاة مفروضة وكيفية الدخول فى الصلاة والخروج منها .. إلخ .

الثالث : أن تستقل السُنّة بالتشريع أمراً ونهياً ، كفرضية زكاة الفطر ، والنهى عن أكل لحوم الحُمر الأهلية .

* *

● عصر الإمام الشافعى :

إن حجِّية السُنّة ومصدريتها فى التشريع من الأمور المعروفة فى الدين بالضرورة منذ عصر الرسالة . ومنكرها كافر حلال الدم . والإمام الشافعى مسبوق بإمامين جليلين من أئمة الفقه الأربعة ، وهما الإمام أبو حنيفة (٨٠ - ١٥٠ هـ) ، والإمام مالك (٩٣ - ١٧٩ هـ) أما الإمام الشافعى فمولود سنة (١٥٠ هـ) وتوفى سنة (٢٠٤ هـ) .

والإمامان الجليلان - أبو حنيفة ومالك - كان من أصول مذهبيهما سُنّة رسول الله ﷺ ، وللإمام مالك كتابه « الموطأ » وهو أول كتاب وُضع فى علم الحديث ، وقد وزع فيه الإمام الأحاديث التى جمعها على أبواب الفقه ، وأحاديث الموطأ كلها صحيحة سنداً ومتناً . ووجود موطأ الإمام مالك وحده دليل كافٍ على تكذيب دعوى « شاخت » أن السُنّة قبل الإمام الشافعى لم تكن مصدراً للتشريع ، بل لم تكن موجودة أصلاً ؟!

وهكذا يخبط المستشرقون خبط عشواء ، ولا يتورعون أن يرتكبوا كل حماقة ما دام الهدف هو النيل من الإسلام ، والله من ورائهم محيط .

* * *

تعدد الزوجات .. إسراف فى الشهوة .. ؟!

من أمثال العرب القديمة مثل يقول : « لا تعدم الحسناء ذاماً » . وفى الحقيقة أن هذا المثل يعبِّر عن سلوك بَشرى أصيل فى طباع النفس إذا توافرت دواعيه . ومن دواعيه الغيرة والحسد والحقد . فالحاسد والحاقد يحيل محاسن المحسود والمحقود عليه إلى مساوئ ، وكذلك الحرمان الذى يتولد عنه اليأس . وفى الوقت نفسه يقول بعض الشعراء مؤكداً ما جاء فى المثل المذكور .

حســـدٌ بلغنـــــه فى شأنها   وقديماً كان فى الناس الحسد

والحسناء كثيراً ما يكون لها حاسدات ذامات حاقدات . وهى بريئة من كل المغامز والعيوب . وقد سلك المستشرقون هذا المسلك تجاه الإسلام . فما حسن فيه إلا وهو قبيح عندهم ، وكل صواب فيه هو خطأ فى نظرهم ؟

ومبدأ تعدد الزوجات من المحاسن التى جاء بها التشريع الإسلامى منذ أربعة عشرة قرناً أو تزيد ، وهذا التشريع يعالج حالات لا يسلم منها مجتمع ، وحاجات قد تطرأ على بعض الأسر والمجتمعات ، ولو لم يضع لها الإسلام الحلول المناسبة لنجم عنها خطر جسيم .

وخلاصة مبدأ التعدد الزوجى فى الإسلام أنه أباح للرجل - إذا دعت الدواعى ، وتوافرت الشروط - أباح له أن يضم فى عصمته أكثر من زوجة بحد أدنى اثنتان ، وأقصى أربع زوجات . نقول : إنه أباح ولم يوجب ، والفرق كبير بين الإباحة والإيجاب . فالمباح لا يجب فعله ، والموجب لا يجوز تركه .

وشرط إباحة التعدد أن تدعو إليه حاجة معتبرة شرعاً لدى الفرد أو المجتمع . وشرطه وجوب العدل بين الزوجات إذا تعددن . الهدف من الزواج هو إعفاف النفس وإنجاب الذُرِّية وتبادل المودة والقرار النفسى . وبعد الزواج قد تظهر مفاجآت لم

تكن فى الحسبان تفقد الحياة الزوجية ثمارها أو بعض ثمارها كعقم الزوجة مثلاً والزوج شديد الرغبة فى الإنجاب ، أو كان بها عيوب تحول دون الاستمتاع بالحياة الدنيا مع اليأس من زوال تلك العيوب كأن يحل بها مرض مزمن .

فى هذه الحالة يجد المسلم مخرجاً من هذه الورطة ، فيتزوج بأخرى مع بقاء الأولى ، وبخاصة إذا كانت فى حاجة إلى كفالته ، والطلاق يُعرِّضها للفاقة والحرمان والضياع .

هذا مَثل يساق لبيان الضرورة التى تلجئ الفرد للاستفادة من مبدأ تعدد الزوجات .

وقد يتعرَّض المجتمع بأسره لظاهرة تزايد الإناث على الذكور تزايداً فاحشاً ، كما يحدث فى أعقاب الحروب .

أو يحتاج بلد إلى كثرة الإنجاب تحقيقاً لوفرة الأيدى العاملة اللازمة لتنفيذ خطط التنمية .

فى هاتين الحالتين يترأس مبدأ تعدد الزوجات قائمة الحلول ، وقد تعرَّضت إيران والعراق لظاهرة تزايد الإناث على الذكور عقب حربهما المعروفة فكانتا فى أمس الحاجة إلى الأخذ بهذا التوجيه الإسلامى الحكيم .

وعقب الحرب العالمية الأولى تعرَّضت ألمانيا لنقص شديد فى ذكورها مع كثرة الإناث . ومن بين الحلول التى كانت معروضة إباحة تعدد الزوجات ، وكان هو الحل الأمثل من بين الحلول . بَيْد أن الكنيسة سارعت إلى منع العمل به ، بحُجَّة أن فى تطبيق مبدأ تعدد الزوجات انتصاراً للإسلام على المسيحية ؟!

وفى تعرض المجتمعات للعمل بهذا التوجيه يقى التعدد المجتمع من عدة آفات :

أولاً : مكافة الحرمان . وذلك أن حرمان أعداد كثيرة من الإناث من متع الحياة الزوجية مصير محتوم لكثرة عددهن مع قلة الذكور والاقتصار على زوجة واحدة . والحرمان آفة مدمرة وخيمة العواقب .

ثانياً : محاربة الانحراف والرذيلة . وهما مصير محتوم كذلك للحرمان الذى أشرنا إليه . فاليأس من الزواج مع شدة الدوافع الشبابية يؤدى بالفتاة إلى الانحراف والانغماس فى الرذيلة . وينجم عن ذلك أخطار أخرى لا تخفى على أحد .

ثالثاً : فى الأخذ بمبدأ التعدد - إذا توافرت دواعيه وتحققت شروطه - صون للأخلاق ، واستجابة للفِطرة ، وتسام فى السلوك ، ورقى بالمجتمع فى مدارج الحياة الفاضلة .

رابعاً : توفير الطاقة البَشرية لخدمة خطط التنمية فى البلاد فى أعقاب الحروب وإغناء لها عن استيراد العمالة الأجنبية بما لها من مساوئ تفوق الجوانب الإيجابية فيها .

هذه بعض محاسن هذا التشريع ، لكن الحاقدين من المستشرقين يرون فى مبدأ التعدد إهانة للمرأة ، وإسرافاً فى الشهوة . وقد كذبوا وجاءوا بمنكر من القول وزوراً .

فأولاً : ليس فى مبدأ التعدد إهانة للمرأة المسلمة ، بل على العكس فيه تكريم لها وإعزاز ؛ لأن التعدد يجرى بين النساء لا بين الرجال . فالرجل يتزوج واحدة أو اثنتين أو حتى أربعاً . فأيهما أفضل للمرأة - عموماً - أن يصون الرجل ويعف أربعاً منهن مع قدرته على ذلك ، أم يقتصر على واحدة وتتعرض الأخريات للضياع والحرمان واليأس القاتل .

مبدأ التعدد كان سيكون فيه إهانة للمرأة لو كان التعدد يحصل بجنس آخر من غير جنسها إن صح هذا الفرض . أما والتعدد يحصل من جنسها فلا إهانة إذن .

هَبْ أن مجتمعاً تزيد إناثه على ذكوره بنسبة ٤٠٪ فالاقتصار على واحدة يعرِّض الأربعين الباقيات للحرمان واليأس والانحراف المزرى . وحين يبيح الإسلام التعدد يخطو خطوة حكيمة لينقذ الأربعين فى المائة الأخريات فهل فى هذا إهانة للمرأة أم تكريم ؟!

وليس فى مبدأ التعدد إسراف فى الشهوة بل هو تسام بها وتنسيق على وجه يدفع الفساد ومغبات السلوك . والتعدد لم يبح بغير ضوابط ، بل أحيط بضمانات خُلُقية ومادية كالحاجة إليه ووجوب العدل . ومع هذه الإباحة فإن التعدد فى أقصى صوره لم يتجاوز نسبة الاثنين فى المائة بالنسبة لجميع الزيجات حتى فى أكثر المجتمعات الإسلامية تطبيقاً له ، فأين الإسراف فى الشهوة يا ترى ؟

ومما يثيره هؤلاء المستشرقون وعملاؤهم أن التعدد أنانية ؛ لأنه وضع لتلبية رغبات الرجال دون النساء ؟ وهذا القول مدفوع كذلك . فقد وضحنا من قبل أن التعدد تستفيد منه النساء كاستفادة الرجال ، أو أكثر استفادة . هذه واحدة . أما الثانية فإن المرأة إذا وقع عليها ضرر من مفاجآت ظهرت بعد الزواج حالت دون قيام الحياة الزوجية على الوجه المطلوب فإن لها أن ترفع أمرها للقضاء ويصدر القاضى حكماً بتطليقها منه . مع ملاحظة أن الرجل حين يطلق زوجته قادر على الاقتران بأخرى فى أسرع وقت . أما هى فقد يعرِّضها الطلاق للخطر أو الثيوبة الدائمة ، إذ ليس فى مقدورها كأنثى أن تتقدم هى لخطبة فلان ؟!

* *

● وهُمْ .. لما منعوه :

هؤلاء الحاقدون على الإسلام يغمضون أعينهم عن عيوب حقيقية فى أوطانهم ، عيوب جرَّت عليهم مشقات لا حصر لها ، ويصوبون أنظارهم نحو المجتمعات الإسلامية فيجعلون بياضها سواداً ؟ ولذلك فإننا نسأل سؤالاً نراه ضرورياً هنا مؤداه : وهم لما منعوا التعدد ماذا كان مصير مجتمعاتهم ؟!

ومن المعروف أن العلاقات الجنسية فى الغرب لم تعد تخضع لضوابط أو معايير خُلُقية . بل اعتبرت مسألة لها أوثق صلة بالحرية الشخصية فيكفى فى وقوعها مجرد توافق رغبتين آثمتين ، واستباحوا صلة المخادنة لإشباع رغباتهم . فالرجل يخادن مَن يشاء من النساء ، والمرأة تخادن مَن تشاء من الرجال .

للرجل صديقات وللمرأة أصدقاء حتى لو كانوا متزوجين أو متزوجات . لذلك نتج عن هذه الفوضى فى الممارسات الجنسية عندهم الآفات القاتلة الآتية :

١ - تفكك الأسر وإهدار العلاقات الزوجية والانفصال بين الآباء والأمهات وبين الأبناء ذكوراً وإناثاً .

٢ - كثرة المواليد غير الشرعيين إلى نسبة تبلغ ٤٥٪ أو ٥٠٪ فى بعض المجتمعات الغربية .

٣ - تفشى الأوبئة والأمراض الخطيرة كالإيدز مثلاً ، وهو أخطر مرض نجم عن الشذوذ الجنسى فى الغرب . أما الشرق الإسلامى فقد حماه الإسلام من هذا الوباء إلا المستورد منه ، وفى نطاق ضيق .

ومن المناسب ذكره - هنا - أن مؤتمراً نسائياً عاماً عقد فى فرنسا فى الستينات ، وكان كل أعضائه - فيما أذكر من « الحقوقيات » - كان موضوع ذلك المؤتمر هو حقوق « الأمهات الآنسات » ؟!

وقد يتساءل القارئ : وهل تكون الأم آنسة ؟!

ويزول إنكاره لهذه التسمية إذا علم أن المراد بـ « الأمهات الآنسات » أولئك اللاتى ارتمين فى أحضان الرذيلة فاقترفن الزنا وحملن منه .. ثم هرب «الزانى » ، أما هى فقد لصقت بها الجريمة وأولدتها طفلاً أو طفلة . وصارت هى مسئولة عن الطفل وحدها . ومؤتمر الحقوقيات المشار إليه هَبَّ ليطالب بإصدار تشريعات لحماية هذه « الأم الآنسة » وحماية أولادها ؟!

فهى - إذن - أم لأنها ولدت ؟ وهى - إذن - آنسة ؛ لأن ولدها جاء عن طريق غير شرعى ؟

هذا ما صار إليه الغرب فى ظل حضارته المادية وإدارة ظهره لجميع الأديان .

وهؤلاء المستشرقون كان حرياً بهم أن يشغلوا أنفسهم بعيوب مجتمعاتهم وهى عيوب حقيقية ومدمرة . لا أن ينصبوا من أنفسهم قضاة لمحاكمة الإسلام . وصدق الشاعر الذى قال :

قبيح مـــن الإنسان ينسى عيوبـه   ويُظهر عيباً فى أخيه قد اختفى

والعيوب فى الإسلام نفسه معدومة من الأساس ، وليست خفية فتكون الجريمة فى إظهارها .

* * *

لا محاباة فى فتح مكة ..

بعد أن حقق الله الفتح المبين على أيدى رسوله وصحابته الأطهار يوم فتح مكة . وطهَّر صاحب الدعوة وأصحابه بيت الله الحرام من أرجاس الشيطان . ودانت ربوع مكة – وكانت عاتية – لأمر الله . بعد هذا كله أعلن صاحب الدعوة العفو العام عن أهل مكة ، وقد كانوا ناصبوا الدعوة وصاحبها والذين آمنوا بها العداء ، وآذوهم فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم ودينهم ، منذ أن جهر النبى بالدعوة إلى أن تمت الهجرة إلى المدينة المنوَّرة . ولكن سماحة الإسلام تجاوزت هذا كله فعفا عنهم صاحب الدعوة عام الفتح ، وكان قد جمعهم وقال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم » ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » هذا حق لا يمارى فيه إلا جاهل أو معاند .

* *

● بِمَ فسَّروا هذا العفو ؟

الذين قعدوا للإسلام بكل مرصد أساءوا تفسير هذه الواقعة ، واقعة العفو العام عن مشركى مكة عقيب الفتح . فأرجعوها إلى محاباة من صاحب الدعوة ؛ لأهل مشركى مكة ، لأنهم كانوا أقرباءه وعشيرته ، ومكة هى موطنه الأول ومولده ومنشؤه . وأحب البلاد إليه – كما جاء فى حديث الهجرة إلى المدينة .

والحق أنه لا محاباة ولا مجاملة . ووجه الصواب فى هذه الواقعة بيِّن إلا على العُمْى أو المتعامين .

فقد جعل الله مكة بلداً أو حرماً آمناً ، لا تشن فيها حروب ، ولا تسل فيها سيوف ، ولا تُشرع رماح . إلا لرد عدوان ، أو إخماد فتنة . هذا ما خصَّ الله به مكة المكرَّمة البلد الطيب الأمين .

ومما هو جدير بالانتباه إليه فى هذا الصدد أن مكة المكرّمة لم يقع فيها قتال فى الإسلام ، لا قبل الهجرة ولا بعدها حتى نهاية الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى اللّه عنه .

فعلى كثرة ما تعرَّض له المسلمون من تعذيب واضطهاد قبل الهجرة لم يقع بينهم وبين مشركى مكة قتال . ومعلوم أن السابقين إلى الإسلام قبل الهجرة طلبوا من صاحب الدعوة أن يأذن لهم بالقتال لرد العدوان ، لكنه عليه السلام كان يقول لهم فى كل مرة : « لم أوذن بقتالهم » .

وعدم الإذن بالقتال كان له حكمة وسر سيظهر فيما بعد .

وفى خروج الرسول وصحبه عام الحديبية انتهى الأمر إلى المعاهدة المعروفة بـ « صلح الحديبية » ولم يقع قتال . وإن كان النبى ﷺ وصحبه قد استعدوا له حين شاع أن مشركى مكة قتلوا عثمان بن عفان الذى أرسله صاحب الدعوة سفيراً إلى مكة بعد أن عسكر هو وأصحابه بالحديبية . ولكن كذب الشائعة منع من نشوب القتال . وعام الفتح المبين - فتح مكة - لم يقع قتال لاستسلام قريش للأمر وتركهم مكة ليدخلها المسلمون مكبِّرين مهللين بالنصر العظيم ، فما السر فى ذلك إذن ؟

*   *

● السر يكشفه صاحب الدعوة :

كشف صاحب الدعوة - صلى اللّه عليه وسلم - عن هذا وهو أن اللّه جعل مكة بلداً آمناً لم يحلها لأحد قبله ، ولم يحلها لأحد بعده ثم قال : « وإنما أُحِّلت لى ساعة من نهار ثم عادت حرمتها إلى يوم القيامة » ، فانتفاء وقوع قتال فى مكة إنما هو تدبير من حكيم عليم . وقد بيَّن النبى ﷺ أن اللّه رفع له حظر القتال يوم الفتح لو وقفت قريش فى طريق الفتح وصدَّت عن المسجد الحرام كما كانت تصنع من قبل ، ولكن قريشاً استسلمت فلزم رجالها بيوتهم أو خرجوا إلى شِعَب الجبال ولم يحمل منهم أحد سلاحاً ، فعلام يكون القتال إذن ؟

إن القتال - عموماً - مشروع فى الإسلام لأمرين :

أحدهما : رد العدوان . وقد تقدّم الحديث عنه والدليل عليه . وفى هذه الحالة يباح القتال ولو عند المسجد الحرام ، لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ (١) .

والثانى : إزالة العوائق من طريق الدعوة .

وشئ من هذين لم يقع يوم الفتح . فلا داعى للقتال إذن ، ومعلوم أن من أدب القتال فى الإسلام التوقف عنه إذا جنح العدو للسلم ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ (٢) .

ومن هذا كله يتضح أن السبب فى ترك قتال مشركى مكة يوم الفتح هو انعدام أسبابه ودواعيه ، لا محاباة صاحب الدعوة لقومه كما يحلو ترديده لبعض قصيرى النظر أو الموتورين من الإسلام .

ومن السياسات النبوية الرشيدة صدور العفو العام عن أهل مكة ، لأنه ما لم يكن داع للقتال فيجب حسم الأمر والتصرف السريع فى المشكلة من جذورها .

وكان للعفو العام الذى أعلنه صاحب الدعوة - عليه السلام - ثمار طيبة عادت على الدعوة بالخير العميم . إذ غزا النبى ﷺ بعفوه الكريم قلوب الناس ومشاعرهم فلم يبق بيت فى مكة إلا وقد دخله الإسلام . وسارع الناس لاعتناق الإسلام أفواجاً أفواجاً .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ (٣) .

هذا .. وقد تقدّم الحديث عن هذا الموضوع ، وأعيد هنا - لاختلاف الاعتبارات - على أن الحديثين يكمل أحدهما الآخر .

* * *

(١) البقرة : ١٩١ (٢) الأنفال : ٦١ (٣) سورة النصر كاملة .

... ولا قرصنة فى بدر .

من الوقائع الإسلامية التى أكثر المستشرقون حولها اللغط ، وحاولوا تشويه وجه الحق فيها : خروج النبى وصحبه لاعتراض قافلة قريش التجارية القادمة من الشام إلى مكة عبر حدود المدينة فى السنة الثانية من الهجرة . فقد وصفوا ذلك الخروج بأنه « قرصنة » وتهديد للأمن كما يفعل قُطّاع الطُرق . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . فخروج النبى ﷺ وصحبه الذى اعتبروه « قرصنة » أمر مشروع فى كل عُرف وقانون - فضلاً عن مشروعيته فى الإسلام . ويقينى أن المستشرقين يدركون هذا تمام الإدراك . ولكن حقدهم الأعمى حملهم على أن يفتروا على الإسلام ويهذوا كالمخمور أو المحموم .

ونحن لا نطالب المستشرقين - هنا - بأن يستقوا أحكامهم وتصوراتهم من واقع التشريع الإسلامى . وإنما نطالبهم بما يعلمون من القانون الدولى وفقهه . وهو على رغم أنه تشريع وضعى ، ففيه كثير من القواعد مستمَد من التشريع الإسلامى .

فمبدأ المعاملة بالمثل قاعدة محكمة فى القانون الدولى ، وهى قاعدة إسلامية وردت بها النصوص القطعية الدلالة والثبوت ، ولها فى الإسلام فى باب العقوبات مجال واسع .

وكان على المستشرقين لو كانوا باحثين موضوعيين أن ينظروا فى هذه الدعوى من خلال طرفيها لا من خلال طرف واحد ؛ لأن الحكم الذى أصدروه فيها حكم عاطفى رجحوا فيه جانب طرف ، وأهملوا الطرف الآخر إهمالاً كلياً فلم يقيموا له أدنى اعتبار .

إنهم تعاطفوا كثيراً مع مشركى مكة ، واعتبروا فعل النبى ﷺ وأصحابه تهديداً لأهل مكة ، وقطعاً لشريان اقتصادى كانوا يعولون عليه كثيراً فى أمنهم الغذائى ومصدر رزقهم .

وكان ينبغى عليهم أن يقفوا طويلاً أمام مشكلة المهاجرين الذين نزلوا المدينة ضيوفاً على أهلها . تاركين دورهم وأراضيهم وأموالهم بمكة فراراً بدينهم وأنفسهم من الاضطهاد والتعذيب الذى تعرَّضوا له قبل الهجرة أكثر من عشر سنوات . وهذا ظلم فاحش وقع عليهم من مشركى مكة ، وحين خرج المهاجرون منها لم يتمكنوا أن يأخذوا معهم من أموالهم شيئاً إلا ما خفَّ حمله ، وبخاصة ما لا يقبل النقل من الممتلكات كالدور والأرض ، ومعروف أن المهاجرين كانوا يخروجون خفافاً متخفين من مشركى مكة الذين كانوا يقعدون بكل مرصد .

وإنا لنتساءل : لماذا لم تحظ هذه المشكلة بنظرة عطف وإنصاف من جيش المستشرقين الجرَّار ، الذى كرَّس كل جهوده لإدانة الإسلام ؟! هذا التحيز الذى أبداه المستشرقون تجاه مشركى مكة كفيل بأن يسقط كل كلمة يقولونها فى هذه القضية .

* *

● بحث القضية فى ضوء القانون الدولى المعاصر :

يدين المستشرقون للقانون الدولى بالولاء ، وكثير منهم كانوا من صنَّاعه وواضعيه . والقانون الدولى يلزم – إذا تحاربت دولتان – يلزم الدولة البادئة بالعدوان بالخسارة والتلفيات الناجمة عن الحرب للدولة المعتدى عليها . وهذا الإجراء ينسحب على قضية المهاجرين . فهم المعتدى عليهم فى أموالهم وأنفسهم . فقد أنزلت بهم قريشاً صنوفاً من العذاب ، وقد اضطر المسلمون المطهدون لترك مكة قبل الهجرة إلى المدينة ، وفروا إلى الحبشة مرتين فراراً من التعذيب . فهل كان مشركو مكة على صواب حين أذاقوهم العذاب علقماً وصاباً ؟ وما الجريمة التى ارتكبها هؤلاء حتى يكون جزاؤهم التعذيب والتشريد ؟

إن كل ما فعلوه هو اعتناق الإسلام لما لاحت لهم حقائقه . جوهر المسألة هنا يكمن فى حرية العقيدة . وهى صنو حرية الرأى . والمستشرقون – جميعاً – يؤمنون بهذه الحريات . فلماذا – إذن – تجاهلوا هذا الإيمان بالنسبة للمسلمين الأوائل ؟

والمسلمون اكتفوا بإيمان أنفسهم ، ولم يجبروا أحداً من قريش بالدخول فى الإسلام . وهذا هو منهج الإسلام نفسه : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّين .. ﴾ [1] .

لو أن المستشرقين المتعاطفين مع كفار قريش سلّموا بهذه الحقائق لما وجدوا كلمة نقد واحدة يوجهونها لخروج المسلمين لاعتراض قافلة قريش ..

لذلك تجاهلوا هذه البدائه كلها ليستسيغوا كيدهم للإسلام والمسلمين فى ظل القانون الدولى نرى - هنا - طائفة باغية بدأت طائفة أخرى معتدلة بالعدوان . الطائفة الباغية المعتدى هم كفار قريش . والطائفة المعتدى عليها - بدون مبرر - هم المهاجرون الأوَّلون . فإذا هبَّ هؤلاء لاعتراض قافلة قريش التجارية فهذا من حقهم شرعاً وقانوناً وعُرفاً : لأنه تعويض عما أصابهم من أضرار من غير جُرم جنوه على أحد .

وكم تمثل قافلة قريش من حجم الممتلكات التى تركوها قسراً بمكة يا ترى ؟ ليس لدينا إحصاء بما تركه المهاجرون بمكة من ممتلكات . وليس لدينا كذلك إحصاء بقيمة ما كانت تحمله القافلة .. ولكن الذى لا نزاع فيه أن القافلة كانت تمثل جزءاً من الثروة التى تركها المهاجرون بمكة .. ولو كان وقتذاك قانون دولى مثل الذى تخضع له الدول المعاصرة لألزم قريشاً بدفع تعويضات عادلة لأولئك المغلوبين على أمرهم من ضحايا الحمية الجاهلية الشرسة واضطهاد الأقوياء للضعفاء .

وصاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - حين قرر الخروج لاعتراض القافلة كان يضع المهاجرين فى المقام الأول دون الأنصار من أهل المدينة ؛ لأن المهاجرين هم الذين أضيروا . فهم أصحاب الشأن فى هذا المجال .

* *

(١) البقرة : ٢٥٦

● اعتبار آخر يدين المستشرقين :

وإذا صرفنا النظر عما تقدَّم كله ، فلدينا اعتبار آخر يدين المستشرقين إدانة ظاهرة فى هذا المجال ، ويكشف عن زيفهم وتحاملهم على الإسلام ، ذلك الاعتبار لا ينكره المستشرقون أنفسهم ولا يقللون من شأنه ومؤاده : أن مكة والمدينة فى ذلك الوقت تعتبران دولتين متحاربتين فعلاً لا فرضاً . وأى دولة تكون فى حالة حرب مع دولة أخرى فليس من حقها - الآن - أن تستخدم طرقها البرية أو البحرية أو أجواءها الفضائية فى أى غرض سلمياً كان أو حربياً. وهذا ينطبق تماماً على موضوع المناقشة - هنا - فقريش قد انتهكت حرمة الحدود لدولة أخرى هى معها فى حالة حرب . أفليس من حق مسلمى المدينة - عموماً - أن يعترضوا قريشاً ويمنعوها من المرور عبر حدودها الإقليمية؟

لا ينازع منصف فى مشروعية ذلك الاعتراض . فالدولة المعترضة - المدينة - هى صاحبة السيادة على طرقها وممراتها . ولا يجوز أن يستخدم أحد - ولو لم يكن فى حالة حرب معها - طرقها وممراتها إلا بإذن من الدولة صاحبة السيادة .

* *

● هو الحق :

ما استشهدنا من واقع القانون الدولى لم نرد به إلا مواجهة المستشرقين بما هم به مؤمنون . أما مقياسنا الأول والأخير فى الحكم على الأشياء فهو إسلامنا قرآناً وسُنَّة . وبالرجوع إلى الإسلام نرى فى جلاء أن خروج النبى ﷺ وأصحابه لاعتراض قافلة قريش ثم المواجهة المسلحة التى ترتبت عليه فى بدر هو الحق الخالص الذى لا شائبة فيه من باطل . وماذا نبغى بعد قول الله تعالى فى وصف ذلك الخروج : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ [1] .

---

(١) الأنفال : ٥

هذا هو الوصف الحقيقى لخروج خاتم النبيين – ومعه شلّة من أصحابه – لمواجهة قريش قافلة وجيشاً ، ولا كلام لأحد بعد كلام قيوم السموات والأرض . هذا فى إيجاز شديد هو حكم الله فى هذه الواقعة .

أما السُنّة فقد تواتر الخبر عن رسول الله ﷺ ، وأيد ذلك التواتر – ظاهر القرآن - تواتر الخبر بأنه عليه السلام قال لأصحابه : « إن الله وعدنى إحدى الطائفتين : إما العير – القافلة التجارية – وإما النفير – الانتصار فى الحرب- »، وأيد ظاهر القرآن هذا الخبر حيث جاء فيه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ (١)

فهل بعد هذا يبقى لباطل أعداء الإسلام ساق – ولو شلّاء - يقف عليها ؟ لا والله . بل : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ، إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾(٢) .

* * *

(١) الأنفال : ٧

(٢) الإسراء : ٨١

تزوير الشعر الجاهلى .. ؟!

من أبرز مظاهر التشويش والتشكيك التى أثارها فريق من المستشرقين الحاقدين على الإسلام فى مطلع هذا القرن العشرين ما أثاروه حول الشعر الجاهلى . وتتلخص إثارتهم حوله فى أنه شعر مزوَّر مكذوب على العرب فى الجاهلية ؛ فزهير بن أبى سلمى وامرؤ القيس والأعشى - مثلاً - أبرياء من الشعر المنسوب إليهم ، والدواوين الحاملة لأسمائهم . بل يذهبون - ومعهم بعض عملائهم من العرب المحدَثين مثل الدكتور طه حسين - إلى أن بعض مَن قيل أنهم شعراء جاهليون لم يكن لهم وجود حقيقى فى الحياة بل هم شخصيات وهمية خرافية نُسجت حولها الأكاذيب فى عصر الإسلام الأول ؟!

وكان أول مَن أثار هذه الشكوك حول الشعر الجاهلى هو المستشرق « مرجليوث » اليهودى الأصل - أستاذ الدكتور طه حسين . وقد يقول قائل : وما صلة هذه القضية بافتراءات المستشرقين ضد الإسلام وهى قضية أوروبية صرفة ؟

هذا السؤال هو مفتاح الفهم الحقيقى لوصف المستشرقين للشعر الجاهلى أنه مكذوب مزوَّر ؟ والفكرة إذا بدت فى إطار أدبى - كما يقال - فهذا تمويه لتمريرها ، ولكن المقصود منها هو إصابة الإسلام من مقتل . فـ « مرجليوث » بإثارته هذه الفكرة كان بمثابة مَن « سخَّن الحديد وألانه » ، ثم طفق الدكتور طه حسين يطرقه ويصنع منه الأشكال التى أرادها أستاذه « مرجليوث » واليهود جميعاً من ورائه .

وإذا وقفنا عند حد مزاعم « مرجليوث » بأن الشعر الجاهلى مكذوب مزوَّر فإن الكذب والتزوير لا بد لهما من فاعل . والفاعل لا بد له من هدف ابتغاه من الكذب والتزوير . فمَن هو الفاعل يا ترى ؟ ثم ماذا كان هدفه من تزوير الشعر الجاهلى برمته ؟!

هذان – الفاعل والهدف – أطنب الدكتور طه حسين فى الحديث عنهما بما يسئ إلى الأمة فى أعز ما تملك . وإليك البيان فى إيجاز :

* الفاعل : فاعل التزوير يحدده الدكتور طه حسين فى كتابه المعروف « فى الشعر الجاهلى » بأنه المسلمون الأوائل رجال القرون الثلاثة الأولى ، الذين شهد لهم صاحب الدعوة بأنهم خير الأجيال إلى قيام الساعة فى قوله : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، وهو حديث صحيح . فهؤلاء الذين يتهمهم طه حسين وأستاذه « مرجليوث » هم الذين وضعوا أسس النهضة العلمية فى الإسلام ، وسار عليها مَن جاء بعدهم . وهم الذين فسَّروا كتاب اللّه ، وجمعوا أحاديث رسوله ، ووضعوا علم أصول الفقه ، ثم الفقه ، وهم الذين جمعوا اللغة العربية واستنبطوا قواعدها نحواً وصرفاً وبلاغة . وهم الذين نقحوا القول فى العقائد ، ودافعوا عن الإسلام وردوا كيد الطاعنين فى القرآن . هؤلاء البررة الأطهار هم الذين رماهم طه حسين وأساتذته المستشرقون بالكذب والتزوير والافتراء المتعمد ؟!

* الهدف : والهدف من هذا التزوير – كما يرى طه حسين ومستشرقوه – أن يستدل علماء الإسلام الأوائل على « عروبة القرآن ، وعروبة الحديث » ؟! هكذا يزعم هؤلاء فى غير حياء ولا خجل . وقد احتفل الدكتور طه حسين بهذه المفتريات أيما احتفال فى كتابه المذكور ، واقترف آثاماً أخرى كثيرة فى مقدمتها أنه ذهب إلى أن الوقائع التاريخية ، ومنها تاريخ الأنبياء كإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام – التى ورد ذكرها فى القرآن الأمين – أن ذكرها فى القرآن ليس كافياً للتصديق والتسليم بها إلا إذا أيَّدها منهج البحث العلمى الحديث ؟! هذا فى إيجاز شديد خلاصة ما ذهب إليه بعض المستشرقين ، وتابعهم تلميذهم طه حسين فيه ؟!

* *

● النتائج :

المسألة - كما تقدَّم - ليست مقصورة على مجرد قضية من قضايا تاريخ الأدب ونقده . بل الهدف منها أبعد من ذلك بكثير ، وهى مسألة المقصود منها إصابة الإسلام فى مقتل .

لأنه إذا صحَّ - جدلاً - أن رجال القرون الثلاثة الأولى ، ومَن جاء بعدهم ، قد زوَّروا الشعر الجاهلى . فمعنى ذلك أنهم لم يكونوا أمناء فى كل ما قالوه ، وفى كل ما رووه ودوَّنوه فى مؤلفاتهم التى تفوق الحصر ، وهذا يفتح أبواب الريب على مصاريعها فيما جمعه أولئك الأبرار من علوم وفنون : فتفسيرهم لكتاب الله يعتريه الشك . ؟! وجمعهم لحديث رسوله تحيط به الظنون . وما دوَّنوه من كتب السيرة والتاريخ والأصول والعقائد والفقه واللغة ، وكل ذلك يصبح موضع شك وارتياب ، لأن ما يصدر عن غير الأمين لا ثقة فيه وهذا هو المقصود للحاقدين على الإسلام من المستشرقين وعملائهم منا ، وإن صلوا وصاموا وزعموا أنهم مسلمون .

* *

● دحض هذه المفتريات :

هذه الدعوى - كنظيراتها مما روَّجه المستشرقون عن الإسلام - هى الزور والبهتان بعينه ..

فحين صدر كتاب طه حسين عام ١٩٢٦ الذى ضمَّنه هذه التهم ، وثارت ثائرة المسلمين فى مصر - حكومة وشعباً - وفى غير مصر ، وانتهى الأمر بأن صدور الكتاب ، فى ذلك الحين تصدى فريق من العلماء الغيورين على الإسلام مثل الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق ، والأستاذ أحمد محمد الغمراوى وفريد وجدى ، وغيرهم ، تصدوا علمياً لمزاعم « مرجليوث » وطه حسين وفنَّدوا شبهاتهم واحدة إثر أخرى . وكشفوا عن الزيف والباطل الذى عرضه طه حسين فى كتابه المذكور . وأثبتوا بأقطع الأدلة أن طه حسين كان

مغالطاً زائغاً عن الحق ، يعتمد الإساءة للإسلام وسيرة رجاله ، وكان المرحوم مصطفى صادق الرافعى ممن تصدى لأباطيل طه حسين و « مرجليوث » فى كتابه القيم « تحت راية القرآن » ، وما تزال مؤلفات هؤلاء الأغيار فى الرد على هذه الأباطيل متداولة فى الأسواق . وكلهم قد نزحوا عن قوس واحدة فى تسفيه ما ذهب إليه طه حسين وأساتذته .

وممن أسهم فى الرد المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « مطلع النور » تحت عنوان : « تزوير الشعر الجاهلى مستحيل » ، ونهج فى رده منهجاً نفسياً توصل من خلاله أن تزوير أدب أمة واحد من المستحيلات التى يرفضها العقل .

فشعر امرئ القيس - مثلاً - موزَّع على مراحل عمره ، ولشعر كل مرحلة منها خصائص فريدة . فمَن ذا - يا ترى - ذلك العبقرى الذى يحسن أن يقول شعراً متفاوت السمات ثم يدَّعى أنه شعر امرئ القيس ؟! وهكذا يقال فى جميع الشعراء الجاهليين .

* *

● عروبة القرآن يقين :

والقرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين ، وهو ليس فى حاجة إلى أن تتوقف عروبته على شعر جاهلى أو غير جاهلى . هذا خطأ شنيع وقع فيه طه حسين ، أو افتراء وجهل ليس لهما مثيل . ومفسرو القرآن ، وشارحو حديث رسول الله ﷺ حين يستشهدون بشئ من الشعر على تفسير آية أو حديث أو كلمة فى آية أو حديث لم يكن هدفهم التدليل على عروبة القرآن أو الحديث . بل كان هدفهم الشرح والإيضاح أو أن العرب كانوا يقولون ذلك . وهذا على سبيل الاستئناس لا على سبيل الوجوب .

وما استعمله المفسِّرون والمحدِّثون من الشعر الجاهلى قليل جداً إذا قورن بما للشعراء الجاهليين من تراث شعرى . فالإمام الزمخشرى فى تفسيره « الكشاف »

لم يتجاوز ألف بيت من الشعر ، مع أن الزمخشرى كان معروفاً بأنه أكثر المفسرين استشهاداً بالشعر ، ومما يدحض دعوى طه حسين ومستشرقيه أمور :

أولا : أن الشعر الجاهلى واستعمالاته للغة - إفراداً وتركيباً - أوفر بكثير مما جاء فى القرآن الكريم .

ثانياً : أن فى القرآن الكريم ألفاظاً وتراكيب ليس لها نظير فى الشعر الجاهلى .

ثالثاً : أن استشهاد المفسِّرين والمحدِّثين لم يكن مقصوراً على الشعر الجاهلى بل استشهدوا - كذلك - بشعر الإسلاميين فى عهدى الأمويين والعباسيين .

رابعاً : أن علماء اللغة والبلاغة - كما استشهد المفسِّرون والمحدِّثون بالشعر الجاهلى فى التفسير وشرح الحديث - استشهد علماء اللغة والبلاغة وغيرهم على القواعد اللغوية بالآيات القرآنية ، وبالأحاديث النبوية .

خامساً : أن جامعى اللغة ومستنبطى أصولها وقواعدها كانوا يتحرون الدقة فى الرواية . فلم يأخذوا اللغة عن كل مَن هبَّ ودبَّ ، بل كانوا يقبلون روايات العرب الأقحاح ، والبدو الخُلَّص الذين لم تلن ألسنتهم رخاوة الحضارة . ولم تفسد لهجاتهم مخالطة الشعوب غير العربية .

سادساً : أن جمع اللغة - وبخاصة الشعر - بدأ مبكراً قبل تصدى العلماء لتفسير كتاب الله ، وجمع سُنَّة رسوله . ونشير هنا - مجرد إشارة - إلى كتاب : « جمهرة أشعار العرب » لأبى زيد القرشى ، وكان من رجال القرن الثانى الهجرى فى بعض الروايات ، وكتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام الجمحى المتوفى فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وهذان الكتابان من أسبق الكتب فى جمع أشعار العرب الجاهليين ومَن جاء بعدهم فى صدر الإسلام . فهل المسبب يتقدم على السبب ؟ طه حسين يقول إن سبب تزوير الشعر الجاهلى هو حاجة المفسرين والمحدِّثين لإثبات عروبة القرآن والحديث ، ووجود الشعر الجاهلى مزوراً هو المسبب ، وها نحن قد رأينا وجود الشعر الجاهلى قبل بدء تدوين كتب التفسير والحديث . وعلى هذا يلزم منطق طه حسين المعوج أن

المسبب يتقدم على السبب ، وهذا باطل فى حكم العقل والعلم والواقع والنقل ؟!

الأب – مثلا – سبب فى وجود أبنائه . وأبناؤه مسبب عنه . فهل يصح فى العقول أن يولد الأبناء قبل ولادة أبيهم ويكونوا أكبر منه عمراً وأسبق وجوداً فى الحياة ؟!

نحن نفهم أن يفترى الحاقدون من المستشرقين على الإسلام ما شاءوا ، ولكن لا نفهم أن يجاريهم فى هذا أناس يقال إنهم مسلمون . وصدق الشاعر الذى قال :

واللياليى من الزمان حبالى   مثقلات يلدن كل عجيب ؟!

* * *

لماذا لم يُعيِّن الرسول خليفة له ؟

معروف أن صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - لم يُعيِّن مَن سيكون والياً لأمر المسلمين بعد وفاته . وإن كانت بعض التصرفات النبوية ترشح أبا بكر لهذه المسئولية لكن تلميحاً لا تصريحاً . والسبب فى عدم تعيين خليفة هو إتاحة الفرصة للأمة فى أن تختار مَن يتولى أمرها بنفسها ، لأن مسألة الخلافة أو الإمامة العظمى أمر سوف يتجدد طيلة الحياة . وليس معقولاً ولا واقعياً أن يُعيِّن الرسول ولاة الأمر إلى قيام الساعة . وقد مارس المسلمون فى صدر الإسلام طرقاً عدة فى شأن الولاية العظمى ، فكانت تولية أبى بكر عن طريق البيعة العامة مختاراً من بين ثلاثة مرشحين هو وعمر وأبى عبيدة ، وكانت تولية عمر عن طريق العهد من أبى بكر ، ولكنه العهد المشروط برضا الأمة ، ثم كانت تولية عثمان عن طريق الانتخاب من خلال درجتين - فهو أحد الستة الذين رشحهم عمر ، والستة كانوا من الذين توفى صاحب الدعوة وهو عنهم راض .

وقد اكتسبت الأمة خبرات فى نظام الحكم والممارسة المباشرة لشئون الإدارة العليا نجم عنها نظام فريد فى العالم ، وهو أن الأمة هى مصدر السلطات فى التولية والمراقبة لولاتها وعزلهم إذا اقتضى الأمر ، بينما كان يشيع فى العالم إذ ذاك نظم غاشمة منها وراثة الحكم ، وتقديس الحكّام وعائلاتهم ، ومنها أن الحكام لهم حقوق على رعاياهم وليس لرعاياهم عليهم أية حقوق . فجاء النظام الإسلامى وأحدث انقلاباً عظيماً فى نظام الحكم ، ومنه سرت ما تسمى بالنظم الديمقراطية فى العالم المعاصر . أضف إلى ذلك أن مهمة الرسالة والرسول كانت فى إرساء قواعد المنهج وأصوله المتمثلة فى كتاب الله وسُنَّة رسوله . أما اختيار القادة والولاة فهو من شأن الأمة .

هذا هو الواقع . ولكن بِمَ فسَّر المستشرقون هذا العمل ، أعنى عدم النص من النبى على مَن يكون خليفة له ؟

يقول المستشرق « كازانوفا » - وهو من أصل يهودى - إن محمداً (ﷺ) لم يعيِّن خليفة له ، لأنه كان يعتقد أن القيامة ستقوم فى حياته أو بعد موته مباشرة ؟!

ذكر هذا الكلام المضحك الذى لا يمكن صدور مثله عن عاقل فى كتاب له يُسمى « محمد ونهاية العالم » وقد جاراه فيه بصورة أخف المستشرق « بلاشير » فى كتابه « القرآن » حيث يقول : إن خيالاً ظل ملازماً للنبى الجديد بأن الكارثة التى ستقضى على العالم ستكون قريبة ، دون أن يحدد الوقت الذى ستقع تلك الكارثة فيه ؟!

ويمضى « كازانوفا » فيقول : إن أصحاب النبى كانوا مثله فى ذلك الاعتقاد ولذلك أحسوا بالحَرَج لما توفى النبى ولم تقع الساعة ، فكان لا بد من البحث عن مخرج من ذلك الحَرَج ؟!

ويتطوع « كازانوفا » بوهمه المريض الحاقد فيقول : إن ذلك المخرَج كان فى اضطرار أبى بكر إلى اختراع آيتين وإضافتهما إلى القرآن إحداهما : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [1] ، والثانية : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [2] .

ولكن كيف استدل « كازانوفا » على هذا الزعم والافتراء ؟ ومن أين فهم أن الرسول كان يعتقد قيام الساعة فى حياته ؟! إذا عرفت دليله ظهر لك إما جهله الفاضح . وإما حقده وافتراؤه المكشوف على الرسالة والرسول . إن دليله هو قوله تعالى مخاطباً خاتم الرسل : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [3] .

---

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) الزمر : ٣٠ - ٣١ (٣) الحجر : ٩٩

هذه الآية ليس فيها من قريب أو بعيد أى دليل لـ « كازانوفا » وأتباعه فقد فهم أن « اليقين » فى الآية المراد منه « القيامة » وهذا هو الجهل فى أجلى صوره ؛ لأن المراد من « اليقين » فيها : « الموت » . أى دُمْ على عبادة ربك حتى يوافيك أجلك .

والقيامة وُصفت فى القرآن بأوصاف كثيرة واضحة الدلالة عليها ، مثل : الطامة - الصاخة - القارعة - الآزفة - الساعة - الحساب - البعث - الخروج - الحاقة - الواقعة - أمر الله - النفخ فى الصور .. ولم توصف ولا سميت بـ « اليقين » . فمن أين فهم « كازانوفا » أن المراد منه الساعة يا ترى ؟!

وفى القرآن الحكيم مواضع عدة تفيد - صراحة - أن علم الساعة عند الله وحده لم يطلع عليه أحداً ، لا مَلَكاً مقرّباً ولا نبياً مرسلاً ، والقرآن كما تقول أم المؤمنين عائشة : كان هو خُلُق رسول الله ﷺ ، وإنا لنتساءل : لماذا تجاهل « كازانوفا » ومشايعيه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ (١) .. أى لا تعلم متى تكون .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

والقيامة غيب ، بل هى من أغيب الغيوب ، وصاحب الدعوة يقول كما أمره ربه : ﴿ .. لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ .. ﴾ (٣) .

وفى الحديث الصحيح حين جاء جبريل النبى ﷺ فى صورة رجل يسأله عن أمور كان منها : أخبرنى متى الساعة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » يعنى أن كلاً من جبريل والرسول لا يعلم من أمر الساعة شيئاً .

---

(١) النازعات : ٤٢ - ٤٣ (٢) الأعراف : ١٨٧ (٣) الأنعام : ٥٠

صحيح أن القرآن أفصح أكثر من مرة أن الساعة ستكون قريباً كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [2] . ولكن هذا القرب بالنسبة لعلم الله وحده لا يشركه أحد فيه .

هذا هو الحق الذى عمى عنه « كازانوفا » أو تعامى كما عمى أو تعامى أسلافه الذين مسخهم الله قردة وخنازير .

أما افتراؤه على أبى بكر بتحريف القرآن - ومعاذ الله من ذلك - فإن « كازانوفا » يهودى وأسلافه حرّفوا التوراة وخانوا أمانة الوحى عمداً فظن أن كل المؤمنين وورثة الرسالات قد يصنعون مثل ما صنع أسلافه الملعونون على لسان داود وعيسى عليهما السلام .

* *

● الهدف :

إن الهدف الذى أراده « كازانوفا » من وراء هذا العبث هو أن يوهم الأغمار من الناس ، وأن يشيع بين شعوب الغرب والشرق أن القرآن محرّف ، وفيه ما فيه من صنع البَشر ، وأن يرمى السَلَف الصالح من المسلمين بالخيانة والتزوير ؟! وهيهات هيهات لما يدّعى . فباطله وباطل أمثاله من أعداء الإسلام - مبشرين ومستشرقين وملحدين - أشبه ما يكون بكرة من الثلج تنمو ليلاً وتحت درجة الصفر من البرودة فإذا أشرقت الشمس ذابت تلك الكرة تحت أشعتها ، وتبخرت وذهبت أدراج الرياح .

* * *

---

(١) الشورى : ١٧ (٢) المعارج : ٧ - ٨

أُميَّة صاحب الدعوة .. صلى الله عليه وسلم

فى ختام تصدينا لافتراءات المستشرقين آثرنا أن يكون مسك الختام الحديث عن أُميَّة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم . وتجدر الإشارة إلى أن المستشرقين لهم موقفان متضادان من أُميَّة النبى عليه الصلاة والسلام : فمرة يقولون إنها أُميَّة مكذوبة ادَّعاها المسلمون لإثبات إعجاز القرآن ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن أُميّاً ، بل كان يقرأ ويكتب ؟!

ومرة يقولون : إنها أُميَّة حقيقية . ثم يرتبون على ذلك مدخلاً للطعن والقدح فى صاحب هذه الأُميَّة ، مستثمرين فى هذا المجال أن طبيعة هذا العصر تصم الأمى بالجهل والتخلف . فكفى ذماً لرجل أن تصفه بأنه جاهل لا يقرأ ولا يكتب ، ومعنى هذا أن المستشرقين يثبتون الشئ ونقيضه فى وقت واحد وهم يتحدثون عن الإسلام . ما دام فى إثبات الشئ ونقيضه ما يحقق لهم الوثوب على الإسلام والإساءة إليه . والأمر المؤسف حقاً أنهم استطاعوا أن يؤثروا على بعض المثقفين من المسلمين ، فراح هؤلاء المثقفون يجتهدون فى نفى الأُميَّة عنه عليه الصلاة والسلام ، ونيَّة هؤلاء المثقفين حسنة ولكنهم مخطئون فى موقفهم هذا ؟

*   *

● **أُميَّة ثابتة بالكتاب والسُنَّة :**

وفى البداية نسارع فنقول : إن أُميَّة النبى ﷺ ، بل وأُميَّة قومه حين المبعث وقبله ، أُميَّة حقيقية ثابتة بالكتاب والسُنَّة . فمن نصوص الكتاب فى أُميَّة الرسول قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ (١) .

وأما أُميَّة قومه فمما جاء فيها فى الذكر الحكيم : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ (٢) .

---

(١) العنكبوت : ٤٨   (٢) الجمعة : ٢

وفى الحديث الصحيح : « نحن أمة أميَّة لا نكتب ولا نحسب » .

وفى القرآن نصوص أخرى تقرر هذه الأميَّة . فلا مناص من الإقرار بها ، ومن يجارى المستشرقين فى شقى دعواهم – وإن كان حسن النيَّة – فهو حائد عن الصواب . فالأميَّة أميَّة حقيقية لا كما يدَّعى المستشرقون فى شق دعواهم الأول أنها أميَّة غير حقيقية بل مدَّعاة ، وثبوت هذه الأميَّة لصاحب الدعوة سمة من سمات الفضل ورفعة الشأن ، لا كما يدَّعى المستشرقون أنها من سمات النقص والانحطاط . والمسألة فى حاجة إلى التبصر وعمق النظر وعدم الانسياق وراء الأوهام .

* *

● ليست مدَّعاة من أجل الإعجاز :

سبق لنا فى هذه المواجهة أن أثبتنا بالدليل القاطع أن إعجاز القرآن ليس فى حاجة الى أى اعتبار من خارج القرآن . بل هو إعجاز ذاتى قائم بذات القرآن ، وكامن فى نظمه وبيانه ، ولا شئ من الإعجاز متوقف على أمر خارج دائرة القرآن نفسه ، فهو معجز بذاته سواء أكان صاحب الدعوة أميًا كما هو الحق والصواب ، أو كان قارئاً كاتباً على فرض ثبوت القراءة والكتابة له صلى الله عليه وسلم . وهو فرض مستحيل الوقوع لورود الأدلة القاطعة على نفيه . وهى أدلة مستقاة من الكتاب والسُنَّة كما تقدَّم ، ثم من وقائع التاريخ لتلك الفترة التى نزل فيها القرآن .

* *

● الحكمة فى هذه الأميَّة :

قلنا إن إعجاز القرآن صفة ذاتية للقرآن نفسه ، ولن يؤثر فيها أى ظرف خارجى . فهو معجز فى كل حال . أما الحكمة من أميَّة النبى ﷺ فتتجلى فى اعتبارين :

الأول : قطع أسباب الريب عن قصار النظر من ضعاف الإدراك ومن هواة الباطل . إذ لو كان النبى يقرأ ويكتب لوجد الشيطان مدخلاً إلى عقول بعض الناس بأن القرآن صنعة محمد ﷺ ومن تأليفه ، ولوجد خصوم الدعوة سلاحاً شديد التأثير على ضعاف البصيرة . وسداً لهذه الذرائع ، وحسماً لوساوس شياطين الجن والإنس أرادت حكمة الحكيم أن يكون صاحب الدعوة أُميًّا .

الثانى : أن الله عَزَّ وجَلَّ لم يرض أن يكون من البَشر معلّماً أو أستاذاً لصاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم . ولذلك لم يجلس محمد ﷺ من أحد مجلس التلميذ من الأستاذ أو المتعلم من المعلم . بل كان معلمه واحد فى الوجود هو الله تعالى ، وقد أشار القرآن إلى هذا الفضل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (1) ، هذا الخطاب السامى الجليل لم يخاطب الله به أحداً من عباده سوى خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم .

ولا يقدح فى هذه الحقيقة أن خديجة رضى الله عنها فى بدء الوحى استصبحت النبى ﷺ إلى ورقة بن نوفل الكاهن المعروف لأن هذا كان من باب الاستطلاع والمشورة لا من باب جلوس تلميذ أمام أستاذ .

وكم كانت – يا ترى – مدة هذه الزيارة ؟ نصف ساعة أو ساعة مثلاً ؟ وهل تكفى هذه المدة – نصف ساعة أو ساعة – لأن يكون « ورقة » أستاذاً لمحمد ، ومحمد تلميذاً له .

والمحفوظ عن تلك الزيارة أن « ورقة » شهد شهادة قاطعة – بما له من خبرة عن وحى الله – أن ما تلقاه محمد ﷺ فى غار حراء هو كلام الله من مثل ما كان ينزل على الرسل من قبل . ثم انتهت المقابلة عند هذا الحد .

---

(1) النساء : 113

أما دلالة التاريخ على أميَّة النبى وقومه فمما لا يُقبل فيها جدل ، فقد تواترت بها الرواية ولم يطعن فى ثبوتها أحد جيلاً بعد جيل ، إلا فى هذا العصر الذى تخرَّج فيه بعض المثقفين من المسلمين مما رتبه المستشرقون على أميَّة النبى ﷺ من قوادح ومذام ، وقد عاضد هذا الموقف ما يوصم به الأميون من جهل ، ولوجود الفوارق الهائلة بين رجل يجيد القراءة والكتابة وبين رجل آخر لايفرِّق بين الألف وكوز الذُرَة - كما يقال .

وأميَّة العرب فى عصر المبعث وقبله لم تكن أميَّة مائة بالمائة ، بل كان فيهم مَن يقرأ ويكتب ، ولكنهم نسبة ضئيلة ، بينما السواد الأعظم منهم كانوا أميين لا قارئين ولا كاتبين ، ولذلك كان اليهود يسمون العرب أميين ويهدرون حقوقهم كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ذَلكَ بأنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (١) أى يفعلون معهم ما شاءوا من غدر وانتهاك حقوق .

وكلمة « أمىّ » ترجع فى أصل اشتقاقها إلى « الأم » ، أى إلى الحالة الأولى التى وُلِدَ عليها الطفل . والطفل حتى الآن يولد جاهلاً بكل شئ . وبخاصة القراءة والكتابة ، لأنها من الأمور التى يكتسبها الإنسان بالتعلم فى مراحل حياته اللاحقة للطفولة المبكرة ، فالياء فى « أمىّ » للنسب وليست للإضافة .

* *

● الحكمة فى أميَّة قوم النبى :

أشرنا - قبل - إلى طرف من الحكمة فى أميَّة النبى ﷺ . أما الحكمة فى أميَّة قومه - وهم البيئة التى نشأ فيها النبى - فزيادة حسم وإعدام لوساوس شياطين الجن والإنس التى تزعم أن لمحمد ﷺ معلِّم من البَشر ، إذ كيف يكون لهذا المعلِّم وجود فى بيئة أُميةٍ ، ولقلة القارئين والكاتبين فيها لو كان النبى يتردد على واحد منهم ، أو كل واحد منهم يتردد عليه ، لما خفى الأمر على أحد من خصوم الدعوة ، ولتمسك بذلك كفار قريش وأثبتوه بكل قوة .

---

(١) آل عمران : ٧٥

ولذلك لما احتاجوا إلى أن يُدعوا هذه الدعوى لم يجدوا عربياً واحداً من قومه يصلح أن يكون معلماً له ، فنسبوا تعليمه لرجل أعجمى ليس عربياً ، وحكى القرآن عنهم هذا الزعم ثم أبطله بدليل أقطع من السيوف البواتر .

قال فى عرض دعواهم : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١) .

وقال فى إبطال ونسف هذه الدعوى : ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

وفحوى دليل الإبطال : كيف يتعلم رجل لا يعرف لغة معلمه ولا معلمه يعرف لغته ؟! دليل قاطع مفحم كما ترى .

* *

● الحكمة من أُميِّته - صلى اللّه عليه وسلم - وأُميِّة قومه :

أشرنا فيما مضى إلى الحكمة من أُميِّته عليه السلام ، وإلى الحكمة من أُميِّة قومه كلٍ على انفراد .

ونريد هنا أن نشير إلى الحكمة من الأُميِّتين معاً فى إطار واحد :

وخلاصة ما هدانا إليه النظر أن اللّه تعالى إقتضت حكمته البالغة ألا يُنْسب تعليم النبى وتعليم قومه إلى أحد سواه . فهو - وحده - معلمها .

وبفضل هذا التعليم الرفيع الشأن ملأ صاحب الدعوة ربوع الكون نوراً وهدىً . وبفضل هذا التعليم المبارك تحوَّل العرب - قومه - من أمة خاملة إلى أمَّة رائدة قادت البَشرية جمعاء من الظلمات إلى النور . وكانت خير أُمة أُخرجت للناس : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٣) .

---

(١) النحل : ١٠٣ . (٢) النحل : ١٠٣ . (٣) آل عمران : ١١٠ .

الله علّم رسوله ، ورسوله علّم أمته .. فاتصلت الأمة بحبل الله المتين ، وولدت من العدم فى مجالات القيادة والريادة الراشدة . وكفى بذلك معجزة للرسالة وصاحبها . وقد صدق البوصيرى إذ يقول مخاطباً إمام المرسلين وسيد الهداة :

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له   وأنت أحييتَ أقواماً من الرمم

أمة خرجت من الصحراء فرادت العالم بحواضره العملاقة ، وكهوفه وقراه ، إنه لمعجزة خالدة للإسلام صنعها فى أقل من ربع قرن من الزمان كان مَنْ ولد من البَشر مع مولد الإسلام شباباً فى سن المراهقة أو قريبى عهد بالمراهقة . والأمم لا تبنى وتزدهر فى مثل هذا الزمن القصير إلا إذا كان البانى مَن له ملكوت السمٰوات والأرض . وبيده - وحده - مقاليد الأمور .

*   *

● القراءة والكتابة وسائل لا غايات :

يتعلم الناس القراءة والكتابة باعتبارهما وسيلة من وسائل تحصيل العلم الموروث . أى المعارف التى لها وجود سابق ، وسطرت فى الكتب ، وبخاصة التاريخ النبوى من لدن آدم حتى عيسى عليه السلام ، هذا ما كان له وزن فى معارف العصور القديمة .

ومحمد ﷺ وقومه لم يكونا فى حاجة إلى تحصيل ذلك العلم ، والتاريخ النبوى كان وقتذاك قد أصابه كثير من التحريف والتبديل . فلم يكن تحصيله على علأته التى أشرنا إليها مجدياً شيئاً بالنسبة لصاحب الرسالة وقومه . لذلك لم تكن معرفة القراءة والكتابة - بالنسبة لهما - أمراً ذا خطر ، لأن الله قد ادخر للأمة ولصاحب الدعوة وسيلة أخرى لتحصيل علم آخر ، تلك الوسيلة الأخرى هى الوحى ، وذلك العلم الآخر هو الحقائق الناصعة التى جاء بها الوحى. وبعد رسوخ ذلك العلم شاعت القراءة والكتابة بين العرب قدم النبى لتحصيل ذلك العلم الجديد وحفظه وتبليغه وتدوينه للأجيال اللاحقة إلى يوم القيامة ،

فحرمان الأمة - ومعها رسولها - قبيل الإسلام من معرفة القراءة والكتابة لم يكن عاراً ولا جهلاً ، ولم يعقدها - فيما بعد - أن رائدة الأمم شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً فى العلم الصحيح ، والمعرفة الناهضة ، والوسائل لا تَشْرُف إلا بسمو غاياتها وهذا ما أكسب وسيلة القراءة والكتابة شرفاً لا يضارع فى ظل الإسلام حيث صارت أداة لخدمة الوحى وتسجيل حقائقه بكل أمانة وإخلاص ، وفقه وبصيرة .

لقد تفرَّد الله بتعليم رسوله محمد ﷺ وتأديبه وتربيته ، وتفرد رسوله بتعليم أمته وتأديبها وتربيتها . ونشأت هذه الأمة الأميَّة على روح القرآن فطبقت ذكراها الآفاق . وتغيَّر وجه التاريخ الإنسانى . أمة صنعها فلم يكن لأمم الحضارة عليها فضل من أستاذية أو توجيه . فجاءت هذه الأمة حرة من قيود الأرض ، مهتدية بنور السماء ، تصرف أمرها على هدىً من كتاب الله العزيز وسُنَّة رسوله الخاتم . وأشار القرآن العظيم إلى أثر روح القرآن فى تربية الرسول وأمته التى لبتْ نداء ربها : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (١) .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

فيه ذكركم : أى شرفكم على الأمم - هكذا قال المفسرون .

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ (٣) .

أى شرف لك ولقومك .

* *

(١) الشورى : ٥٢ - ٥٣ (٢) الأنبياء : ١٠ . (٣) الزخرف : ٤٣ - ٤٤

● ما أغنت عنهم من شئ :

وهل سأل المتحرجون من وصف النبى ﷺ وقومه بالأميَّة . هل سألوا أنفسهم ماذا أغنت معرفة القراءة والكتابة عن الأمم التى كانت تجيدها قبل الإسلام وبعده . إن الفُرس والروم معدودتان فى أمم الحضارة القديمة وكانتا تجيدان القراءة والكتابة حين كانت الأمة العربية أمة أميَّة ، ومع هذا كانت دولتا الفُرس والروم غارقتين فى الجهل والجهالة .. سادرتين فى الضلال . فما أغنت عنهم معرفتهم من شئ . والمثال نفسه صالح الآن ليشمل أمماً وشعوباً معاصرة تقدمت ثقافتها مجرد القراءة والكتابة إلى ميادين فسيحة من العلوم والمعارف والاختراعات . ومع هذا فهى أمم لا وزن لها فى ميزان الحق ، وكثير منها أحلَّتْ العلم محل الإيمان بالله . وأصابها فقر فظيع فى مجال الأخلاق والفضائل النفسية . أما تلك الأمة الأميَّة ، ورسولها الأمى فقد واجهت العالم كله بحضارة لم يعرف لها مثيل ، ولن يعرف لها مثيل ، وقطعت أشواطاً مديدة من الزمن دون أن ينال منها قدَم ، أو تقف صدقها وسحرها حداثة . وكل يوم يمر يكشف من الإسلام معجزات ومعجزات فى شتَّى مجالات العلوم والمعارف : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ (١) .

* *

● لسنا معهم :

أما ذلك الفريق من مثقفى المسلمين الذين انصاعوا لمقولات المستشرقين فراحت طائفة منهم تروِّج ما قالوا ضد نبى الإسلام ، وتزعم أن لا النبى كان أميًّا بمعنى لا يقرأ أو لا يكتب ، ولا قومه كانوا أميِّين يجهلون القراءة والكتابة ، سواء أكانوا حسنى النية أو سيئيها فقد أخطأوا خطأً فاحشاً ؛ لأنهم - بفعلهم

---

(١) التوبة : ٣٢

هدا - يهدرون قيمة الأخبار الصادقة الواردة فى القرآن أصدق الحديث ، والواردة عن صاحب الدعوة الصادق المصدوق .

ونحن لسنا معهم - ولن نكون - ولن نتحرَّج كما تحرَّجوا من وصف النبى ﷺ وقومه بالأميَّة . فهى أُميَّة شرف ورفعة - كما بيَّنا - وليست أميَّة جهل وتخلف وانحطاط .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

البلد الطيب الأمين .. مكة المكرمة .

فى ليلة الخميس ٢٤ من شعبان سنة ١٤١٢ هـ (٢٧ من فبراير سنة ١٩٩٢ م) .

والحمد لله فى الأولى والآخرة .

عبد العظيم بن إبراهيم بن محمد المطعنى

* * *

---

(١) الأعراف : ١٥٧

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

* * *

رقم الايداع : ٤٥٥٧ - ٩٢

I.S.B.N 977 - 00 - 3403 - 7